مُقَدِّمَةُ الطَّبعَةِ الثَّانِيَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه هي الطبعة الثانية من هذا الكتاب، وذلك بعد أن نفدت الطبعة الأولى التي طبعت مرتين.

وهذه الطبعة تميزت بتصويبات، وإعادة ترتيب لبعض الموضوعات، كما اشتملت على بعض الزيادات اليسيرة؛ فأسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل هذا العمل، وأن يطرح له القبول.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

محمد بن إبراهيم الحمد

١٤٢٤/٥/٢٥هـ

الزلفي ١١٩٣٢

ص ب: ٤٦٠

www.toislam.net

مُقَدِّمَةُ الطَّبعَةِ الأُولَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يو م الدين.

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الإسلامَ دينُ تربيةٍ للملكات، والفضائل والكمالات.

ولكل عبادة في الإسلام حكمةٌ أو حكمٌ يظهر بعضُها بالنص عليه، أو بأدنى عملٍ عقليٍّ، وقد يخفى بعضُها إلا على المتأمِّلين المتعمِّقين في التفكر والتدبر، والموفقين في الاستجلاء والاستنباط.

والحكمةُ الجامعةُ في العبادات كلِّها هي تزكيةُ النفوس، وتطهيرها من النقائص، وتصفيتُها من الكُدُرات، وإعدادُها للكمال الإنساني.

ولكلِّ عبادةٍ في الإسلام تُؤَدَّى على وجهها المشروع، أو بمعناها الحقيقي آثارٌ في النفوس تختلف باختلاف العابدين في صدق التوجُّه، واستجماعِ الخواطر، واستحضارِ العلاقة بالمعبود.

والعباداتُ إذا لم تعطِ آثارَها في أعمال الإنسان الظاهرةِ فهي عبادةٌ مدخولةٌ، أو جسمٌ بلا روح.

هذا وإن للصوم حكما باهرةً، وأسراراً بديعةً، وآثاراً على الفرد والجماعة.

وإن شهرَ رمضانَ لسيدُ الشهورِ، ومدرسةُ الأجيالِ، وميدانُ المسارعةِ واستباقِ الخيرات.

ومازال المسلمون ينهلون من معينة العذبِ، ويُفِيدون من دروسه النافعة، وينالون من بركاته المتنوعة.

وما برح العلماءُ والفضلاءُ يعتنون بشأن الصيام، ويبينون أحكامه، ويُجَلُّون

حكمه وأسراره.

ومما نالته عنايةُ العلماء أن أفردوا للصيام كتباً في مصنفاتهم في الفقه، وفي الحديث، وفي شروح الحديث، كما أنهم تطرقوا للصيام وشَهْرِه المباركِ في كتب التفسير، وذلك عند تفسيرهم للآيات الواردة في هذا الشأن.

بل إن كثيراً من أهل العلم أفردوا الصيام بكتب خاصة.

ومن هذا القبيل في التصنيف كِتَابتُهم أحاديثَ خاصةً في رمضان تُقْرَأُ على الناس طيلةَ أيامِ الشهر.

ومن خلالها يُبَيَّنُ للناس ما يحتاجون إليه من أحكام الصيام، وحكمه وأسراره، وآثاره ـ وإن كانت العناية بالأحكام أكثر من العناية بالحكم والأسرار والآثار ـ.

ولقد نفع الله بتلك المؤلفات، وما زال النفعُ بها قائماً إلى يومنا هذا؛ فجزى الله مؤلفيها خير الجزاء، وجعل ذلك ذخراً لهم في العقبى.

ورغبةً في اللحاق بأولئك السَّراةِ الأماجدِ كان التفكيرُ يراودني بين الفينةِ والأخرى في الكتابة في هذا الشأن.

وبعد استخارة واستشارة يسَّر اللهُ كتابة هذا الكتاب الذي يحمل المسمى التالي:

«رمضان دروس وعبر تربية وأسرار»

والحديث فيه ـ إن شاء الله ـ سيتناول الأسرار، والدروس، والعبر، والآثار التي تُدْرَكُ بالصوم، وتحصلُ من جرَّائه.

ولن يكون الحديثُ في هذا الكتاب عن الأحكام إلا بإجمال؛ ذلك أن الحديث عنها متوافرٌ، والناس ـ في الأغلب ـ يحتاطون لأنفسهم، ويسألون عن أدق الأمور في الصيام.

وإذا استشعر الصائمون معانيَ الصوم، وحِكَمَه وآثارَه، وأسرارَه، ودروسَه وعِبَرَه كان ذلك دافعاً لهم أن يؤدوه على الوجه الأكمل، وأن يزداد إقبالهم عليه قوة إلى قوة، وأن يكون له الأثر البالغ في حياتهم وتعاملهم.

وما من ريبٍ أن صيامَ هذا الشهر على الوجه المشروع يؤتي ثماره اليانعة، من

الثبات على الحق، وزيادة الإيمان، وقوة اليقين، وقيام الأخلاق الجميلة، وانبعاث الأعمال القلبية من خوف، ورجاء، ومحبة، ونحو ذلك.

وهكذا تتنوَّع بركاتُ هذا الشهر، وتَعُود على عقيدة المسلمِ وأخلاقه بالتزكية، والسلامة من الزيغ والانحراف، وبذلك يؤدي المسلم حق الله، وحق الناس، وذلك تمام العبودية الحقة.

هذا وقد جاءت موضوعاتُ هذ الكتاب في ثمانين حديثاً، وجاء تقسيمها على النحو التالي:

أولاً: أحاديث العصر: وقد جاءت في ثلاثين حديثاً، وسِمَتُها القِصَر؛ إذ هي تقرأ بعد صلاة العصر، وبعض الناس يرغبون في الخروج من المسجد بعد الصلاة؛ لقضاء حوائجهم، وبعضهم يرغب في البقاء فيه؛كي يتفرغ للذكر وقراءة القرآن، وقِصَرُ الحديثِ لا يقطع أحداً من أولئك عمَّا هو بصدده.

ولهذا جاءت أحاديث العصر قصيرة لا تتجاوز الصفحة في الغالب، وربما جاءت في نصف صفحة.

ثانياً: أحاديث العشاء: وقد جاءت في ثلاثين حديثاً ـ أيضاً ـ.

وسِمَتُها أنها جاءت بشيء من البسط؛ لأنها تقرأ قبلَ صلاة العشاء، ولابد للناس من الانتظار ريثما يحين وقتُ الصلاة.

وبعض هذه الأحاديث مرتبط ببعض؛ لأجل أن يتسنى لمن يقرؤها أن يربط بعضها ببعض، ويقرأ الحديثين في ليلة واحدة إن هو أحب الإطالة.

ثالثاً: أحاديث آخر الليل في العشر الأواخر: وسِمَتُها كَسِمَةِ أحاديث العشاء. وعدد هذه الأحاديث عشرة.

رابعاً: أحاديث إضافية: وهي أحاديثُ شبيهةٌ بأحاديثِ العشاء، وأحاديث العشر الأواخر، وعددها عشرة.

والباعث على وضعها أن يكون للقارئ متسعٌ في اختيار الموضوعات، فقد

يناسب جماعة هذا المسجد حديث ما، وقد يناسب غيرهم حديث آخر؛ فكان وضع هذه الأحاديث الإضافية مما ينفي عنه الحرج.

ثم إن بعض الأئمة أو من يقرأ على جماعة المسجد قد يرغب في الإطالة، وضمٍّ حديثٍ إلى حديث، فإذا فعل ذلك انقضت الأحاديث، فكان وضع هذه الإضافة معيناً له على ما يريد.

ثم إن هذه الأحاديث الطويلة ـ سواء كانت أحاديث العشاء أو العشر، أو الإضافية ـ قد تقرأ بعد صلاة العصر إذا رأى القارئ ذلك؛ فقد يناسب بعض الجماعة أن تقرأ هذه الأحاديث، وقد يكون بعض المساجد ـ وخصوصاً الكبيرة ـ تلقى فيه الدروس في العشاء؛ لذا قد يناسب أن تقرأ الأحاديث الطويلة بعد العصر.

وبالجملة فإن الأمر متروك لحكمةِ القارىء سواءٌ كان إماماً، أو مؤذناً، أو غيرهم؛ فله أن يختار ما شاء، وأن يقدم أو يؤخر ما أراد.

والناظر في هذا الكتاب سيلحظ خلوه من الهوامش؛ والسبب في ذلك هو الرغبة بألا يكبر حجم الكتاب؛ فيصعب تدواله.

إضافة إلى ذلك فالكتاب سَيُقرأ على عامة الناس؛ فلا حاجة لهم بالهوامش، وإلا فإن العزو ـ ولله الحمد ـ متيسر قريب التناول.

ثم إن الأحاديث النبوية الواردة في الكتاب ـ في مجملها ـ صحيحة، أو صالحة للاستشهاد.

وهي مخرَّجةٌ ومبيَّنٌ أقوالُ أهلِ العلم فيها بإيجاز إن لم تكن في الصحيحين أو أحدهما.

وموضوعات هذا الكتاب ـ في مجملها ـ تدور حول أثر الصيام في عقيدة المسلم، وسلوكه، وأخلاقه.

وتدور حول كثيرٍ من الأمور التي تعني المسلم في حياته؛ فرمضان فرصة للوقوف مع النفس، وتدارك ما فات.

كما أنها تعالج كثيراً من الأدواء التي تعجُ بها مجتمعاتُ المسلمين؛ ذلك أن رمضان فرصة لاجتماع المسلمين، ورقة قلوبهم، وقبولهم ما يلقى عليهم.

وهذه الموضوعات مستنبطةٌ من النصوص الواردةِ في شأنِ الصيامِ، وشهر رمضان، ومستفادةٌ من أقوال أهل العلم في شروحهم ومؤلفاتهم كما أنها مأخوذة من عشرات الكتب التي تُعْنَى بالموضوعات التي ورد ذكرها في هذا الكتاب.

ولأجل أن يسهل على القارئ الوصول إلى مراده، واختيار ما يناسب -وضع فهرس كاشف قبل كل قسم من أقسام الأحاديث، ووضع في الأخير فهرس عام.

وأخيراً أسأل الله -بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى- أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله ذخراً لي، ولوالدي ولمشايخي، ومن له حق عليَّ من المسلمين؛ إنه سميعٌ قريبٌ، وصلى الله وسلمَ على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

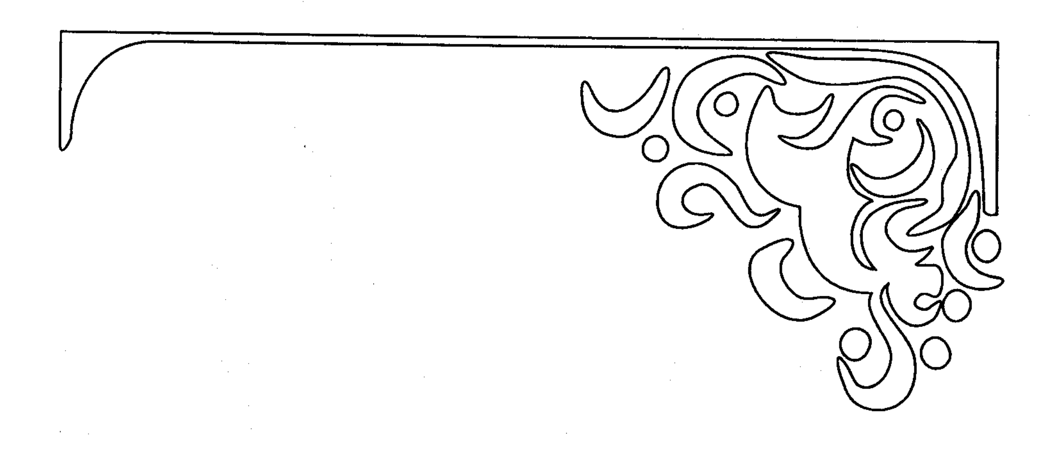
محمد بن إبراهيم الحمد

٢ / ٥ / ١٤٢٣هـ

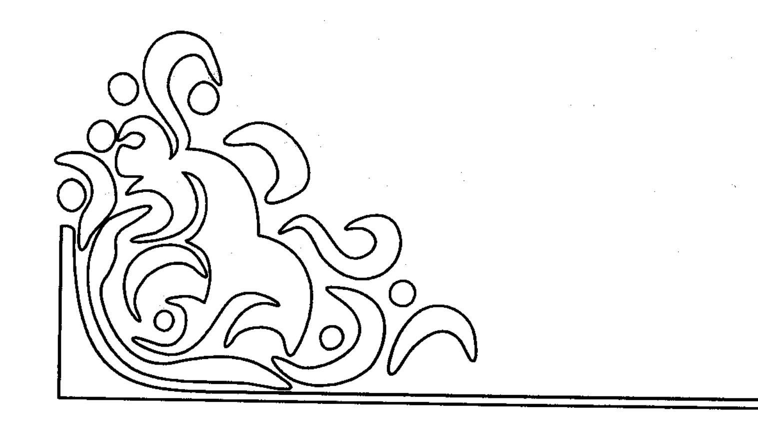
الزلفي ١١٩٣٢ ص ب: ٤٦٠

www.toislam.net





أحاديث
ما بعد العصر



الدرس الأول استقبال رمضان

الحمد لله الذي بلغنا شهر رمضان، والصلاة والسلام على سيد ولد عدنان، وعلى آله وصحبه ماتعاقب الملوان، أما بعد:

فقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه».

قال ابنُ حجرٍ ﷺ «المرادُ بالإيمان: الاعتقادُ بحقِّ فرضيةِ صومهِ، وبالاحتساب: طلبُ الثوابِ من الله ـ تعالى ـ».

وقال الخطابيُّ ﷺ: «احتساباً أي عزيمةً، وهو أن يصومَه عن معنى الرغبة في ثوابه، طيبةً نفسُه بذلك، غيرَ مستثقلٍ لصيامه، ولا مستطيلٍ لأيامه» ا ـ هـ

فحري بنا ـ معاشر الصائمين ـ أن نستقبلَ هذا الشهرَ الكريمَ بكلِّ فرحٍ وشوق، وأن نعقد العزمَ على صيامه وقيامه، وملئه بالأعمال الصالحة.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

فإذا وفِّق الواحد منا لإدراك الشهر أعانه الله على فعل ما عزم به، وضاعف له الأجر والمثوبة، وإن وافته المنية كتب له الأجر بالنية.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

اللهم أعنا على صيام رمضان وقيامه، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد.

الدرس الثاني

تعجيل الفطر

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد جاء في الصحيحين عن زيد بن ثابت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر».

فعلى المسلمين أن يستحضروا هذا المعنى، وأن يبادروا إلى الإفطار إذا تحققَ غروبُ الشمس؛ ليحصلوا على فضيلة الاتِّباع، ولينالوا الخيرية بذلك، وليظفروا بمحبة الله -جل وعلا- فأحبُّ عباد الله إليه أعجلُهم فطراً كما جاء في سنن الترمذي عن أبي هريرة ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: قال الله -عز وجل- أحب عبادي إلي أعجلهم فطراً».

قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

ولعل السبب في كون أحب العباد إلى الله أعجلَهم فطراً أن الله -عز وجل- كريم، والكريمُ يحب أن يتمتعَ الناس بكرمه، فيحب من عباده أن يبادروا إلى ما أحل لهم من حين غروب الشمس.

ثم إن في تعجيل الفطر تمييزاً لوقت العبادة عن غيره.

قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «إذا أقبل الليل من ههنا، وأدبر النهار من ههنا أفطر الصائم».

اللهم إنا نسألك حُبَّك، وحبَّ من يحبُّكَ، وحبَّ العمل الذي يقرب إلى حبك، والله أعلم وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد.

الدرس الثالث على أي شيء يفطر الصائم؟

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد جاء في سنن أبي داود والترمذي عن أنس ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ يفطر على رُطَباتٍ قبل أن يصلي، فإن لم تكن رطباتٌ فعلى تمراتٍ، فإن لم تكن حسا حسواتٍ من ماء».

قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

وجاء عند الترمذي عن سلمان بن عامر الضّبّي عن النبي ﷺ قال: «إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر».

زاد ابن عيينة: «فإنه بركة، فمن لم يجد فليفطر على ماء؛ فإنه طهور».

قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

ففي هذا الحديث بيان لما يسن للصائم أن يفطر عليه.

ومما يلحظ على بعض الصائمين قلة حرصهم على تطبيق السنة حالَ الإفطار؛ فتراهم لا يبالون بالبداءة بالرطب، أو التمر، أو الماء، بل يؤثرون غيرَها عليها مع وجودها أمامهم.

وهذا ـ وإن كان مجزئاً ـ خلافُ السنة، اللهم ارزقنا حسن الاتِّباع، ولزوم السنه، وجنبنا الابتداع، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد.

الدرس الرابع فائدة الإفطار على الرطب،أو التمر، أو الماء

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد :

فقد كان الحديث الماضي يدور حول سنة الإفطار على رطب ، أو تمر ، أو ماء.

والحديث ههنا سيكون حول السر في ذلك ؛ فللإفطار على الرطب ، أو التمر ، أو الماء أسرارٌ بديعةٌ ، وبركاتٌ متنوعةٌ ، وتأثيرٌ على القلوب وتزكيتِها والصعود بِها إلى مراقي الفلاح ، وهذا مما يدركه المقتدون الموفقون.

كما أنَّ في ذلك فائدةً طبيةً ، تعود على البدن بالصحة والعافية ، حيث ذكر الأطباء أن الصيام يؤدي إلى نقص السكر في الدم ، وبدءُ الإفطار بالتمر يساعد على إعادة اعتدال السكر ؛ فيعود النشاطُ إلى الجسم خلال مدة يسيرة.

قال ابن القيم ﵀ : «وفي فطر النبي ﷺ من الصوم على الرطب ، أو على التمر ، أو الماء ـ تدبيرٌ لطيفٌ جداً ؛ فإن الصومَ يُخْلي المعدةَ من الغذاء ، فلا تجد الكَبِدُ فيها ما تجذبه وترسله إلى القوى والأعضاء ، والحلوُ أسرعُ شيءٍ وصولاً إلى الكبد ، وأحبُّه إليها ، ولا سيما إن كان رُطَباً ، فيشتد قبولها له ، فتنتفع به هي والقوى ، فإن لم يكن فالتمرُ؛ لحلاوته وتغذيتِهِ ، فإن لم يكن فحسواتٌ من الماء تطفئ لهيبَ المعدةِ ، وحرارةَ الصوم ، فَتَتَنَبَّه بعده للطعام ، وتأخذه بشهوة»

وقال في موضع آخر :«هذا مع ما في التمر والماء من الخاصية التي لها تأثيرٌ في صلاح القلب لا يعلمها إلا أطباء القلوب» اـهـ.

اللهم اجعلنا من عبادك المتقين ، ومن حزبك المفلحين ، الذين لا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، وصل اللهم وسلم على نبينا محمد.

الدرس الخامس
في السحور بركة

الحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلق الله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فقد جاء في الحديث المتفقِ عليه أن النبي ﷺ قال: «تسحروا؛ فإن في السحور بركة».

ففي هذا الحديث أمرٌ بالتسحر، وهو الأكل والشرب وقت السحر؛ استعداداً للصيام، وذكرٌ للحكمة من ذلك وهي حلولُ البركة.

والبركة -معاشر الصائمين- هي نزولُ الخيرِ الإلهي في الشيء، وثبوتُه فيه.

والبركة كذلك تعني الزيادة في الخير والأجر، وكلٌّ ما يحتاجه العبد من منافع الدنيا والآخرة.

والبركةُ إنما تكون من الله، ولا تنال إلا بطاعته -عز وجل-.

ومما يلحظ على بعض الصائمين أنه لا يأبه بوجبة السحور، ولا بتأخيرها؛ فربما تركها البتة، وربما تناول الطعام في منتصف الليل، أو قبل أن ينام، إما لخوفه من عدم القيام، أو لرغبته في النوم فترة أطول، أو لقلة مبالاته بالسحور وبركاته، أو لجهله بذلك.

وهذا خلل ينبغي للصائم تلافيه؛ لما فيه من مخالفة السنة، وحرمان بركات السحور.

فَحَرِيٌّ بالصائم أن يتسحر، وأن يؤخر سحوره إلى ما قبيل الفجر ولو كان السحور قليلاً؛ لما في ذلك من الخيرات والبركات العظيمة، والتي سيأتي ذكرٌ لشيء منها في الحديث القادم -إن شاء الله-، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس السادس

من بركات السحور (١)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن الحديث سيتناول شيئاً من بركات السحور؛ فمن ذلك أنه استجابة لأمر الرسول ﷺ حيث قال في الحديث المتفق عليه: «تسحروا؛ فإن في السحور بركة»

وكفى بذلك فضلاً وشرفاً، قال الله-تعالى-: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾.

ومن بركاته أنه شعار المسلمين، وأن فيه مخالفةً لأهلِ الكتاب، قال النبي ﷺ فيما رواه مسلم «فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلةُ السحر».

ومن ذلك حصولُ الخيريةِ، والمحافظةُ عليها؛ فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر وأخروا السحور» رواه البخاري ومسلم.

ومن بركات السحور أن فيه تقويةً على الطاعة، وإعانةً على العبادة، وزيادةً في النشاط والعمل؛ ذلكم أن الجائعَ الظامئَ يعتريه الفتور، ويَدِبُّ إليه الكسل.

ومن بركات السحور حصولُ الصلاةِ من الله وملائكته على المتسحرين، فعن ابن عمر-رضي الله عنهما-مرفوعاً: «إن الله وملائكته يصلون على المتسحرين» رواه ابن حبان، والطبراني في الأوسط، وحسنه الألباني.

ومن بركات السحور أن فيه مدافعةً لسوء الخلق الذي قد ينشأ عن الجوع.

ومن بركاته أن وقت السحور وقت مبارك؛ فهو وقت النزول الإلهي-كما يليق بجلال الله وعظمته-قال النبي ﷺ: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر؛ فيقول: من يدعوني فأستجيبَ له، من يسألني فأعطيَه، من يستغفرُني فأغفرَ له» رواه البخاري.

فالذي يقوم للسحور حريٌّ به أن يحصل على هذه المواهب الجليلة.

هذا وللحديث صلة، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس السابع من بركات السحور (٢)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فإن الحديث ههنا إكمال لما مضى ذكره من بركات السَّحور.

فمن ذلك أن وقتَ السحرِ من أفضل أوقات الاستغفار إن لم يكن أفضلَها، كيف وقد أثنى الله -عز وجل- على المستغفرين في ذلك الوقت بقوله: ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ وقوله: ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾.

فالقيام للسحور سببٌ لإدراك هذه الفضيلة، ونيلِ بركات الاستغفار المتعددة.

ومن بركات السحور أنه أضمن لإجابة المؤذن بصلاة الفجر؛ ولا يخفى ما في ذلك من الأجر، وأنه أضمن لإدراك صلاة الفجر في وقتها مع الجماعة.

ومن بركات السحور أن تناولَه -في حد ذاته- عبادةٌ إذا نَوى بها التَقَوِّيَ على طاعة الله، والمتابعةَ للرسول ﷺ.

ومن ذلك أن الصائمَ إذا تسحر لا يملُّ إعادة الصيام، بل يشتاق إليه، خلافاً لمن لا يتسحر؛ فإنه يجد حرجاً ومشقةً يُثْقِلان عليه العودة إليه.

ومن بركات السحور أن الله -سبحانه- يطرحُ الخيرَ في عمل المتسحر؛ فحريٌ به أن يوفق لأعمال صالحة في ذلك اليوم؛ فيجد انبعاثاً لأداء الفرائض، والنوافل، والإتيان بالأذكار، والقيام بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ونحو ذلك.

بخلاف ما إذا ترك السحور؛ فإن الصيام قد يثقله عن الأعمال الصالحة.

وبالجملة فإن بركاتِ السحورِ كثيرةٌ، ولا يمكن الإتيانُ عليها أو حصرُها؛ فلله في شرعه حكمٌ وأسرار تحار فيها العقول، وقد لا تحيط منها إلا بأقل القليل؛ فحريٌ بنا أن نستحضر هذه المعاني العظيمة، وأن نُذكِّرَ إخواننا بها، والله المستعان، وعليه التكلان، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس الثامن

إيماناً واحتساباً

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»

قال ابن حجر رحمه الله في شرح الحديث: «قوله «إيماناً» : أي تصديقاً بوعد الله بالثواب عليه، و«احتساباً» أي طلباً للأجر، لا لقصدٍ آخر من رياءٍ ونحوه» انتهى.

وهذا الحديث-معشر الصائمين-يرشد إلى معنى عظيم، وهو أن يصوم المسلم عن إيمان، وإخلاص، واحتساب للأجر، وتعظيم لشعائر الله،لا عن رياء، ولا سمعة، أو تقليد ومسايرة.

ولهذا تجدُ الصائمَ عن إيمان واحتساب راضياً، مطمئنَ النفسِ، منشرحَ الصدرِ، مسروراً بصيامه، شاكراً لربه الذي فسح له في عمره حتى بلّغه رمضان؛ فلا ترى في نفسه اضطراباً، ولا في خلقه كزازة، ولا في صدره ضيقاً، بل تراه من أشرح الناس صدراً، وأقواهم روحاً، وأحسنهم خلقاً.

اللهم اجعلنا ممن يصوم إيماناً واحتساباً، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد.

الدرس التاسع لعلكم تتقون (١)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن دروسَ رمضانَ لا تنقضي، وإن عِبَرَهُ لا تنتهي.

ولعل أجلى تلك الدروس، وأعظمَ تلك العبر درسُ التقوى.

بل إن كل درسٍ وعبرةٍ تحصل من هذا الشهر إنما هي مُتَفَرِّعَةٌ عن التقوى.

فالتقوى خير الزاد، وخير اللباس، ووصية الله للأولين والآخرين.

والتقوى هي العدة في الشدائد، والعون في الملمات، ومَهْبِطُ الرَّوْح والطمأنينة، وَهي مُتَنَزَّلُ الصبر والسكينة.

وحقيقة التقوى كما قال طلق بن حبيب رحمه الله: «أن تعملَ بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله» انتهى كلامه.

وتمام التقوى-معاشر الصائمين-أن يعلم العبد ما يتقي، قال بكر بن خنيس رحمه الله: «كيف يكون متَّقياً مَنْ لا يدري ما يتقي»

وقال معروف الكرخي رحمه الله «إذا كنت لا تحسن تتقي أكلت الربا، وإذا كنت لا تحسن تتقي لقيتك امرأةٌ فلم تَغُضَّ بصرك».

أيها الصائمون -رمضان شهر التقوى، والتقوى هي الحكمة الجامعة في الصيام، قال الله-تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾.

وللحديث صلة حول هذه الآية، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس العاشر

لعلكم تتقون (٢)

الحمد لله أهلِ التقوى وأهلِ المغفرة، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه الكرامِ البررة، أما بعد:

فقد بَيَّن ربُّنا الحكمةَ من صيام رمضان، فقال-عز وجل-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

قال الشيخُ عبدالرحمنِ السعديُّ ﷺ في تفسير هذه الآية: «فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى؛ لأن فيه امتثالَ أمرِ الله ونهيِه؛ فمما اشتمل عليه من التقوى أن الصائمَ يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوهما، التي تميل إليها نفسُه؛ مَتَقَرِباً إلى الله، راجياً بتركها ثوابه؛ فهذا من التقوى.

ومنها أن الصائم يُدَرِّب نفسَه على مراقبة الله-تعالى-فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه؛ لعلمه باطلاع الله عليه.

ومنها أن الصيام يضيِّق مجاريَ الشيطان؛ فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم؛ فبالصيام يضعف نفوذه، وتقل منه المعاصي.

ومنها أن الصائم-في الغالب-تكثر طاعاتُه، والطاعاتُ من خصال التقوى.

ومنها أن الغنيَّ إذا ذاق ألمَ الجوعِ أوجب له ذلك مواساةُ الفقراءِ والمعدمين، وهذا من خصال التقوى» انتهى كلامه ﷺ.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس الحادي عشر

الصيام جُنَّة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فقد جاء في الصحيحين وغيرِهما عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «الصيام جُنَّة».

زاد سعيد بنُ منصور عن أبي الزناد «الصيامُ جُنَّةٌ كجُنَّةِ أحدِكم من القتال» ولأحمد عن أبي هريرة ﵁: «جُنَّة وحصنٌ حصين من النار».

وله من حديث أبي عبيدة بن الجراح: «الصيام جُنَّة ما لم يخرقْها».

قال ابن حجر ﵀ في شرح هذا الحديث: «والجُنَّة» بضم الجيم: الوقاية والستر.

وقد تبين من هذه الروايات مُتَعَلَّق السِّتْرِ، وأنه من النار، وبهذا جزم ابن عبدالبر، وأما صاحب النهاية فقال: معنى كونِه جُنَّةً: أي سُتْرةً؛ يعني بحسب مشروعيته؛ فينبغي للصائم أن يصونَه مما يفسده، وينقص ثوابه.

وإليه الإشارة بقوله: «فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث» الخ...

ويصح أن يراد أنه سُترةٌ بحسب فائدته، وهو إضعاف شهوات النفس، وإليه الإشارة بقوله: «يدع شهوته» الخ ...

ويصح أن يراد أنه سُترةٌ بحسب ما يحصل من الثواب، وتضعيف الحسنات.

وقال عِياض في الإكمال: معناه: سُترةٌ من الآثام، أو من النار، أو من جميع ذلك، وبالأخير جزم النووي.

وقال ابن العربي: وإنما كان الصوم جُنَّةً؛ لأنه إمساكٌ عن الشهواتِ، والنارُ محفوفةٌ بالشهوات؛ فالحاصلُ أنه إذا كفَّ نفسَه عن الشهوات في الدنيا كان ذلك ساتراً له من النار في الآخرة».

وهكذا يتبين لنا معنى كونِ الصومِ جُنَّةً، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس الثاني عشر — إني امرؤ صائم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يومُ صومِ أحدِكم فلا يرفُث، ولا يَصْخَبْ؛ فإن سابَّه أحدٌ أو قاتله فليقلْ: إني امرؤٌ صائم».

ومعنى سابَّه: أي شتمه، وتعرض لمشاتمته، ومعنى قاتله: نازعه، ودافعه.

وقوله: «فليقل: إني امرؤ صائم»:

قال النووي رحمه الله: «واختلفوا في معناه فقيل: يقوله بلسانه جهراً يُسْمِعُهُ الشاتمَ والمقاتِل؛ فينزجر غالباً.

وقيل: لا يقوله بلسانه، بل يُحدِّث به نفسه؛ ليمنعها من مشاتمته، ومقاتلته، ويحفظ صومه من المكدرات.

ولو جمع بين الأمرين لكان حسناً» اهـ.

والدرس المستفاد من هذا الحديث هو حث الصائم على لزوم الحِلم، وكظم الغيظ، ومقابلة الإساءة بالإحسان؛ لأجل أنْ يصون صيامه عن المكدرات، ولأجل أن يتربى على تلك الفضيلة العظيمة، فتكون دأباً له يتمثَّلهُ في سائر أيامه، وكافة أحواله وتقلباته.

اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق والأعمال لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا أنت، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس الثالث عشر فلا يرفُث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، أما بعد:

فقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «وإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفُث» الحديث.

قال ابن حجر ﷺ: «والمراد بالرَّفث: الكلام الفاحش، وهو يطلق على هذا، وعلى الجماع، وعلى مقدماته، وعلى ذِكْره مع النساء أو مطلقاً، ويحتمل لما هو أعم»

وقال ابن عبدالبر ﷺ: «فإن الرفث هنا: الكلام القبيح، والتشاتم، والتلاعن، ونحو ذلك من قبيح الكلام الذي هو سلاح اللئام.

ومنه اللغو كله، والباطل، والزور».

وقال القرطبي ﷺ: «لا يُفْهَمُ من هذا أن غير الصوم يباح فيه ما ذُكِر، وإنما المراد أن المنع يتأكد بالصوم» اهـ

وفي هذا الحديث -معاشر الصائمين- إشارةٌ إلى أدب من آداب الكلام، ألا وهو صيانةُ اللسان، وملازمةُ ذلك الأدبِ طيلةَ شهرِ رمضان-.

ومَنْ وطَّن نفسَه على هذا الأدبِ في ذلك الشهر كان ذلك دافعاً لاعتياده في سائر الأيام، وكافة الأحوال.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس الرابع عشر

ولا يصخب ولا يجهل (١)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «الصيام جُنَّةٌ فلا يرفُث ولا يجهل».

وفي رواية: «ولا يصخب» بدلاً من قوله: «ولا يجهل».

قال ابن حجر ﷺ: «قوله: «ولا يجهل»: أي لا يفعل شيئاً من أفعال أهل الجهل كالصياح، والسفه، ونحو ذلك»

وقال: «الصخب: الخصام، والصياح»

وقد تقدم أن المرادَ بالنهي عن ذلك تأكيدُه حالةَ الصومِ، وإلا فغيرُ الصائمِ منهيٌّ عن ذلك ـ أيضاً ـ» ا ـ هـ

ففي هذا الحديث درسٌ عظيمٌ من دروس الصيام، ألا وهو حمل المسلم الصائم على أدب من آداب المخاطبات، ألَا وهو تجنُّب الجهل، والصخب؛ لأن ذلك دليلٌ على خفةِ العقل، والغفلةِ عن مغبة الكلام، وقلة التدبر للعواقب؛ فكم جر الجهل والصخب من الويلات، وكم تسبب في المقاتلات، وإذكاء نار العداوات.

معاشر الصائمين للحديث بقية، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس الخامس عشر

ولا يصخب ولا يجهل (٢)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد كان الحديث الماضي يدور حول قوله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «الصيام جُنَّةٌ فلا يرفث، ولا يجهل» وفي رواية «ولا يصخب».

والحديث ههنا إكمالٌ لما مضى، وبيانٌ لخطر اللسان وأهمية حِفْظِهِ، وذلك من خلال بعض النصوص والآثار والحكم.

جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم».

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «اللسان معيارٌ أطاشه الجهلُ، وأرجحه العقلُ».

وقال أكثمُ بنُ صيفي: «مقتلُ الرجل بين فَكَّيْهِ» يعني لسانَه.

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: «زلةُ الرِّجلِ عظمٌ يُجبر، وزلةُ اللسان لا تبقي ولا تذر»

والعرب تقول في أمثالها: «إياك وأن يضرب لسانك عنقك» أي إياك أن تلفظ بما فيه هلاكُك.

وقال طرفة بن العبد:

وإن لسان المرء مالم تكن له حصاةٌ على عوراته لدليل

ومعنى حصاة: أي عقل، ومعنى البيت: إذا لم يكن مع اللسان عقل -يحجزه عن بسطه فيما لا يُحَبُّ- دل اللسانُ على عيبِ صاحبه.

وقال آخر:

رأيت اللسانَ على أهله إذا ساسه الجهلُ ليثاً مغيرا

وللحديث صلة، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس السادس عشر ولا يصخب ولا يجهل (٣)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلا يزال الحديث عن قوله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «الصيام جُنَّة؛ فلا يرفث ولا يجهل» وفي رواية، «ولا يصخب».

حيث مر الكلام على شرح الحديث، وذكرِ الآثار المبيِّنة لخطر اللسان، وأهمية حفظه.

ومن خلال ما مضى يتبين لنا أن المسلمَ الحقَّ، ذا المروءة والأدب-هو الذي يراعي مشاعر الآخرين؛ فلا يجهل عليهم، ولا يؤذيهم بكلمة، ولا يجرح مشاعرهم بإشارة أو نحوها، بل ينزلهم منازلهم، ويحفظ عليهم كرامتهم.

قال بعضهم: «صحبت الربيعَ بنَ خثيم عشرين عاماً، ما سمعت منه كلمة تعاب».

فيا أيها الصائمون: هذا درس من دروس رمضان، وهذا نبي الهدى-عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم-يرشدنا بقوله: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل، ولا يصخب»

أفلا نأخذ بهذا الدرس، ونتخلق بذلك الخُلُقِ حالَ صيامنا؛ فيكونَ ذلك الأدب دأباً لنا في سائر أيامنا؟

اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وصلِّ اللهم على نبينا محمد.

الدرس السابع عشر

ولا يجادل (١)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله ومصطفاه، أما بعد:

فقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفُث ولا يجهل».

ولسعيد بن منصور من طريق سهيل بن أبي صالح عن أبيه: «فلا يرفث، ولا يجادل».

وفي هذه الرواية إرشاد إلى أدب عظيم، وهو ترك الجدال، وأن ذلك يتأكد في حق الصائم.

ولو أخذت النفوس بذلك الأدب لعم الائتلاف، ولقلَّ الخلاف.

والناظر في أحوال الناس يرى أن كثرة الجدل دأبُ كثيرٍ منهم، فتراهم يتجادلون عند كل صغيرة وكبيرة، لا لجلب مصلحة، ولا لدرء مفسدة، ولا لهدف الوصول إلى الحق، ومِنْ ثَمَّ الأخذ به، وإنما رغبةً في اللدد، والخصومة، وإظهارِ المزية، والتشفي من الآخرين.

ولا ريب أن ذلك مَجلَبَةٌ للعداوة، ومدعاةٌ للتعصب، ومطيةٌ لاتباع الهوى.

أما إذا احتيج إلى الجدل، وكان ذلك بعلم وعدل، وكان بالتي هي أحسن، وأريد به الوصول إلى الحق فلا بأس به.

وأما ما عدا ذلك فهو مذموم، وعلى الإنسان تركه ما وجد إلى ذلك سبيلاً؛ لصعوبة ضبط اللسان في الخصومة.

وللحديث صلة، وصلى الله على نبينا محمد.

الدرس الثامن عشر

ولا يجادل (٢)

الحمد لله حمد الشاكرين، والصلاة والسلام على إمام المتقين، وقدوة الناس أجمعين، نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد كان الحديث الماضي يدور حول أدب من آداب الصيام، ألا وهو تجنب الجدال.

والحديث ههنا إكمال لما مضى، وإيراد لبعض الآثار التي جاءت عن السلف في التحذير من الجدال.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «كفى بك ظلماً ألا تزال مخاصماً، وكفى بك إثماً ألا تزال ممارياً».

وقال الأوزاعي رحمه الله: «إذا أراد الله بقوم شراً ألزمهم الجدل، ومنعهم العمل».

وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: «من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل»

وقال محمد بن علي بن حسين رحمه الله: «الخصومة تمحق الدين، وتنبت الشحناء في صدور الرجال».

وقال جعفر بن محمد رحمه الله: «إياكم وهذه الخصومات؛ فإنها تشغل القلب».

وللحديث صلة، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس التاسع عشر

ولا يجادل (٣)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد كان الحديث في اليومين الماضيين يدور حول أدب من آداب الصيام، ألا وهو تجنب الجدال.

فحري بنا ـ معاشر الصائمين ـ أن نفقه هذا الدرس، وأن نأخذ بهذا الأدب؛ فننأى بأنفسنا عن الجدال، والمراء والخصومة.

وجدير بنا أن نعمر مجالسنا بما يعود علينا بالنفع في ديننا ودنيانا، وواجبٌ علينا أن نسعى لجمع كلمتنا، وأن نعرف كيف نختلف كما نعرف كيف نتفق.

وإن كان ثَمَّ خِلافٌ حول أمر ما ـ فلتقم فينا روحُ الإنصاف، وأن يحب كل واحد منا لأخيه ما يحبه لنفسه؛ فذلك أقرب للتقوى، وأنفى للوحشة والبغضاء، وأدعى للرحمة والمودة والقربى.

«وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث، ولا يجهل، ولا يصخب، ولا يجادل»

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس العشرون

ليلة القدر

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن ليلةَ القدرِ ليلةٌ كثيرةُ الخيرِ، شريفةُ القدرِ، عميمةُ الفضلِ، متنوعةُ البركات.

فمن بركاتها أنها أفضل من ألف شهر قال الله -عز وجل-: ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾.

أي أفضل من ثلاث وثمانين سنة، وأربعة أشهر.

ومن بركاتها أن القرآن العظيم أنزل فيها قال -عز وجل-: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾.

ومن بركاتها أن من قامها إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ.

هذه بعضُ بركاتِ تلك الليلة، وهي فيض من غيض من البركات التي خصَّ الله بها هذه الأمة، فهي أمةٌ مباركةٌ، وكتابُها كتابٌ مباركٌ، ونبيها نبيٌّ مبارك.

والبركات التي أفاضها الله على هذه الأمة ببركة نبيها لا تعد ولا تحصى.

هذا وللحديث صلة، وصلى الله على نبينا محمد.

الدرس الواحد والعشرون — من بركات هذه الأمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد كان الحديث الماضي يدور حول ليلة القدر وما فيها من البركات، ووقف الحديث عند البركات التي أفاضها الله ـ عز وجل ـ على هذه الأمة ببركة نبيها ﷺ.

فمن ذلك أنه قد بورك لهذه الأمة في بكورها، وبورك لها في أعمالها، وعلومها؛ فهي خير الأمم، وأكرمها على الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فكل من استقرأ أحوال العالم وجد المسلمين أحدَّ وأسدَّ عقلاً، وأنهم ينالون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعافَ ما يناله غيرهم في قرون وأجيال»

وقال في موضع آخر: «فهدى الله الناس ببركة نبوة محمد ﷺ وبما جاء به من البينات والهدى هدايةً جلَّت عن وصف الواصفين، وفاقت معرفة العارفين، حتى حصل لأمته المؤمنين عموماً، ولأهل العلم منهم خصوصاً من العلم النافع، والعمل الصالح، والأخلاق العظيمة، والسنن المستقيمة ما لو جُمِعَتْ حكمةُ سائرِ الأمم علماً وعملاً، الخالصةُ من كلِّ شوبٍ إلى الحكمة التي بعث بها ـ لتَفَاوَتا تَفاوُتاً يمنع معرفةَ قَدْرِ النسبة بينهما؛ فلله الحمد كما يحب ربنا ويرضى، ودلائل هذا وشواهده ليس هذا موضعها» انتهى كلامه.

والدرس المستفاد ـ معاشر الصائمين ـ من هذا المعنى أن نتعرض لتلك النفحات، وأن نلتمس تلك البركات، وذلك بالإيمان، والعمل الصالح، والإخلاص، واتباع السنة، واحتساب الأجر، والبعد عن المعاصي.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس الثاني والعشرون سر الاعتكاف ومقصوده

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد جاء في الصحيحين عن ابن عمر-رضي الله عنهما-قال: «كان النبي ﷺ يعتكف في العشر الأواخر من رمضان».

ففي هذا الحديث دليلٌ على مشروعية الاعتكافِ، وهو لزومُ مسجدٍ على وجهِ القربةِ من شخص مخصوص بصفة مخصوصة.

والاعتكافُ ليس بواجب، وإنما هو نافلةٌ من النوافل.

قال ابنُ القيم رحمه الله مبيناً المقصود من الاعتكاف: «وشرع لهم الاعتكافُ الذي مقصودهُ وروحهُ عكوفُ القلبِ على الله -تعالى- وجَمْعِيَّتُهُ عليه، والخلوةُ به عن الاشتغال بالخلق، والاشتغَالُ به وحده سبحانه؛ بحيث يصير ذكرُه، وحبُّه، والإقبالُ عليه في محلِّ هموم القلب، وخطراتِهِ؛ فيستولي عليه بدلَها، ويصير الهمُّ كلُّه به، والخطراتُ كلُّها بذكره، والتفكرُ في تحصيل مراضيه، وما يُقرِّب منه؛ فيصير أُنْسُهُ بالله بدلاً عن أنسه بالخلق؛ فَيُعِدُّهُ بذلك لأُنسه به يومَ الوحشةِ في القبور حين لا أنيسَ لَه، ولا ما يَفْرَحُ به سواه؛ فهذا مقصودُ الاعتكافِ الأعظم» انتهى كلامه- رحمه الله-.

اللهم آنس وحشتنا في القبور، وآمن فزعنا يوم النشور، وصلِّ اللهم على نبينا محمد

الدرس الثالث والعشرون

من آداب الاعتكاف

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه جملةٌ من الآداب يحسن بالمعتكفين مراعاتُها، والأخذُ بها؛ ليكون اعتكافُهم كاملاً مقبولاً بإذن الله.

أولاً: استحضارُ النيةِ الصالحةِ، واحتسابُ الأجر على الله -عز وجل-.

ثانياً: استشعارُ الحكمةِ من الاعتكاف، وهي الانقطاع للعبادة، وجَمْعِيَّةُ القلب على الله -عز وجل-.

ثالثاً: ألا يخرج المعتكفُ إلا لحاجته التي لا بد منها.

رابعاً: المحافظةُ على أعمال اليوم والليلة من سنن وأذكار مطلقة ومقيدة، كالسنن الرواتب، وسنة الضحى، وصلاة القيام، وسنة الوضوء، وأذكار طرفي النهار، وأذكار أدبار الصلوات، وإجابة المؤذن، ونحو ذلك من الأمور التي يحسن بالمعتكف ألا يفوته شيء منها.

خامساً: الحرصُ على الاستيقاظ من النوم قبل الصلاة بوقتٍ كاف سواء كانت فريضة، أو قياماً؛ لأجل أن يتهيأ المعتكف للصلاة، ويأتِيَها بسكينة ووقار، وخشوع.

سادساً: الإكثار من النوافل عموماً، والانتقالُ من نوع إلى نوع آخر من العبادة؛ لأجل ألا يدبَّ الفتور والملل إلى المعتكف؛ فَيُمْضِيَ وقته بالصلاة تارة، وبقراءة القرآن تارة، وبالتسبيح تارة، وبالتهليل تارة، وبالتحميد تارة، وبالتكبير تارة، وبالدعاء تارة، وبالاستغفار تارة، وبالصلاة على النبي ﷺ تارة وبـ: لا حول ولا قوة إلا بالله تارة، وبالتدبر تارة، وبالتفكر تارة، وهكذا....

سابعاً: اصطحاب بعض كتب أهل العلم، وخصوصاً التفسير؛ حتى يستعانَ به على تدبر القرآن.

ثامناً: الإقلال من الطعام، والكلام، والمنام؛ فذلك أدعى لرقة القلب، وخشوع النفس، وحفظ الوقت، والبعد عن الإثم.

تاسعاً: الحرص على الطهارة طيلة وقت الاعتكاف.

عاشراً: يحسن بالمعتكفين أن يتواصوا بالحق، وبالصبر، وبالنصيحة، والتذكير، وأن يتعاونوا على البر والتقوى، والإيقاظ من النوم، وأن يَقْبَل بعضُهم من بعض.

وبالجملة فليحرص المعتكف على تطبيق السنة، والحرص على كل قربة، والبعد عن كل ما يفسد اعتكافه، أو ينقص ثوابه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس الرابع والعشرون

ملحوظات حول الاعتكاف

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه ملحوظات حول الاعتكاف.

أولاً: كثرةُ الزياراتِ وإطالتُها من قبل بعض الناس لبعض المعكتفين، وينتجُ عن ذلك كثرةُ حديثٍ، وإضاعةُ أوقات.

ثانياً: كثرةُ الاتصالات والمراسلات عبرَ الجوال بلا حاجة.

ثالثاً: المبالغةُ في إحضار الأطعمة؛ وذلك يفضي إلى ثِقَلِ العبادة، وإيذاءِ المصلين برائحة الطعام؛ فالأولى للمعتكف أن يقتصد في ذلك.

رابعاً: كثرةُ النومِ، والتثاقلُ عند الإيقاظ، والإساءةُ لمن يوقِظُ من قبل بعض المعتكفين بدلاً من شكره، والدعاء له.

خامساً: إضاعةُ الفرصِ؛ فبعضُ المعتكفين لا يبالي بما يفوته من الخير، فتراه لا يتحرى أوقات إجابة الدعَاء، ولا يحرص على اغتنام الأوقات، بل ربما فاته بسبب النوم أو التكاسل بعضُ الركعاتِ أو الصلوات.

سادساً: أن بعض الناس يشجع أولاده الصغار على الاعتكاف، وهذا أمرٌ حسن، ولكنْ قد يكون الأولادُ غيرَ متأدبين بأدب الاعتكاف، فيحصل منهم أذية، وإزعاج، وجلبةٌ وكثرةُ مزاح وكلام، وخروج من المسجد، ونحو ذلك.

فإذا كان الأمر كذلك فبيوتهم أولى لهم.

هذه بعض الملحوظات التي يحسن مراعاتها حال الاعتكاف وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس الخامس والعشرون أطيب من ريح المسك (١)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «وَلَخُلُوف فَمِ الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسك»

ومعنى: الخُلوفِ: تَغَيُّرُ رائحةِ فمِ الصَائم بسبب الصيام.

قال ابن رجب رحمه الله: «وفي طيب ريح خُلُوفِ فمِ الصائم معنيان:

أحدهما: أن من عبد الله، وأطاعه، وطلب رضاه في الدنيا بعمل، فنشأ عن عمله آثارٌ مكروهةٌ للنفوس في الدنيا ـ فإن تلك الآثارَ غيرُ مكروهةٍ عند الله، بل هي محبوبة وطيبة عنده؛ لكونها نشأت عن طاعته، واتِّباع مرضاته؛ فإخباره بذلك للعاملين تطييب لقلوبهم، لئلا يُكْرَهَ منهم ما وُجِد في الدنيا».

هذا هو أحد المعنيين من كلام ابن رجب رحمه الله.

وأما المعنى الثاني: فهو مدار الحديث القادم ـ إن شاء الله ـ وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس السادس والعشرون — أطيب من ريح المسك (٢)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن الحديث في هذا اليوم بيان للمعنى الثاني من كونِ خُلُوفِ فَمِ الصائمِ أطيبُ عند الله من ريح المسك.

قال ابن رجب رحمه الله : «أن الصيام لما كان سِرًّا بين العبد وبين ربه في الدنيا أظهره الله في الآخره علانية للخلق؛ ليشتهر بذلك أهلُ الصيامِ، ويُعْرَفوا بصيامهم بين الناس؛ جزاءاً لإخفائهم صيامَهُمْ في الدنيا.

وقد تفوح رائحة الصيام في الدنيا، وتُسْتَنْشَقُ قبل الآخرة، وهو نوعان:

النوع الأول: ما يدرك بالحواس؛ فقد كان عبدالله بن غالب من العباد المجتهدين في الصلاة والصيام؛ فلما دفن كان يفوح من تراب قبره رائحةُ المسكِ، فرؤي في المنام، فسئل عن تلك الرائحة، فقال: تلك رائحة التلاوة والظمأ.

والنوع الثاني: ما تستنشقه الأرواح والقلوب؛فيوجب ذلك للصائمين المخلصين المودة والمحبة في قلوب المؤمنين.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾

قال يوسف بن أسباط «أوحى اللهُ ـ تعالى ـ إلى نبي من الأنبياء: قل لقومك يخفوا لي أعمالهم وعلي إظهارها» انتهى كلام ابن رجب بتصرف يسير، وصلى الله على نبينا محمد.

الدرس السابع والعشرون — من لم يدع قول الزور (١)

الحمد، لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «من لَمْ يَدَعْ قولَ الزورِ والعملَ به ـ فليس لله حاجةٌ في أن يدع طعامَه وشرابَه».

قال ابن حجر رحمه الله: «والمراد بقول الزور: الكذب».

وقال: «قال ابن بطال: ليس معناه أن يؤمر بأن يَدَعَ صيامَه، وإنما معناه التحذيرُ من قول الزور، وما ذكر معه».

وقال ابن عبد البر رحمه الله: «هو كنايةٌ عن عدم القبول، كما يقول المُغْضَبُ لمن رَدَّ عليه شيئاً طَلَبَهُ منه فلم يقم به: لا حاجة لي بكذا؛ فالمرادُ ردُّ الصومِ المتلبِّسِ بالزور، وقبولُ السالم منه.

وقريب من هذا قولَه ـ تعالى ـ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾.

فإن معناه: لن يصيب رضاه الذي ينشأ عنه القبول».

وقال ابن العربي رحمه الله: «مقتضى هذا الحديثِ أن مَنْ فَعَلَ ما ذكر لا يثاب على صيامه.

ومعناه: أن ثوابَ الصيامِ لا يقوم في الموازنة بإثم الزور وما ذكر معه»

وقال البيضاوي رحمه الله: «ليس المقصودُ من شرعية الصوم نَفْسَ الجوعِ والعطش، بل ما يتبعه من كسر الشهوات، وتطويعِ النفس الأمارة للنفس المطمئنة؛ فإذا لم يحصل ذلك لا ينظر الله إليه نظر القبول» انتهى كلامه.

أيها الصائمون للحديث بقية ـ إن شاء الله ـ وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس الثامن والعشرون — من لم يدع قول الزور (٢)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد كان الحديثُ الماضي يدور حول قولِ النبي ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجةٌ في أن يدع طعامه وشرابه»

حيث مر الكلام على معناه، وأقوال العلماء فيه، وبيان أن الزور هو الكذب، وأنه قبيح في كل وقت، ويزداد قبحه إذا كان في الصوم.

والدرس المستفاد من هذا الحديث ذمُّ الكذب، وتربيةُ المسلمِ على تجنبه؛ فالكذب من خصال النفاق، ومن شعب الكفر، وهو دليل على حقارة النفس، وبعدها عن عزتها المحمودة.

قال النبي ﷺ: «إياكم والكذبَ؛ فإن الكذبَ يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذِبُ حتى يكتبَ عند الله كذاباً» رواه البخاري ومسلم.

قال الحسن رحمه الله: «الكذب جماع النفاق».

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله «إياك أن تستعينَ بكذوب؛ فإنك إنْ تطعِ الكذوبَ تَهْلَكْ»

وقيل: «ليس لكذوب مروءة، ولا لضجور رياسة».

هذا وللحديث صلة ـ إن شاء الله ـ وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس التاسع والعشرون بعض مظاهر الكذب ودوافعه

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن الحديث ههنا سيدور حول بعض مظاهر الكذب؛ إتماماً للحديث الماضي، وتحذيراً من تلك المظاهر؛ فمنها الكذبُ على الله ورسوله ﷺ والكذبُ في البيع والشراء، والكذبُ للمفاخرة وإظهار الفضلِ، والكذبُ على المخالفين نكايةً بهم، وتشفياً منهم، والكذبُ المقرونُ بالحسد، والكذبُ في المطالبات والخصومات، والكذبُ للتخلص من المواقف المحرجة، والكذب لاستدرار العطف.

ومن مظاهر الكذبِ المبالغةُ في القول، ونقلُ الأخبارِ الكاذبةِ، والتوسعُ في باب المصلحةِ، والمبالغةُ في المعاريضِ، والكذبُ على الأولاد.

أما دوافعُ الكذبِ فكثيرة، منها الخوفُ من النقد أو العقاب، وإيثارُ المصلحةِ العاجلةِ، وقلة المراقبةِ لله، وعدمُ المبالاة بالعواقب.

ومنها اعتياد الكذب، وسوء التربية.

معاشر الصائمين: هذا هو الكذب، وتلك بعض مظاهره، ودوافعه؛ فما أحرانا أن نتجنبه؛ حتى نفوز برضا الله، ونسلم من عواقب الكذب.

وإن هذا الشهر الكريم لمن أسنح الفرص، وأعظم الأسباب المعينة على ذلك.

«ومن لم يدع قول الزور والعملَ به فليس لله حاجةٌ في أن يدع طعامه، وشرابه».

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس الثلاثون — ولعلكم تشكرون

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد ختم اللهُ آياتِ الصيامِ من سورة البقرة بقوله -عز وجل-: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

أي لعلكم تشكرون الله أن بلغكم شهر رمضان، وأعانكم على إتمامه.

وفي هذا إرشادٌ إلى منزلة الشكر، وحثٌّ للعباد على ملازمته.

فالشكر من أجل العبوديات، وأعلى المنازل؛ إذ هو نصف الإيمان، فالإيمان صبر وشكر.

وقد أمر الله بالشكر، ونهى عن ضده، وأثنى على أهل الشكر، ووصف به خاصة خلقه، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سبباً للمزيد من فضله، وحارساً وحافظا لنعمته، وأخبر-عز وجل-أن أهل الشكر هم المنتفعون بآياته.

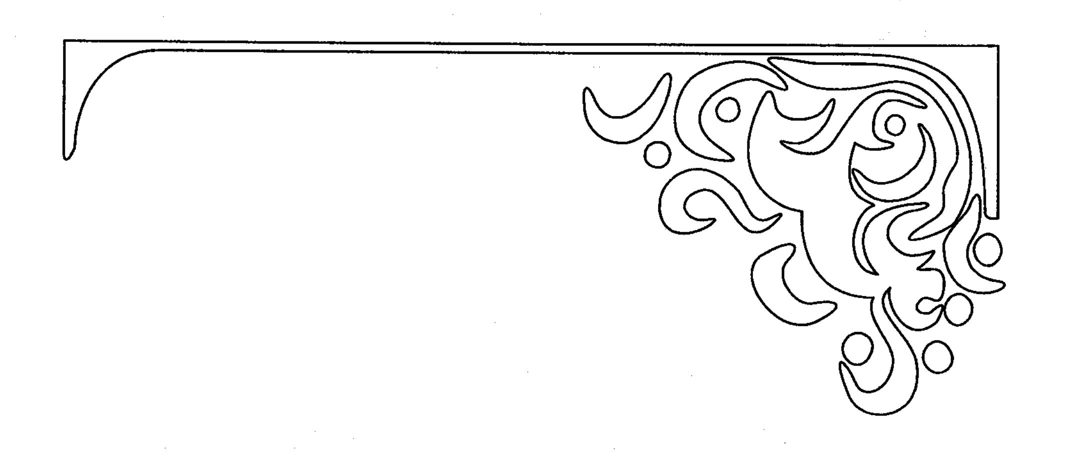
والشكرُ قيدُ النعم الموجودةِ، وصيدُ النعمِ المفقودة.

وحقيقة الشكر-معاشر الصائمين-هوَ ظهورُ أثرِ نعمةِ اللهِ على لسان عبده ثناءاً واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبة، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة.

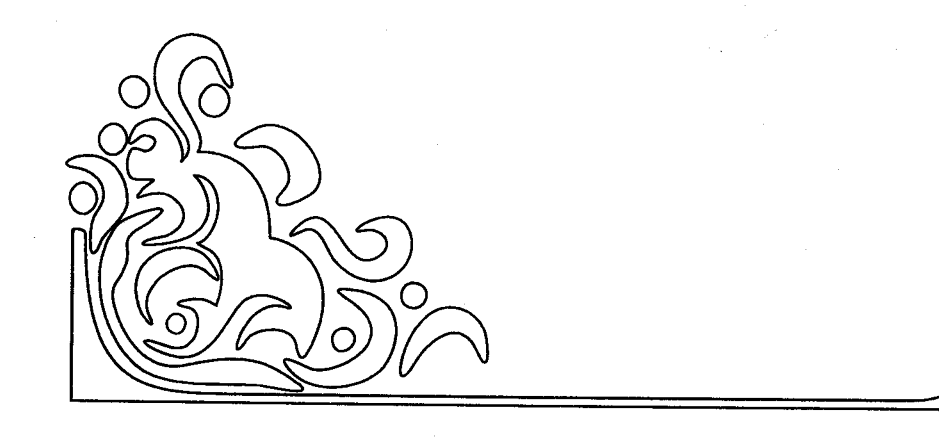
والمؤمن حقاً هو مَنْ يلازم الشكرَ في شتى أحواله؛ فإذا نزل به ما يحب شكر الله عليه؛ إذْ هو المنعمُ المتفضل، وإذا نزل به ما يكره شكر الله على ما قدره عليه؛ كظماً للغيظ، وستراً للشكوى، ورعاية للأدب، وسلوكاً لمسلك العلم.

فإن العلم بالله والأدب معه يأمران بشكر الله على المحاب والمكاره، وإن كان الشكر على المكاره أشقَّ وأصعب.

اللهم اجعلنا من الشاكرين الصابرين، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد.



أحاديث العشاء



١	أياماً معدودات	١٦	رمضان وتربية الأولاد (٢)
٢	وكلوا واشربوا ولا تسرفوا	١٧	رمضان وتربية الأولاد (٣)
٣	رمضان شهر الفرح	١٨	حقوق الجار
٤	الصوم والإخلاص (١)	١٩	رمضان شهر الحرية (١)
٥	الصوم والإخلاص (٢)	٢٠	رمضان شهر الحرية (٢)
٦	رمضان شهر الدعوة	٢١	الصلاة وأهميتها وثمراتها
٧	رمضان شهر البر (١)	٢٢	رمضان شهر الذكر (١)
٨	رمضان شهر البر (٢)	٢٣	رمضان شهر الذكر (٢)
٩	رمضان شهر الصحة	٢٤	فإنه أغض للبصر (١)
١٠	رمضان شهر القرآن	٢٥	فإنه أغض للبصر (٢)
١١	رمضان شهر الصلة (١)	٢٦	أثر الصيام في اكتساب العزة
١٢	رمضان شهر الصلة (٢)	٢٧	رمضان شهر المراقبة
١٣	رمضان شهر التوبة	٢٨	أثر الصيام في اكتساب الحلم
١٤	رمضان شهر القوة	٢٩	الصيام والحياء
١٥	رمضان وتربية الأولاد (١)	٣٠	الاستغفار ختام الصيام

الدرس الأول — أياماً معدودات

الحمد لله الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً، وهو الذي جعل الليلَ والنهارَ خِلْفَةً لمن أراد أن يذَّكر أو أراد شكوراً، وصلى الله على مَنْ بُعِثَ بالهدى ودين الحق بشيراً ونذيراً، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتضى أثره وسلم تسليماً كثيراً ، أما بعد :

فإن رمضانَ أيامٌ معدوداتٌ، وفرصٌ سانحاتٌ، وإن اغتنام هذه الأيام لدليلُ الحزم، وإنَّ انتهاز تلك الفرص لعنوانُ العقل؛ذلكم أن الوقت رأسُ مال الإنسان، وساعاتِ العمرِ هي أنفسُ ما عني الإنسان بحفظه؛ فكل ساعة من ساعاتِ عُمُركَ قابلةٌ لأن تضعَ فيها حجراً يزداد بها صرحُ مجدِك ارتفاعاً، ويقطع بها قومك في السعادة باعاً أو ذراعاً.

فإن كنت حريصاً على أن يكون لك المجدُ الأسمى،ولقومك السعادةُ العظمى، وأن تفوز بخيري الآخرة والأولى ـ فَدعِ الراحةَ جانباً، واجعل بينك وبين اللهو حاجباً؛ فالحكيمُ الخبيرُ يَقْدُرُ الوقتَ حقَّ قدره، ولا يتخذه وعاءًا لأبخس الأشياء، وأسخف الكلام، ويعلم أنه من أجلِّ ما يصان عنه الإضاعة والإهمال، وَيقْصُره على المساعي الحميدة التي ترضي الله، وتنفع الناس.

ولعظم شأن الوقت أقسم به اللهُ في غيرما آية من كتابه العزيز قال ـ عز وجل ـ : ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ ﴾ وقال: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾ وقال: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ ﴾.

ولئن كان حفظُ الوقتِ مطلوباً في كل حين وآن فلهو أولى وأحرى بالحفظ في الأزمنة المباركة.

ولئن كان التفريطُ فيه وإضاعتُه قبيحاً في كل زمان فإن قبح ذلك يشتد في المواسم الفاضلة.

ومن الناس مَنْ قَلَّ نصيبه من التوفيق، فلا تراه يلقي بالاً لحكمة الصوم، ولا لفضل الشهر، فتراه يجعل من رمضان فرصةً للسهر واللهو الممتد إلى بزوغ الفجر، والنومِ العميق في النهار حتى غروب الشمس.

ولا يخفى على عاقل لبيب ما لهذا الصنيع من أضرار على دين الإنسان ودنياه، فهو قلب للفطرة، فالله -عز وجل- جعل الليل لباساً، والنهار معاشاً، كما أنه إضاعة للوقت، وتعطيل للمصالح.

ومن كان هذا صنيعَه فلن يرجى منه خيرٌ في الغالب لا لنفسه ولا لغيره.

ثم إن السهرَ سببٌ لإضاعة حقوق الأهل والوالدين؛ فالذي يسهر الليل في مشاهدة الحرام، ويعكف أمام ما تبثه الفضائيات من شرور سيضيِّع أولاده وزوجته إن كانوا يشاهدونها معه، وإن كان يسهر خارجَ المنزل كان ذلك سبباً في بعده عن بيته، وغفلته عما استرعاه الله إياه، وإن كان شاباً في مقتبل عمره أقلق والديه بطول سهره وبعده عن المنزل.

ثم إن الذي يسهرُ ليله وينام نهارَه سيضيع صلة أرحامه؛ إذ لا وقت لديه لِصِلتهم، وهكذا تنفصم عرى الأمة، وتنفك روابطها.

كما أن السهر أمام تلك الفضائيات له آثارُه السلوكيةُ المدمرةُ، ومنها الصد عن سبيل الله، وإضعاف أثر الدين في النفوس، وذلك من خلال ما تبثه من مشاهد

فاضحة، وما تطرحه من شبهات كثيرة تطعن في الدين، وتُلْقى على عقول خواء، وأفئدة هواء.

ومن آثارها: التمرد على القيم النبيلة، والأخلاق الفاضلة، والآداب المرعية.

ومنها: شيوع العادات السيئة كالاستهانة بمحارم الله والاستخفاف بشعائر الدين.

ومنها: الإعجابُ بالكفار وتقليدهم في مستهجن عاداتهم من نحو الملبس، والهيئة، و قصات الشعر، وما إلى ذلك.

ومنها: انتشار الجريمة، وشيوع المظاهر المخلة بالأمن كالقتل، والسرقة، وتعاطي المخدرات ونحو ذلك.

ومنها: الزهد بالفضيلة والعفاف وذلك من خلال الافتتان بالمذيعات والممثلات والمغنيات؛ فقد يفضي ذلك الصنيعُ إلى الزهد بالزوجات؛ لأن بعض مشاهدي تلك القنوات؛ لفرط جهله يعقد مقارنة ظالمةً بين زوجته وبين ما يشاهده من تلك النسوة اللاتي نزعن الحياءَ، ووضعْنَ من الأصباغ ومواد التجميل ما يغري بهن.

وهذه مقارنةٌ ظالمةٌ لم تُبْنَ على أسس سليمة؛ إذ تغافل ذلك المُقارِنُ عن عفاف زوجته، وسترها، وحيائها.

بل ربما تكون أجملَ مما يشاهد، ولكن الشيطان يقبحها في عينه، ويزين ما يشاهده في نفسه.

أيها الصائمون: ومن آثار السهر أن له آثاراً على نَفْس الإنسان وخُلُقِه؛ إذ يصبح ونفسه كزَّةٌ، وخلقُهَ سيئٌ؛ وذلك لما للسهر من تأثير على الأعصاب؛ فينتج من جَرَّاء ذلك انقباضُ النفس، وقلة احتمالها.

ولو لم يأت من آثار السهر إلا أنه سبب لترك صلاة الفجر لكفى.

أما النوم الكثير - خصوصاً بالنهار-فلا يخفى ضرره؛ فذلك مضيعة للوقت، وحرمانٌ للبركة؛ فالنومُ يعطل قوةَ العقل، ويُلْحِقُ الإنسان بالخشب المسندة.

وبما أن أمرَه غالبُ ماله من مَرَدَّ فإن أولي الحكمةِ لا يخضعون لسلطانه إلا حيثُ يَغْلِبَ على أمرهم، ولا يعطونه من الوقت إلا أقلَّ ما تفرضُه عليهم الطبيعةُ البشرية، ويبتغون بذلك أن تبقى عقولهم في حركات تثمر علماً نافعاً، أو عملا صالحاً.

فحقيق على هؤلاء المُفرِّطين المضيعين أوقاتَهم أن يتنبهوا لأسرار الصيام، وأن يغتنموا مدرستَه العظيمة؛ ليجنوا ثمارَه الصحيحةَ، ويستمدوا منه قوةَ الروح؛ فيكونَ نهارُهم نشاطاً وإنتاجاً وإتقاناً، وتعاوناً على البر والتقوى.

ويكونَ ليلُهم تهجداً، وتلاوةً لكتاب ربهم، ومحاسبةً لأنفسهم على ضوئه؛ ليخرجوا من مدرسة الصيام مفلحين فائزين.

اللهم أيقظنا من رقدات الغفلات، وأعنا على اغتنام الأوقات في الباقيات الصالحات، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الثاني وكلوا واشربوا ولا تسرفوا

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن للصيام آداباً كثيرةً، ومن تلك الآداب: أن يقتصدَ الصائمُ في طعامه وشرابه.

ومما يلحظ على بعض الصائمين بل على أكثرهم: أنهم يجعلون شهرَ رمضانَ موسماً سنوياً للموائد الزاخرة بألوان الطعام، فتراهم يُسرفون في ذلك أيّما إسرافٍ، وتراهم يتهافتون إلى الأسواق؛ لشراء ما لذّ وطاب من الأطعمة التي لا عهدَ لهم بأكثرها في غير رمضان.

والنتيجة من وراء ذلك: إضاعةُ المال، وإرهاقُ الأبدان في كثرة الطعام، وثِقَلُ النفوس عن أداء العبادات، وإهدارُ الأوقات الطويلة بالتسوّق، وإعداد الكميّات الهائلة من الأطعمة التي يكون مصيرُها في الغالب صناديقَ الزِّبل.

إن هذا الاستعدادَ المتناهيَ الذي يقع فيه أكثر المسلمين لرمضان بالتفنن والاستكثار من المطاعم والمشارب ـ مخالفٌ لأمر الله، منافٍ لحكمة الصوم، مناقضٌ لحفظ الصحة، معاكسٌ لقواعدالاقتصاد.

ولو كان هؤلاء متأدبين بآداب الدين لاقتصروا على المعتاد المعروف من طعامهم وشرابهم، ولأنفقوا الزائد في طرق البر والإحسان التي تناسب رمضان من إطعام الفقراء واليتامى و الأيامى، و تفطير الصّوام المعوَزين، ونحو ذلك.

والغالب أن يكون لكل غنيٍّ مسرفٍ من هذا النوع جارٌ أو جيران من الفقراء والمساكين، وهم أحق الناس ببر الجار الغني، وإن لم يكن لهؤلاء الأغنياء جيرانٌ من هذا النوع فإنه يحسن صرفها في وجوه الخير.

ولو فعل الأغنياء المسرفون ذلك لأضافوا إلى قربة الصوم قربةً عظيمة عند الله، ألا وهي الإحسان إلى المعدَمين، وللقيام بهذه الخصلة من الخير مزيّة في المجتمع؛ لأنها تقرب القلوبَ في هذا الشهر المبارك، وتشعر الصائمين كلّهم بأنهم في شهر إحسان، ورحمة وأخوَّة.

ثم إن الإنسان لو طاوع نفسَه في تعاطي الشهوات، و التهام ما حلا من المطاعم وما مرّ، وما برد منها وما حرّ، وطاوع نفسه باستيفاء اللذة إلى أقصى حد - لكانت عاقبةُ أمره شقاءًا ووبالاً، ونقصاً في صحته واختلالاً، ولكانت الحميةُ في بعض الأوقات واجباً مما يأمر به الطبيب الناصح؛ تخفيفاً على الأجهزة البدنية، وادخاراً لبعض القوة إلى الكِبَر وإبقاءًا على اعتدال المزاج، وتدبيراً منظماً للصحة.

وإن ذلك لهو الحكمة البارزة في الصوم، فكيف يُقْلَبُ الأمر رأساً على عقب؟! ويجعلَ من شهر الصوم ميداناً للتوسع في الأكل والشرب؟!

قال الله -عز وجل-: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

قال بعض العلماء: «جمع الله بهذه الآيةِ الطبَّ كلَّه»

قال النبي ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاءًا شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلثٌ لطعامه وثلث لشرابه، وثلث لنفسه» أخرجه أحمد، وصححه الألباني في صحيح الجامع

أيها الصوام: لا يخفى على عاقل ما للتوسع في المآكل والمشارب من عواقب وخيمة على دين المرء ودنياه زيادةً على ما مضى؛ فهو مما يورث البلادة، ويعوق عن

التفكير الصحيح ،وهو مدعاةٌ للكسل ،وموجبٌ لقسوة القلب ، وهو سببٌ لمرض البدن ، وتحريك نوازع الشر ، وتسلُّط الشيطان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :«وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال:«إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»رواه البخاري.

ولاريب أن الدَّمَ يتولد من الطعام والشراب؛ ولهذا إذا أكل أو شرب اتسعت مجاري الشيطان ، ولهذا قيل :«فضيقوا مجاريَه بالجوع» .

وإذا ضاقت انبعثت القلوب إلى فعل الخيرات التي تُفْتَحُ بها أبواب الجنة ، وإلى ترك المنكرات التي تفتح بها أبواب النار ، وصفِّدت الشياطين ، فضعفت قوتُهم وعملُهم بتصفيدهم ، فلم يستطيعوا أن يفعلوا في شهر رمضان ما كانوا يفعلونه في غيره ولم يقل:«إنهم قتلوا» ، ولا ماتوا ، بل قالوا : «صفِّدوا» والمصفَّد من الشياطين قد يؤذي ، لكن هذا أقل وأضعف مما يكون في غير رمضان ، فهو بحسب كمال الصوم ونقصه ، فمن كان صومه كاملاً دفع الشيطان دفعاً لا يدفعه الصوم الناقص ، فهذه المناسبة ظاهرة في منع الصائم من الأكل والشرب ، والحكم ثابت على وَفْقِهِ» اـهـ.

قال لقمان ـعليه السلام- لابنه :«يا بني! إذا امتلأت المعدة؛ نامت الفكرة، وخرست الحكمة ، وقَعَدت الأعضاءُ عن العبادة »

وقال عمر رضي الله عنه : «من كثر أكله لم يجد لذكر الله لذة» .

وقال علي رضي الله عنه : « إن كنت بَطِناً ؛ فعد نفسك زَمِناً»

وقال بعض الحكماء : « أقلل طعاماً ، تحمدْ مناماً»

وقال بعض الشعراء :

وكم من لقمةٍ منعت أخاها ... بلذةِ ساعةٍ أكلاتِ دهرِ

وكم من طالبٍ يسعى لأمر ... وفيه هلاكُه لو كان يدري

وقال ابن القيم ﷺ: «وأما فضول الطعام: فهو داع إلى أنواع كثيرة من الشر؛ فإنه يحرك الجوارحَ إلى المعاصي، ويثقلُها عن الطاعات، وحسبك بهذين شراً، فكم من معصية جَلَبها الشبعُ، وفضولُ الطعام، وكم من طاعة حال دونها؛ فمن وقي شرَّ بطنه؛ فقد وقي شراً عظيماً، والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام».

إلى أن قال ﷺ: «ولو لم يكن من الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله -عز جل- وإذا غفل القلب عن الذكر ساعةً واحدةً جَثَم عليه الشيطانُ، ووعده، ومنَّاه، وشهَّاه وهام به في كل وادٍ؛ فإن النفس إذا شبعت تحركت، وجالت وطافت على أبواب الشهوات وإذا جاعت سكنت-وخشعت وذلت» ا-هـ.

بل إن الذين يتوسعون في المآكل لا يجدون لها لذةً كما يجدُها المقتصدون.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «فالذين يقتصدون في المآكل نعيمُهم بها أكثرُ من المسرفين فيها؛ فإن أولئك إذا أدمنوها، وألِفُوها لا يبقى لها عندهم كبير لذة مع أنهم قد لا يصبرون عنها، وتكثر أمراضهم بسببها» ا-هـ.

أيها الصائمون الكرام: إذا كان الأمر كذلك؛ فما أحرانا أن نجعل من شهرنا الكريم فرصةً لتوطين نفوسنا على الاعتدال في المآكل والمشارب؛ فالنفوسُ طُلَعةٌ لا ترضى بالقليل من اللذات؛ فإذا جاهدناها؛ انقدعت عن شهواتها، وكفَّت عن الاسترسال مع لذاتها ورغباتها، وإن من أحكم ما قالته العرب قولَ أبي ذؤيب الهذلي:

والنفسُ راغبةٌ إذا رغَّبتها ... وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تقنع

أما إذا استرسلنا معها، وأعطيناها كل ما تريد؛ فإنها ستقودنا إلى الغواية، وتنزع بنا إلى شر غاية.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس الثالث

رمضان شهر الفرح

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

فإن الفرح مطلب مُلحٌّ، وغاية مبتغاة، وهدفٌ منشود، والناس كل الناس يسعى إلى فرح قلبه، زوال همِّه وغمِّه، وتفرق أحزانه وآلامه.

ولكنْ قَلَّ من يصل إلى الفرح الحقيقي، ويحصل على السعادة العظمى، وينجو من الآلام والأتراح.

والحديث ههنا سيدور حول معنى الفرح، وأسبابه، وموانعه.

وبعد ذلك نصل إلى معنى الفرح في الصيام، وكيفيةِ كونِ هذا الشهر الكريم شهرَ فرحٍ.

أيها الصائم الكريم: الفرحُ لذةٌ تقع في القلب بإدراك المحبوب، ونيل المشتهى، فيتولدُ من إدراكه حالةٌ تسمى الفرحَ والسرورَ.

كما أن الحَزَنَ والغَمَّ مِنْ فقد المحبوب، فإذا فقده تولد مِنْ فقده حالةٌ تسمى الحزَنَ والغم.

والفرحُ أعلى نعيمِ القلب ولذتِه وبهجتِه، فالفرحُ والسرورُ نعيمهُ، والهمُّ والغمُّ عذابُه.

والفرحُ بالشيء فوق الرضا به، فإن الرضا طمأنينةٌ وسكونٌ وانشراحٌ.

والفرح لذةٌ وبهجةٌ وسرورٌ، فكل فَرِحٍ راضٍ، وليس كلُّ راضٍ فَرِحاً.

ولهذا كان الفرحُ ضدَّ الحزن، والرضا ضدَّ السخط، والحزنُ يؤلم صاحبَه، والسُّخط لا يؤلمه إلا إذا كان مع العجز عن الانتقام.

ولقد جاء الفرح في القرآن على نوعين: مطلقٍ ومقيدٍ، فالمطلقُ جاء في الذم

كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ ، وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾.

والفرح المقيدُ نوعان ـ أيضاً ـ مقيدٌ بالدنيا يُنْسِي فضل الله ومنته، وهو مذموم كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾.

والثاني فرحٌ مقيدٌ بفضل الله ورحمته: وهو نوعان ـ أيضاً ـ فضلٌ ورحمةٌ بالسبب، وفضل بالمسبِّب، فالأول كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ ، والثاني كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾.

ولقد ذكر الله ـ سبحانه ـ الأمر بالفرح بفضله ورحمته عقيب قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

ولا شيءَ أحقُّ أن يَفْرح به العبدُ من فضل الله ورحمته التي تتضمن الموعظةَ وشفاءَ الصدور من أدوائها بالهدى والرحمة: الهدى الذي يتضمن ثَلْجَ الصدور باليقين، وطمأنينةَ القلبِ به، وسكونَ النفسِ إليه، وحياةَ الروح به.

والرحمةُ التي تجلب لها كلَّ خيرٍ ولذةٍ، وتدفع عنها كلَّ شرٍّ وألمٍ.

والموعظةُ التي هي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب.

وشفاءُ الصدورِ المتضمنُ لعافيتها من داء الجهل، والظلمة، والغي، والسفه؛ تلك الأدواءُ التي هي أشدُّ ألماً لها من أدواء البدن.

فالموعظةُ، والشفاءُ، والهدى، والرحمةُ هي الفرح الحقيقي، وهي أَجَلُّ ما يفرح به؛ إذ هو خيرٌ مما يجمع الناس من أعراض الدنيا وزينتها؛ فهذا هو الذي ينبغي أن

يُفْرح به، ومَنْ فرح به، فقد فرح بأجلّ مفروحٍ به، لا ما يجمع أهل الدنيا فيها؛ فإنه ليس بموضع للفرح؛ لأنه عرضةٌ للآفات، وشيكُ الزوال، وخيمُ العاقبة، وهو طيفُ خيالٍ زار الصبَّ في المنام، ثم انقضى المنامُ، وولّى الطيف، وأعقب مزاره الهجران.

فالدنيا، لا تتخلص أفراحُها من أتراحِها وأحزانِها البتة، بل ما من فرحة إلا ومعها تَرْحةٌ سابقةٌ، أو مقارنة، أو لاحقة.

ولا تتجرد الفرحةُ، بل لا بد من تَرْحة تقارنها؛ ولكن قد تقوى الفرحةُ على الحزن، فينغمر حكمُه وألمُهُ مع وجودها وبالعكس.

فالفرحُ بالله وبرسوله، وبالإيمان، وبالقرآن، وبالسنة، وبالعلم يُعَدُّ مِنْ أعلى مقامات العارفين، وأرفع منازل السائرين.

وضدُّ هذا الفرحِ الحزنُ، الذي أعظم أسبابه الجهلُ، وأعظمُه الجهل بالله، وبأمره، ونهيه؛ فالعلمُ يوجب نوراً، وأنساً، وضدُّه يوجب ظلمةً، ويوقع في وحشة.

ومن أسباب الحزن تَفَرُّقُ الهمِّ عن الله؛ فذلك مادةُ حزنه، كما أن جَمْعِيَّة القلب على الله مادةُ فرحِهِ ونعيمِه؛ ففي القلب شَعَثٌ لا يَلُمُّه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشةٌ لا يزيلها إلا الأنسُ به في خلوته، وفيه حَزَنٌ لا يذهبه إلا السرورُ بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلقٌ لا يسكّنه إلا الاجتماعُ عليه والفرارُ منه إليه، وفيه نيرانُ حسراتٍ لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه، وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه طلبٌ شديدٌ لا يقف دونَ أن يكون هو وحده مطلوبَهُ، وفيه فاقةٌ لا يسدُّها إلا محبتُه والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تُسدَّ تلك الفاقةُ منه أبداً.

ولقد قرر العلماء العالمون بالله وبأمره هذا المعنى، وعلى رأس أولئك العلامةُ ابن القيم رحمه الله.

أيها الصائمون: هذا هو الفرح الحق، وهذا هو فرح أهل الإيمان، لا فرحُ أهلِ الأشر والبطر والطغيان.

هذا وإن للصائمين من هذا الفرح نصيباً غيرَ منقوص؛ كيف وقد قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه».

قال ابن رجب رحمه الله: «أما فرحة الصائم عند فطره؛ فإن النفوسَ مجبولةٌ على الميل إلى ما يلائمها من مطعم، ومشرب، ومنكح؛ فإذا امتنعت من ذلك في وقت من الأوقات، ثم أبيح لها في وقت آخر، فرحت بإباحة ما منعت منه، خصوصاً عند اشتداد الحاجة إليه؛ فإن النفوسَ تفرح بذلك طبعاً؛ فإن كان ذلك محبوباً لله كان محبوباً شرعاً.

والصائمُ عند فطره كذلك، فكما أن الله-تعالى-حَرَّم على الصائم في نهار الصيام تناولَ هذه الشهواتِ فقد أذن له فيها في ليل الصيام، بل أحب منه المبادرةَ إلى تناولها من أول الليل وآخره؛ فأحب عباد الله إليه أعجلهم فطراً، والله وملائكته يصلون على المتسحرين؛ فالصائمُ ترك شهواتِه في النهار تقرباً إلى الله، وطاعةً له، ويادر إليها بالليل تقرباً إلى الله، وطاعة له؛ فما تركها إلا بأمر ربه، ولا عاد إليها إلا بأمر ربه؛ فهو مطيعٌ في الحالين؛ ولهذا نُهِيَ عن الوصال؛ فإذا بادر الصائم إلى الفطر تقرباً إلى مولاه، وأكل وشرب وحمد الله فإنه ترجى له المغفرةُ، أو بلوغُ الرضوان بذلك».

إلى أن قال رحمه الله: «ثم إنه ربما استجيب دعاؤه عند فطره، وعند ابن ماجة: «إن للصائم عند فطره دعوةً لا تُرد».

وإن نوى بأكله وشربه تقوية بدنه على القيام والصيام كان مثاباً على ذلك، كما أنه إن نوى بنومه في الليل والنهار التقوّيَ على العمل كان نومُه عبادة.

ومن فهم هذا الذي أشرنا إليه، لم يتوقف في معنى فرحه عند فطره؛ فإن فطره على الوجه المشار إليه من فضل الله ورحمته، فيدخل في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾.»

وقال ابن رجب رحمه الله: «وأما فرحه عند لقاء ربه، ففيما يجده عند الله من ثواب الصيام مدَّخراً ؛ فيجده أحوجَ ما كان إليه كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾.

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾.

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾. ا.هـ.

اللهم أفرح قلوبنا بالإيمان، والقرآن، والسنة، والعلم، والصيام..

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.



الدرس الرابع الصوم والإخلاص (١)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإن حديث هذه الليلة سيدور حول فضيلة الإخلاص، وأثرِ الصوم في اكتسابها.

وقبل الدخول في أثر الصوم في اكتساب الإخلاص يحسن الوقوفُ عند الإخلاص من حيث مفهومُه، وأهميتُه.

معاشر الصائمين: أصل الإخلاص في اللغة مادة خَلُصَ، والخالص: هو مازال عنه شوبُه بعد أن كان فيه.

والإخلاصُ في الشرع: هو تصفيةُ العمل من كل شائبة تشوبه.

ومدارُ الإخلاصِ على أن يكون الباعثُ على العمل امتثالَ أمرِ الله، وإرادتَه -عز وجل- فلا يمازج العملَ شائبةٌ من شوائب إرادة النفس: إما طلبُ التزيُّن في قلوب الخلق، وإما طلبُ مدحِهم والهربُ من ذمهم، أو طلبُ تعظيمهم، أو طلبُ أموالهم أو خدمتِهم ومحبتِهم، وقضائهم حوائجه، أو غيرُ ذلك من العلل، والشوائب التي يجمعها: إرادةُ ما سوى الله في العمل؛ فهذا هو مدار الإخلاص.

ولا حرج بعد هذا على من يطمح إلى شيء آخر، كالفوز بنعيم الآخرة، أو النجاة من أليم عذابها.

بل لا يذهب بالإخلاص -بعد ابتغاء وجه الله- أن يخطر في بال العامل أن للعمل الصالح آثاراً طيبةً في هذه الحياة الدنيا كطمأنينة النفس، وأَمْنِها من المخاوف، وصيانتها عن مواقف الذل والهون، إلى غير ذلك من الخيرات التي تعقب العمل الصالح، ويزداد بها إقبال النفوس على الطاعات قوة إلى قوة.

هذا هو مفهوم الإخلاص.

أما أهميته فيكفي أنه شرط لقبول العبادة؛ فالعبادة تقوم على شرطين هما: الإخلاص لله، والمتابعة للرسول ﷺ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾.

وقال النبي ﷺ: «يقول الله ـ تعالى ـ: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ فمن عمل عملاً، فأشرك فيه غيري ـ فأنا منه بريء، وهُوَ للذي أشرك» رواه مسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله متحدثاً عن الإخلاص وفضله وأهميته: «بل إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه، وهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل، وأنزل به جميع الكتب، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان، وهو خلاصة الدعوة النبوية، وهو قطب رحى القرآن الذي تدور عليه رحاه».

إلى أن قال رحمه الله: «قال ـ تعالى ـ في حق يوسف: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾.

فالله يصرف عن عبده ما يسوؤه من الميل إلى الصور المحرمة، والتعلق بها، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله.

ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله، والإخلاص له بحيث تغلبه نفسه على اتباع هواها.

فإذا ذاق طعم الإخلاص، وقوي قلبه ـ انقهر بلا علاج» اـهـ.

معاشر الصائمين هذا هو مفهوم الإخلاص، وذلك شيء من أهميته وفضله.

هذا وإن للصيام أثراً عظيماً في تربية النفوس على فضيلة الإخلاص، وألا يراعى

في الأعمال غيرُ وجه الله ـ جل وعلا ـ.

ذلكم أن الصائم يصوم إيماناً واحتساباً، ويدع شهوته وطعامه وشرابه من أجل الله ـ تعالى ـ وأيُّ درسٍ في الإخلاص أعظمُ من هذا الدرس؟

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه».

قال ابن حجر ﷺ قوله: «إيماناً»: أي تصديقاً بوعد الله بالثواب عليه، و«احتساباً»: أي طلباً للأجر، لا لقصد آخر من رياء ونحوه» اـهـ.

وفي البخاري ـ أيضاً ـ من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لخُلوف فمِ الصائمِ أطيبُ عند الله من ريح المسك؛ يترك طعامه وشرابه، وشهوته من أجلي، الصيام لي وأنا أجزي به، والحسنة بعشر أمثالها».

قال ابن حجر ﷺ في شرح الحديث: «قوله: «يترك طعامه وشرابه، وشهوته من أجلي» هكذا وقع هنا، ووقع في الموطأ «وإنما يذر شهوته» الخ... ولم يصرح بنسبته إلى الله، للعلم به، وعدم الإشكال فيه».

وقال ﷺ: «وقد يفهم من صيغة الحصر في قوله: «إنما يذر» الخ... التنبيه على الجهة التي بها يستحق الصائم ذلك، وهو الإخلاص الخاصُّ به، حتى لو كان ترك المذكورات لغرض آخر كالتُخمة لا يحصل للصائم الفضلُ المذكور» اـهـ

معاشر الصائمين: هكذا يربينا الصوم على فضيلة الإخلاص؛ فالصومُ عبادةٌ خفيةٌ، وسِرٌّ بين العبد وربه، ولهذا قال بعض العلماء: الصوم لا يدخله الرياء بمجرد فعله، وإنما يدخله الرياء من جهة الإخبار عنه.

بخلاف بقية الأعمال؛ فإن الرياء قد يدخلها بمجرد فعلها.

ولا ريب أن الإخلاص من أعظم الخصال، وأحمد الخلال إن لم يكن أعظمها وأحمدها.

ثم إن للإخلاص آثارَهُ العظيمةَ على الأفراد بخاصة، وعلى الأمة بعامة، فللإخلاص تأثير عظيم في تيسير الأمور، فمن تعكست عليه أمورُه، وتضايقت عليه مقاصدُه ـ فليعلم أنه بذنبه أصيب، وبقلة إخلاصه عوقب.

والإخلاص هو الذي يجعل في عزم الرجل متانةً، ويربط على قلبه؛ فيمضي في عمله إلى أن يبلغ الغاية.

وكثيرٌ من العقبات التي تقوم دون بعض المشروعات لا يساعدك على العمل لتذليلها إلا الإخلاص.

ولولا الإخلاص الذي يضعه الله في نفوس زاكيات لَحُرِمَ الناسُ من خيراتٍ كثيرةٍ تقف دونها عقبات.

أيها الصائمون: قد يُخِلُّ الرجلُ في بعض الأعمال، ويتغلب عليه الهوى في بعضها؛ فيأتي بالعمل صورةً خاليةً من الإخلاص.

والذي يرفع الشخص إلى أقصى درجات الفضل والمجد إنما هو الإخلاص الذي يجعله الإنسانُ حليفَ سيرته؛ فلا يُقْدِم على عمل إلا وهو مستمسك بعروته الوثقى.

ولا تبالغُ إذا قلت: إن النفسَ التي تتحرر من رق الأهواء، ولا تسير إلا على وفْق ما يمليه عليها الإخلاص هي النفسُ المطمئنةُ بالإيمان، المؤدبة بحكمة الدين، ومواعظه الحسنة.

قال ابن تيمية رحمه الله: «وإذا كان العبد مخلصاً لله اجتباه ربه؛ فأحيا قلبه، واجتذبه إليه، فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، ويخاف ضد ذلك.

بخلاف القلب الذي لم يُخْلِص لله؛فإن فيه طلباً، وإرادةً، وحباً مطلقاً؛ فيهوى كلَّ ما يسنح له، ويتشبث بما يهواه كالغصن أيُّ نسيمٍ مرَّبِهِ عطفه وأماله» ا ـ هـ.

وللحديث بقية ـ إن شاء الله ـ في الليلة القادمة، اللهم ارزقنا الإخلاص في ما نأتي وما نذر، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد.

الدرس الخامس

الصوم والإخلاص (٢)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن الحديث في هذه الليلة إكمال للحديث الماضي، ألا وهو الإخلاص.

معاشر الصائمين: إذا أخلص المسلمُ صيامه لله، وقام به على الوجه الذي يرضي الله كان ذلك داعياً له لأن يخلص لله في شتى أموره، وكافة أحواله، وسائر أيامه، فَرَبُّ رمضانَ هو ربُّ سائرِ الشهور، والذي فرض الصيام هو الذي فرض غيره من سائر الطاعات والقربات، والذي يُتَقَرَّبُ إليه بالصيام هو الذي يُتَقَرَّبُ إليه بسائر الأعمال.

وهكذا يفيد المسلمُ هذا الدرسَ العظيمَ من شهر الصوم.

ولقد وقف الحديث في الدرس الماضي عند أثر الإخلاص على الأفراد بخاصة، وعلى الأمة بعامة؛ فإليكم جملة من تلكم الآثار التي تعود بالخير على الأفراد والجماعات.

أيها الصائمون: الإخلاص يرفع شأن الأعمال حتى تكون مراقيَ للفلاح، فصغير الأعمال -بالإخلاص- يكون كبيراً، وقليلها يكون كثيراً.

والإخلاص هو الذي يحمل الإنسانَ على مواصلة عمل الخير؛ فمن يصلي رياءاً، أو حياءاً من الناس لابد أن تمرَّ عليه أوقاتٌ لا ينهض فيها إلى الصلاة، ومن يحكم بالعدل؛ ابتغاءَ السمعةِ، أو خوفَ العزلِ من المنصب قد تَعْرِضُ له منفعةٌ يراها ألذَّ من السمعة، أو يصادفه أمنُ العزلِ-فلا يبالي أن يدع العدل جانباً.

ومن يدعو إلى الإصلاح ابتغاء الجاه قد ينزل بين قوم لا يحظى بينهم إلا من ينحط في أهوائهم، فينقلب داعياً إلى الأهواء.

ومن يفعل المعروف لأجل أن تُردِّدَ ذِكْرَهُ الألسنةُ في المجالس أو الصحف قد يرى بعينه سبيلاً من سبل الخير في حاجة إلى مؤازرة؛ فيصرف عنه وجهه وهو يستطيع أن يمد إليه يده، ويسدَّ حاجته.

أيها الصائمون: الإخلاص الذي يقوم على الإيمان الصادق هو الذي يسمو سلطانه على كل سلطان، ويبلغ أن يكون مبدأً راسخاً تصدر عنه الأعمال الصالحة.

وهو الذي يجد له صاحبه حلاوة، فيسهل عليه أن يكون أحد السبعة المشار إليهم بقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظلَّ إلا ظله» إلى أن قال: «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

حكى أشعبُ بنُ جبير أنه كان في بعض سكك المدينة، فلقيه رجل، وقال له: كم عيالك؟ قال: فأخبرته، فقال لي: قد أُمِرتُ أن أجْرِي عليك وعلى عيالك ما كنتَ حيّاً، فقلت من أمرك؟، قال: لا أخبرك، قلت: إنَّ هذا معروفٌ يشكر، قال: الذي أمرني لم يرد شكرَك.

قال أشعب بن جبير: فكنت آخذ ذلك إلى أن توفي خالد بن عبدالله بن عمر بن عثمان، فحفل له الناس، فشهدته، فلقيني ذلك الرجل، فقال: يا أشعب! هذا ـ والله ـ صاحبك الذي كان يجري عليك ما كنت أعطيك.

فهذا فاعلُ خيرٍ من وراء حجاب.

أيها الصائم: لعلك لا تجد أحداً يتصدى لعمل إلا وهو يدَّعي الإخلاص فيما يعمل؛ ذلك أن الإخلاصَ موطِنُه القلبُ، والقلوبُ محجوبةٌ عن الأبصار.

وإذا وصفتَ أحداً بالإخلاص أو عدمه فإنما ترجع في وصفك إلى أمارات تبدو لك من أحواله الظاهرة.

ومن هذه الأحوال ما يدلك على سريرته دِلالةً قاطعةً، ومنها ما لا يتجاوز بك

حدَّ الظن.

وهذا موضع التثبت والاحتراس؛ ففي وصف المخادعِ بالإخلاص ووصفِ المخلص بالمخادع ضررٌ اجتماعيٌّ كبير؛ فإن وثقت بمجردِ الظن لم تأمن أن تقضيَ على فاسد الضمير بالإخلاص؛ فيتخذه الناسُ موضعَ قدوةٍ؛ فيستدرجهم من فساد صغير، حتى إذا أَلِفوه نقلهم إلى فساد كبير.

وربما قضيت على طاهر القلب بعدم الإخلاص، فكنت كمن يسعى لإطفاء سراج، والناس في حاجة إلى سُرجٍ تنير لهم السبيل.

أيها الصائمون: الإخلاص فضيلة في نفسه، ولا ينزل في نفس إلا حيث تنزل فضائلُ كثيرةٌ، فالإخلاص يَمُدُّ قلبَ صاحبه بقوة؛ فلا يتباطأُ أن ينهضَ للدفاع عن الحق، ولا يبالي في دفاعه إذا أصابه ما أصابه.

والإخلاصُ يشرحُ صدر صاحبه للإنفاق في بعض وجوه البر؛ فتراه يؤثرها بجانب من ماله وإن كان به خصاصة.

والإخلاص يعلم صاحبَه الزهد في عرض الدنيا؛ فلا يُخشى منه أن يناوئ الحقَّ، أو يُلْبِسَهُ بشيء من الباطل، ولو أمطر عليه أشياع الباطل فضةً أو ذهباً.

والإخلاص يحمل القاضي على تحقيق النظر في القضايا؛ فلا يفصل في قضية إلا بعد أن يتبين له الحق.

والإخلاص يوحي إلى الأستاذ أن يبذلَ جُهْدَه في إيضاح المسائل، وأن لا يبخل على الطلاب بما تسَعُهُ أفهامُهم من المباحث المفيدة، وأن يسلكَ في التدريس الأساليبَ التي تجددُ نشاطَهم للتلقي عنه.

والإخلاص يصون التاجر عن أن يخون الذي يأتمنه في صنف البضاعة أو قيمتها، ويحمل الصانع على إتقان عمله حسب الطاقة.

والإخلاص يردع قلم الكاتب عن أن يقلب الحقائق، أو يكسوها لوناً غير لونها؛ إرضاءًا لشخص أو طائفة.

أيها الصائمون: هذه بعض مآثر الإخلاص الذي ينميه الصوم في نفوسنا؛ ويبعثنا إلى أن نخلص لله في جميع أعمالنا، وشتى أحوالنا.

فحقيق علينا أن نربي أنفسنا ومن تحت أيدينا على فضيلة الإخلاص، وأن نلقن ناشئتنا ماذا يناله المخلص من حمدٍ وكرامة وحسن عاقبة؛ لكي يَخْرُجَ لنا رجال مخلصون يقوم كل منهم بالعمل الذي يتولاه بحزم وإتقان.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس السادس

رمضان شهر الدعوة

نحمدك اللهم أن هديتنا سُبُلَ الفلاح، ونستعين بك على إعلاء كلمة الحق والدعوة إلى الصلاح، ونصلي ونسلم على نبيك محمد الذي أنزلت إليه قرآناً عربياً، وعلى كل من دعا إلى سبيلك مخلصاً تقياً.

أما من زاغ عن الهدى، واتخذ من المضلين عضداً فإليك إيابه، وعليك حسابه، أما بعد:

فإن الدعوة إلى الله لمن أوجب الواجبات، وأهم المهمات، وأعظم القربات. وإن شهرَ رمضانَ لفرصةٌ سانحةٌ، ومناسبة كريمة، وأرضٌ لنشر الدعوةِ خصبةٌ، ذلكم أن القلوب في رمضان تخشع لذكر الله، وتستعد لقبول المواعظ الحسنة، وتقوى بها إرادة التوبة.

والحديث في هذه الليلة سيدور حول الدعوة إلى الله من حيث مفهومُها، وفضائلُها وآدابها، وما يدور في فلكها.

أيها المسلمون الكرام: الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ تشمل كلَّ ما يُقصد به رفعةُ الإسلام، ونشرُه بين الناس، ونفيُ ما علق به من شوائب، وردُّ كلِّ ما يغضُّ من شأنه، ويصرف الناس عنه.

والدعوة إلى الله تشمل كلَّ قولٍ، أو فعل، أو كتابة، أو حركة، أو سكنة، أو خُلق، أو نشاط، أو بذل للمال، أو الجاه، أو أي عمل يخدم الدين، ولا يخالف الحكمة.

ولا ريب أن العلم هو مرتكز الدعوة، وهو أساسها، ودليلها، وقائدها.

ولكن الدعوة تحتاج مع العلم إلى كثير من الجهود التي مضى شيء منها؛ فكلٌّ يعمل على شاكلته، وقد علم كل أناس مشربهم.

أيها الصائمون الكرام: لقد جاءت نصوص الشرع آمرةً بالدعوة، منوهةً بشأنها، محذرةً من التخاذل في تبليغها، مبينةً فضائلَها والأجورَ المترتبةَ عليها.

ولقد جاءت النصوص في ذلك الصدد على وجوه شتى، وصيغ متعددة.

فجاءت بصيغة الأمر بالدعوة بصريح لفظها قال-تعالى-: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ وقال: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾

وجاءت بصيغة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

وجاءت بصيغة التبليغ قال الله -تعالى-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

وجاءت بصيغة النصح قال-عز وجل-: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

وجاءت بصيغة التواصي قال الله-تعالى-: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾.

وجاءت بصيغة الوعظ قال-سبحانه-: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾.

وجاءت بصيغة التذكير، قال الله-عز وجل-: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وجاء بصيغة الإنذار، قال الله-تعالى-: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

وجاءت بصيغة التبشير قال -تبارك وتعالى-: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وجاءت بصيغة الجهاد قال -عز وجل-: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

وجاءت بصيغة التحذير من التولي عن الدعوة ونصرة الدين قال -عز وجل- : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾.

أما فضائل الدعوة وثمراتها التي تعود على الأفراد بخاصة، وعلى الأمة بعامة - فلا تكاد تحصى، وأدلةُ الوحيين مليئةٌ بذلك، متضافرةٌ عليه.

فالدعوة إلى الله طاعة لله، وإرضاءٌ له، وسلامةٌ من وعيده.

والدعوةُ إلى الله إعزازٌ لدين الله، واقتداءٌ بأنبيائه ورسله، وإغاظةٌ لأعدائه من شياطين الجن والإنس، وإنقاذٌ لضحايا الجهل والتقليد الأعمى.

والدعوةُ إلى الله سبب في زيادة العلم والإيمان، ونـزول الرحمة ودفع البلاء، ورفعه.

وهي سبب لمضاعفة الأعمال في الحياة وبعد الممات، وسبب للاجتماع والألفة، والتمكين في الأرض.

والدعوةُ إلى الله أحسنُ القول، فلا شيء أحسن من الدعوة إلى الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

وهدايةُ رجلٍ واحدٍ خيرٌ من الدنيا وما عليها، والدعاةُ إلى الله هم أرحمُ الناس، وأزكاهم نفوساً، وأطهرهم قلوباً، وهم أصحابُ الميمنة، وهم ورثة الأنبياء.

أيها الصائمون الكرام: هناك صفات يحسن بالداعي إلى الله أن يتصف بها - سواء كانت دعوته فردية أم عامة - فمن ذلك: العلمُ، والعملُ بالعلم، والإخلاصُ، والصبرُ، والحلمُ، وحسنُ الخلقِ، والكرمُ، والإيثارُ، والتواضعُ، والحكمةُ، والرحمةُ، والحرصُ على جمع الكلمة على الحق.

ومن الصفات التي يجمل بالداعي أن يتصف بها: الصفحُ الجميلُ، ومقابلةُ الإساءةِ بالإحسان، والثقةُ بالله، واليقينُ بنصره، والرضا بالقليل من النتائج، والسعيُ للكثير من الخير.

ومنها تجنبُ الحسدِ، وتجنبٌ استعجالِ النتائج، وتجنبٌ التنافس على الدنيا والانهماكِ في ملذاتها ومشاغلها.

ومن آداب الداعي إلى الله أن يكون ملازماً للّين والرفق، حريصاً على هداية الخلق، مستشعراً للمسؤولية ، قويَّ الصلة بالله، كثير الذكر والدعاء والإقبال على الله بسائر القربات.

ومن آدابه: الحرصُ على مسألة القدوة، وأن يغتنم كل فرصة للدعوة، وألا يحتقر أي جهد في سبيلها مهما قل.

ومن آدابه: أن ينزلَ الناسَ منازلَهم، وأن يتحامى قدر المستطاع ما يسوؤهم، وأن يتحمل همَّهم وألا يحمِّلهم شيئاً من همومه.

ومن آدابه: تحسُّسُ أدواء المدعوين، ومعرفة أحوالهم.

ومنها: البعدُ عن الجدال إلا في أضيق الحدود وبالتي هي أحسن.

ومنها :تعاهدُ المدعوين،وتشجيعُهم، وربطُهم بالرفقة الصالحة، ومراعاة الحكمة في إنقاذهم من رفقة السوء.

ومنها: البدء بالأهم فالمهم، والبعد عن الانتصار للنفس.

ومنها: تنويع وسائل الدعوة، فتارة بالموعظة، وتارة بالهدية، وتارة بالتوجيه غير المباشر وهكذا. ..

ومنها: إظهار الاهتمام بالمدعو، ومعرفةُ اسمه، وإشعارهُ بأهميته، وإشغاله بما ينفعه.

أيها الصائمون الكرام :هذه هي الدعوة إلى الله ،وتلك فضائلها ، وآداب أهلها ؛ فحريّ بنا أن نكون دعاة إلى الله ؛ كُلٌّ بحسبه ، فهذا بعلمه ، وهذا بماله ، وهذا بجاهه ، وهذا بجهده ؛ لنحقّقَ الخيرية ولنسلمَ من الوعيد.

فيا طالب العلم هذا شهرُ رمضانَ فرصةٌ عظيمة للدعوة إلى الله ،فهاهي القلوب ترق ،وها هي النفوس تهفو إلى الخير ،وتجيب داعي الله ؛فهلا استشعرت مسؤوليتك ، وهلا استفرغت في سبيل الدعوة طاقتك وجهدك ، وهلا أبلغت وأعذرت ، ورفعت عن نفسك التبعة!!.

ويا من آتاه الله بسطةً في المال ألا تؤثر الدعوة إلى الله بجانب من مالك ، فتساهم في كفالة الدعاة ، وإعدادهم ، وتشارك في طباعة الكتب النافعة ،ونحو ذلك مما يدور في فلك الدعوة ، ألا تريد أن تدخل في زمرة الدعاة إلى الله.

ويا من آتاه الله جاهاً ألا بذلته في سبيل الله ، ألا سعيت في تيسير أمور الدعوة إلى الله.

ويا أيها الإعلامي المسلم أيًّا كان موقِعُك ألا يكون لك نصيب في نشر الخير ، والدعوة إلى الله بالكلمة الطيبة ، والطرح البناء ، أما علمت أنك ترسل الكلمةَ أو تعين على إرسالها ، فتسير بها الركبانُ ، وتبلغ مابلغ الليل والنهار؟ أما علمت أن لك غُنْمَها ، وعليك غُرْمَها؟

ويا من حباه الله دراية ومعرفة بشبكة الاتصالات وما يسمى بالإنترنت ، ألا جعلت من ذلك وسيلة لنشر الدعوة إلى الله؟ أليس من اليسير في حقك أن تبث الخير على أوسع نطاق ، وبأقل مؤونة ، ألست تخاطب العالم ، وأنت منزوٍ في قعر بيتك؟

ويا أيتها المرأة المسلمة ألا تسعين جاهدة في نشر الخير في صفوف النساء بما تستطيعين.

ويا أيها المسلمون عموماً ألا نتعاون جميعاً في سبيل الدعوة إلى الله، ألا نجعل من شهرنا هذا ميداناً لاستباق الخيرات، ألا نتعاون في نصح الغافلين، وتذكير الناسين، وتعليم الجاهلين؟!.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

اللهم اجعلنا من أنصار دينك، ومن الدعاة إلى سبيلك وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وسلام على المرسلين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.



الدرس السابع

رمضان شهر البر (١)

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

فإن رمضانَ شهرُ البرِّ، وموسمُ الخير، وميدان التنافس.

وإن من أعظم البرِّ، وأجل القربات، برَّ الوالدين، ذلكم أن حقَّ الوالدين عظيم، ومنزلتهما عالية في الدين؛ فَبِرُّهما قرينُ التوحيد، وهو من أعظم أسباب دخول الجنة، وهو مما أقرته الفطر السوية، واتفقت عليه الشرائع السماوية.

وهو خلق الأنبياء، ودأب الصالحين، وهو سبب في زيادة العمر، وسعة الرزق، وتفريج الكربات، وإجابة الدعوات، وانشراح الصدر، وطيب الحياة.

وهو ـ أيضاً ـ دليل صدق الإيمان، وعلامة حسن الوفاء، وسبب البر من الأبناء.

وفي مقابل ذلك فإن عقوق الوالدين ذنب عظيم، وكبيرة من الكبائر، فهو قرين للشرك، وموجب للعقوبة في الدنيا، وسبب لرد العمل ودخول النار في الأخرى.

وهو جحودٌ للفضل، ونكرانٌ للجميل، ودليلٌ على الحمق والجهل، وعنوانٌ على الخسة، والدناءة، وأمارةٌ على حقارة الشأن وصَغر النفس.

ولعظم حق الوالدين تظاهرت نصوص الشرع آمرةً ببرهما والإحسان إليهما، ناهيةً عن عقوقهما والتقصير في حقهما، قارنة حقوقهما بحق الله ـ تعالى ـ.

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾

وقال: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ﴾.

وقال: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: سألت رسول الله ﷺ أي العمل أحب إلى الله ـ تعالى ـ ؟قال :« الصلاة على وقتها » قلت ثمَّ أي؟ قال :« بر الوالدين »

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: « الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس» رواه البخاري.

ومع عظم تلك المكانة للوالدين إلا أننا نرى عقوقهما قد تفشى، وأخذ صوراً عديدةً، ومظاهر شتى ؛فمن ذلك إبكاؤهما وتحزينُهما، ونهرُهما وزجرُهما، والتأففُ والتضجر من أوامرهما، والعبوسُ وتقطيبُ الجبينِ أمامهما.

ومن صور العقوق احتقارُ الوالدين، والنظر إليهما شزراً، والإشاحةُ بالوجه عنهما إذا تحدثا، وقلةُ الاعتداد برأيهما، وإثارةُ المشكلات أمامهما.

ومن ذلك ـ عياذاً بالله ـ شتمُ الوالدين، وذمُّهما عند الناس، والتخلي عنهما وقت الحاجة أو الكبر، والتبرؤُ منهما، والحياءُ من ذكرهما والنسبة إليهما.

ومن صور العقوق الإثقالُ على الوالدين بكثرة الطلبات، والمكثُ طويلاً خارجَ المنزل إلى ساعات متأخرة من الليل، أو النوم خارج المنزل دون علم الوالدين بمكان الولد خصوصاً إذا كان صغيراً.

ومن صور العقوق المتناهية بالقبح لعنُ الوالدين، والتعدي عليهما بالضرب، وإيداعُهما دورَ الملاحظة.

ومن صور العقوق هجرُ الوالدين، والبخلُ عليهما، وتركُ نصحهما، والسرقةُ من أموالهما، والأنينُ وإظهارُ التوجع أمامهما.

ومن أقبح صور العقوق إن لم تكن أقبحها تمني زوالِهما، وقَتْلُهما، والتخلصُ منهما، رغبةً في الميراث، أو رغبة في التحرر من أوامر الوالدين؛ فيا لشؤم هذا، ويا لِسوادِ وجهه، ويا لِسوءِ سوء مصيره إن لم يتداركه الله برحمته.

هذه بعض صور العقوق، وتلك بعض مظاهره؛ فما أبعد الخير عن عاق والديه، وما أقرب العقوبة منه، وما أسرع الشر إليه.

وهذا أمر مشاهد محسوس يعرفه كثير من الناس، ويرون بأم أعينهم، ويسمعون قصصاً متواترة لأناس خذلوا وعوقبوا بسبب عقوقهم لوالديهم.

قال الأصمعي ﵀: أخبرني بعض العرب أن رجلاً كان في زمن عبدالملك بن مروان، وكان له أب كبير، وكان الشابُّ عاقاً بأبيه، وكان يقال للشاب «منازل» فقال الأب الشيخ الكبير:

جَزَتْ رحمٌ بيني وبينَ منازلٍ ... جزاءاً كما يستنجزُ الدَينَ طالبُه
تَربَّت حتى صار جعداً شمردلاً ... إذا قام ساوى غاربَ الفحلِ غاربُه
تظلَّمني مالي كذا ولوى يدي ... لوى يدَه اللهُ الذي لا يغالبُه
وإني لداعٍ دعوةً لو دعوتُها ... على جبل الريان لانْهَدَّ جانِبُه

فبلغ ذلك أميراً كان عليهم، فأرسل إلى الفتى؛ ليأخذه، فقال له أبوه الشيخ: اُخْرُجْ من خلف البيت، فسبق رُسَلَ الأمير، ثم ابتلي الفتى بابن عقّه في آخر حياته، واسم الولد «خليج» فقال منازل فيه:

تظلمني مالي «خليجٌ» وعقني ... على حين كانت كالحَنيِّ عظامي

تخيَّرتُه وازددته ليزيدني وما بعضُ ما يزدادُ غيرُ عرامِ
لعمري لقد ربَّيته فرحاً به فلا يفرحنْ بعدي امرؤٌ بغلام

فأراد الوالي ضرب الابن، فقال للوالي: لا تعجل هذا أبي منازل بن فرعان الذي يقول فيه أبوه:

جزت رحمٌ بيني وبينَ منازلٍ جزاءاً كما يستنجز الدَّينَ طالبُه

فقال الوالي: «يا هذا عَقَقْتَ وعُقِقْتَ»

وقال الأصمعي رحمه الله: حدثني رجلٌ من الأعراب، وقال: خرجت أطلب أعقَّ الناس؛ فكنت أطوف بالأحياء، حتى انتهيت إلى شيخٍ في عنقه حبلٌ يستقي بدلو لا تطيقه الإبلُ في الهاجرة، والحرِّ الشديد، وخلفه شابٌّ في يده رُشاءٌ - أي حبل - من قِدٍّ ملوي - والقِدُّ هو السوط - وهو يضرب الشيخ الكبير بالقدِّ، وقد شقَّ ظهره بذلك الحبل، فقلت: أما تتقي الله بهذا الشيخ الضعيف؟ أما يكفيه ما هو فيه مِنْ مَدِّ هذا الحبل حتى تضربه؟

قال: إنه مع هذا أبي، قلت: فلا جزاك الله خيراً.

قال: اسكت؛ فهكذا كان يصنع بأبيه، وكذا كان أبوه يصنع بجده، فقلت: هذا أعقُّ الناس.

ثم جُلت حتى انتهيت إلى شاب وفي عنقه زبيلٌ فيه شيخٌ كأنه فَرْخٌ، فكان يضعه بين يديه في كل ساعة، فيطعمه كما يُطعَمُ الفرخ، فقلت من هذا؟ قال: أبي وقد خرف وأنا أكفله، قلت: هذا أبر الناس.

أيها الصائمون: للحديث بقيةٌ غداً - إن شاء الله - تعالى - وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الثامن رمضان شهر البر (٢)

الحمد لله مُعِزِّ من أطاعه، ومُذِلِّ من عصاه، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فقد عَلِمنا في الحديث الماضي عِظَم حق الوالدين، والترغيبَ في برهما، والترهيبَ من عقوقهما.

ومر شيءٌ من مظاهر العقوق وصوره؛ فإذا كان الأمر كذلك فما أحرى بذي اللب أن يبر والديه، وأن يتجنب عقوقهما؛ لينال الخيرَ والبركةَ في العاجل، وليحظى بالثواب الجزيل والعطاءِ غيرِ المجذوذ في الآجل.

أيها الصائمون: هناك آداب ينبغي لنا مراعاتها، ويجدر بنا مع الوالدين سلوكها؛ لعلنا نرد لهما بعض الدين، ونقوم ببعض ما أوجب الله علينا نحوهما؛ لنرضيَ بذلك ربنا، وتنشرحَ صدورنا، وتطيبَ حياتنا، وَتُيَسَّرَ أمورُنا، ويبارك لنا في أعمارنا، ويبسَط لنا في أرزاقنا.

فمما يجدر بنا سلوكه مع الوالدين طاعتُهما، واجتنابُ معصيتهما في غير مخالفة لأمر الله.

ومن ذلك الإحسانُ إليهما، وخفضُ الجناح لهما، والبعدُ عن زجرهما.

ومن صور البرِّ الإصغَاءُ إلى الوالدين، وذلك بالإقبال عليهما إذا تحدثا وتركِ مقاطعتهما أو منازعتهما الحديث أوتكذيبهما.

ومن الآداب مع الوالدين التلطلفُ بهما، والفرحُ بأوامرهما، والحذر من التأفف والتضجر منهما.

ومن ذلك ـ أيضاً ـ التوددُ لهما، والتحبب إليهما، والجلوس أمامهما بأدب واحترام، وتجنبُ المنَّة في الخدمة أو العطية.

ومن صور البر مساعدةُ الوالدين في الأعمال، والبعدُ عن إزعاجهما وقتَ راحتهما، أو تكديرِ صفوهما بالجلبة، ورفعِ الصوت، أو بالأخبارِ المحزنة.

ومن ذلك تجنُّبُ الشجارِ، وإثارةِ الجدل أمامهما، وذلك بالحرص على حل جميع المشكلات مع الإخوة أو الزوجةِ أو أهل البيت عموماً بعيداً عن أعين الوالدين إلا إذا اقتضت الحكمةُ والمصلحةُ إشراكَهما في الأمر.

ومن صور البر تلبيةُ نداءِ الوالدين بسرعة، والاستئذان عليهما حال الدخول عليهما وإصلاحُ ذات البين إذا فسدت بين الوالدين، والحرصُ على التوفيق بينهما وبين الزوجة، وتعويد الأولاد على برهما.

ومن صور البر تذكيرُ الوالدين بالله، ونصحُهما بالتي هي أحسن.

ومن برهما ـ أيضاً ـ الاستئذانُ منهما، والاستنارةُ برأيهما، والمحافظةُ على سمعتهما، والبعدُ عن لومهما وتقريعهما.

ومن ذلك فهمُ طبيعة الوالدين، ومعاملتهما بمقتضى ذلك.

ومن البر بهما كثرةُ الدعاءِ والاستغفار لهما، وصلةُ الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإنفاذ عهدهما، والتصدق عنهما.

ومما يعين على بر الوالدين أن يستعينَ الإنسانُ بالله، وأن يستحضر فضائلَ البر، وعواقبَ العقوق، وأن يستحضر فضل الوالدين، وأن يضع نفسه موضعهما، وأن يقرأ سير البارين بوالديهم.

أيها الصائمون: هاهو بر الوالدين، وهذه هي الآداب التي يجدر بنا مراعاتها معهما، وتلك أسباب تعين على البر، فما أحرانا بمراعاة تلك الأمور، وما أجدرنا،

بالأخذ بها ، وإليكم معاشر الصائمين بعضَ النماذجِ من قصص البر:

هذا إسماعيل بن إبراهيم-عليهما السلام-يضرب أروع أمثلة البر في تاريخ البشرية ، وذلك عندما قال له أبوه : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ ﴾ .

فما كان من ذلك الولد الصالح إلا أن قال : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ .

وقد ورد أن إبراهيم -عليه السلام-لما تيقن مما رأى في منامه قال لابنه : يا بني خُذِ الحبلَ والُمديةَ ، وانطلق بنا إلى هذا الشعب نحتطب ، فلما خلا بهِ في شعب ثبير أخبره بما أمره الله به ،فلما أراد ذبحه قال له : يا أبت اشدد رباطي ؛ حتى لا أضطرب ، واكْفُفْ ثيابك؛ حتى لا يصيبَها الدَّمُ فتراه أمي ، واشحذ شفرتك ، وأسرع في السكين على حلقي ؛ ليكون أهونَ علي ، وإذا أتيت أمي فاقرأ عليها السلام مني.

قال إبراهيم : نعم العونُ أنت يا بني ، ثم أقبل عليه ، وهما يبكيان ، ثم وضع السكينَ على حلقه ، فلم تحزَّ ، فشحذها مرتين أو ثلاثاً بالحجر فلم تقطع.

فقال الابن عند ذلك: يا أبت كُبَّني على وجهي ؛ فإنك إن نظرت إلى وجهي رحمتني ، وأدركتك رِقّةٌ تحول بينك وبين أمر الله-تعالى-وأنا لا أنظر إلى الشفرة؛ فأجزع.

ففعل إبراهيم ذلك ، ووضع السكين على قفاه ،فانقلب السكين ، وسلبت منها خاصيتها ، ونودي ﴿ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ ﴾ .

وإليكم أيها الصائمون صوراً مشرقة في البر من سير السلف الصالح تدل على شدة اهتمامهم ببر الوالدين.

فهذا أبو هريرة ﷺ كان يستخلفه مروان ، وكان يكون بذي الحليفة ، فكانت أمه

في بيت وهو في بيت آخر، فإذا أراد أن يخرج وقف على بابها وقال: «السلام عليك ورحمة الله وبركاته» فتقول: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته»، فيقول: «رحمكِ الله كما ربيتني صغيراً»، وتقول: «ورحمك الله كما بررتني كبيراً».

وهذا ابنُ عمرَ -رضي الله عنهما- لقيه رجل من الأعراب بطريق مكة، فسلم عليه عبد الله بن عمر وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه.

قال ابنُ دينارٍ: فقلنا له أصلحك الله إنهم الأعراب، وهم يرضون باليسير.

فقال عبدُاللهِ بنُ عمرَ: إن أبا هذا كان وُدًّا لعمر بن الخطاب ﷺ وإني سمعت رسول الله يقول: «إن أبرَّ البرِّ صلةُ الولدِ أهلَ ودِّ أبيه» رواه مسلم وأبو داود.

وهذا أبو الحسن عليُّ بنُ الحسينِ بن عليِّ بنِ أبي طالب وهو المسمى بزين العابدين وكان من سادات التابعين-كان كثير البر بأمه، حتى قيل له: إنك من أبر الناس بأمك، ولا نراك تؤاكل أُمَّك؛ فقال: أخاف أن تسبق يدي إلى ما قد سبقت عينها إليه، فأكون قد عققتها.

وقال هشام بنُ حسان حدثتني حفصةُ بنتُ سيرين قالت، كانت والدة محمد بن سيرين حجازية، وكان يعجبها الصِّبغ، وكان محمد إذا اشترى لها ثوباً اشترى ألين ما يجد، فإذا كان عيدٌ صَبَغَ لها ثياباً، وما رأيته رافعاً صوته عليها، وكان إذا كلمها كالمصغي.

وعن بعض آل سيرين قال: ما رأيت محمد بن سيرين يكلم أمه قط إلا وهو يتضرع.

وعن ابن عون أن محمداً كان إذا كان عند أمه لو رآه رجل ظن أن به مرضاً من خفض كلامه عندها.

وعن ابن عون قال: دخل رجل على محمد بن سيرين وهو عند أمه فقال: ما شأن محمد؟ أيشتكي شيئاً قالوا: لا، ولكن هكذا يكون عند أمه.

وروى جعفر بن سليمان عن محمد بن المنكدر أنه كان يضع خدَّه على الأرض ثم يقول لأمه: قومي ضعي قَدَمَكِ على خدي.

وعن ابن عون المزني أن أمه نادته، فأجابها، فعلا صوتُه صوتَها؛ فأعتق رقبتين.

وقيل لعمرَ بن ذرٍّ: كيف كان بر ابنك بك؟ قالت ما مشيت نهاراً قط إلا مشى خلفي، ولا ليلاً إلا مشى أمامي، ولا رقى سطحاً وأنا تحته.

وهذا بُندارُ المحدثُ قال عنه الذهبي: «جمع حديث البصرة، ولم يرحل؛ براً بأمه».

وقال عبد الله بن جعفر بن خاقان المروزي: سمعت بنداراً يقول: أردت الخروج -يعني الرحلة لطلب العلم- فمنعتني أمي، فأطعتها، فبورك لي فيه.

وكان طلق بن حبيب من العلماء العباد، وكان يقبل رأس أمه، وكان لا يمشي فوق ظهر بيت وهي تحته؛ إجلالاً لها.

وقال عامر بن عبد الله بن الزبير: مات أبي، فما سألت الله حولاً كاملاً إلا العفو عنه.

اللهم اجعلنا من الأتقياء الأبرار، ومن المصطفين الأخيار إنك أنت الرحيم الكريم الغفار.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

❖ ❖ ❖

الدرس التاسع

رمضان شهر الصحة

الحمد لله القوي العزيز الجبار، والصلاة والسلام على النبي الكريم المصطفى المختار، وعلى آله وصحبه الأخيار الكرام الأطهار، ومن تبعهم واقتفى أثرهم ما تعاقب الليل والنهار، أما بعد:

فإن الصوم في الإسلام تكليفٌ إلهيٌّ، صادرٌ عن الرب الذي له بمقتضى ربوبيته وألوهيته، أن يكلف عبادَه بما شاء من التكاليف، وأن يشرعَ لهم ما يريد من الشرائع والعبادات؛ فهو تكليفٌ إلهيٌّ كسائر التكاليف الشرعية التي تظهر بها ربوبيةُ الرب، وعبوديةُ العبد؛فيكفي في الحث على الصيام، والدعوةِ إليه أن نقول للمسلم: إن الله يأمرك بالصيام، دون ذكرٍ لفوائد الصيام، أو بحثٍ في أسراره.

وليس معنى ذلك أنه لا يترتب على العبادات شيءٌ من الآثار النافعة المفيدة، ولا شيءٍ من الأسرار العظيمة البديعة، كلا! فإن لها آثاراً نشهدها ونراها، وندركها بعقولنا؛ ولكن لا يصلح لنا أن نقطع بأنها هي الغرضُ من التشريع، أو المقصود من التكليف، وإنما هي آثارٌ تابعةٌ للعبادة، يزداد بها إقبال النفوس عليها قوة إلى قوة.

والحكمة الجامعة من تشريع الصيام بيّنها الله-عز وجل-في كتابه فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾

فالحكمة من تشريع الصيام-إذاً-هي التقوى.

وما برح الناسُ في كل عصرٍ يرون من فوائد التشريع ما يتفق مع تفكيرهم ومنطقهم ومصالحهم، وهذا دليل على أن وراء هذا التشريع خالقاً عظيماً، مدبراً

حكيماً، ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

هذا وإن من الأسرار، والفوائد التي ينطوي عليها الصوم حصولَ الصحة العامة؛ فإن للصوم فوائدَ لا تحصى على صحة الأبدان، خصوصاً إذا اتَّبع الصائمُ النهجَ السليمَ في صيامه، وذلك من ناحية الاعتدال في مطعمه ومشربه، فللصوم تأثيرٌ عجيبٌ في حفظ الجوارح الظاهرة، والقوى الباطنة، وحِمْيَتِها عن التخليط الجالبِ لها الموادَّ الفاسدة، التي إذا استولت عليها أفسدَتْها، واستفراغُ الموادِّ الرديئة المانعةِ لها من صحتها.

ولقد أطنب الأطباء في ذكر فوائد الصوم، ومما قالوه في هذا الصدد: أن الصوم ينفي الفضلاتِ المتعفِّنةَ من المعدة والأمعاء، ويريحُ جهازَ الهضم بعض الوقت من عناء العمل؛ فليس لبعض الأمراض من علاج إلا الحِمْيَةُ، وهل الصوم إلا نوعٌ من الحمية؟ بل فوق الحمية؛ فالمصاب بالتهاب الأمعاء المزمنة والتهاب القولون المزمن، يستفيد من الصوم كثيراً.

والمصاب بقصور كبدي، يستفيد من الصوم إذا اعتدل في إفطاره، وفي بعض حالات التحسس يستفيد المريض من الصيام، ويساعده تنظيم الأغذية والاعتدال فيها على ذهاب كثير من أعراض التحسس؛ إذ إن إراحة الجهاز الهضمي أمرٌ أساس، للخلاص من حالات «الحكَّة» التي تنبع من بعض الأغذية.

ثم إن للصوم فائدةً عظيمة على الجهاز العصبي.

يقول الدكتور محمد محمد أبو شوك في مقال له بعنوان «الصوم والجهاز العصبي»، يقول: «روحانيةُ الصومِ، وما تفيضُه من صفاءِ النفس، وتهذيب الروح، والصبرِ على احتمال المشاق، والعطفِ على الفقراء والمحتاجين، والبعدِ عن التردي في

الشهوات وما تجرُّه على الفرد من ويلات، وتزكية النفس بالأخلاق الفاضلة من صدقٍ في المعاملة، وأمانةٍ في تأدية العمل، والبعد عن الغضب، والانتقام، ونقاءِ النفس من الحقد والحسد، والبغضِ للناس؛ كل هذا يُضْفي على النفس البشريةِ روحَ السلام، والمودة، والمحبة، والصفاء التي بدورها تؤثر على الجهاز العصبي للإنسان، والذي يهدأ الجسم لهدوئه، ويثور لثورته.

وبثورة الجهاز العصبي، تثور باقي الأجهزة، التي تحفظ للجسم كيانه.

فيا لها من حكمةٍ إلهيةٍ تجعل الصائم -حقاً- مَلِكاً في صورة إنسان؛ ليسعد بحياته، ويسعد به الآخرون».

إلى أن يقول: «فإلى من يترددون على عيادات الأطباء؛ طلباً لدواء يذهب عنهم التوتر العصبي، والإنهاك العصبيِّ، والأرقَ، والكآبةَ، وغيرَها من الأمراض، التي تذهب بالعقول: هاكم رمضان، لو تمسكتم بروحانيته، وما يضفيه على نفوسكم من خير، لما احتجتم في يوم من الأيام، إلى ما لا نهاية له من علاج ودواء» انتهى كلامه.

أيها الصائمون الكرام: كثيراً ما تطالعنا الصحف، والمجلات، والدوريات بالمزيد من البحوث التي تكشف عن فوائد جديدةٍ للصوم على صحة الأبدان.

ومما يؤخذ من كلام الأطباء حول فوائد الصوم -زيادة على ما مضى- أن الصوم يفيد في أنواع من الأمراض، كالسمنة؛ فهو مفيد في تخفيف الوزن بأسرع وقت، وأيسر طريقة.

والصومُ مفيدٌ في ارتفاع الضغط الشرياني، وفي التهاب الكُلَى الحادِّ، والحصواتِ البولية، وفي أمراض الكبد، وحويصلة الصفراء من التهابات وحصوات.

وهو مفيدٌ في أمراض القلب المزمنة التي تصحب البدانة والضغط العالي.

ومفيدٌ في اضطراباتِ المعدةِ المصحوبةِ بتخمُّر المواد الزلالية والنشوية.

وهو مفيد في علاج الاضطرابات النفسية والعاطفية.

ومفيد في زيادة النشاط، وإبطاء السير نحو الشيخوخة.

ولقد ثبتت فوائد الصوم الصحية حتى عند غير المسلمين من الأوربيين والأمريكان وغيرهم؛ فألفوا في ذلك الكتب، وأنشأوا المصحات التي تعالج روادَها بالصيام، وظهرت لهم نتائجُ باهرةٌ تم فيها علاجُ أمراضٍ مستعصية بالصيام.

يقول بعضُ أطباءِ الإفرنج: إن صيامَ شهرٍ واحدٍ في السنة يذهب بالفضلات الميتة في البدن مدةَ سنة.

ومن أشهر المؤلفين في فوائد الصيام الصحية العالم الأمريكي «ماك فادن» زعيمُ الثقافةِ البدنية في أمريكا، وهو من علماء الصحة الكبار؛ حيث أسس مَصَحًّا كبيراً مشهوراً بالولايات المتحدة سماه باسمه، وألف كتاب «الصيام» بعد أن ظهرت له نتائجُ عظيمةٌ من أثر الصيام في القضاء على الأمراض المستعصية.

وقد قال ماك فادن وغيره: إن الصوم نافعٌ للجسم، يصفّيه من رواسب السموم، التي تشتمل عليها الأغذية والأدوية.

أما الأمراض التي عالجها بالصيام فيقول: إنه عالج بالصيام أكثر الأمراض.

وذكر أن انتفاع المرضى بالصوم يتفاوت حسب أمراضهم، فأكثر الأمراض تأثراً بالصوم أمراض المعدة، قال: إن الصوم يسارع في شفائها، ويرى المعالِجَ به العجبَ العجابَ، وتليها أمراضُ الدم، ثم أمراضُ العروق كالروماتيزم.

وقد ذكر ماك فادن الأشخاصَ الذين عالجهم بالصوم، وذكر أسماءهم، وأمراضَهم، وتواريخَ علاجهم.

ويقول هذا المؤلف ـ أيضاً ـ: إن كل إنسان يحتاج إلى أن يصوم، وكذلك أي مريض؛ فإن الأغذية والأدوية تجتمع في الجسم، فتجعله كالمريض، بحيث تثقله،

وتقلل نشاطه فإذا صام خفَّ وزنُه، وتحللت هذه السموم من جسمه بعد أن كانت مجتمعة، فتذهب عنه، حتى يصفو تماماً.

ولقد أطنب هذا الرجل في وصف الفوائد التي يجنيها الصائم من صومه، وأخبر عن نفسه أنه صام مراراً كثيرة؛ لتجديد قواه، ووجد لذلك فوائد ما كان ليجدها بدون الصيام، ولذلك ينصح الناس جميعاً بالصيام، وتؤثر عنه العبارة المشهورة: «الصوم سبب للشفاء من كل علة خابت في علاجها الوسائل الأخرى».

ومن أساطين الطب والتربية في العصر الحديث الذين استخدموا الصوم الدكتور آلان كوت، حيث استخدم الصوم في علاج السكر، والنِّقْرس.

وكذلك الدكتوركارلسون؛ حيث كانت وسيلته في تجديد الصحة، والدكتور جيننجز الذي كان يصفه في الحالات المرضية التي كانت تعرض له.

وكذلك الدكتور رويرت بارتول، وهو طبيب أمريكي من أنصار العلاج الدوائي للزهري، حيث كتب يقول: «لا شك في أن الصوم من الوسائل الفعالة في التخلص من الميكرويات، ومن بينها ميكروب الزهري، لما يتضمنه من إتلاف الخلايا، ثم إعادة بنائها من جديد، وتلك نظرية التجويع في علاج الزهري».

أيها الصائمون الكرام: هذه بعض فوائد الصوم الصحية، وتلك بعض أقوال أهل الاختصاص في ذلك حتى من غير المسلمين، فسبحان الكبير المتعال؛ الذي تظهر آياته في كل حين وآن، ولا تنقضي عجائب دينه ما تعاقب الملوان ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وسلام على المرسلين، وصلى الله على نبينا محمد.

الدرس العاشر

رمضان شهر القرآن

حمداً لمن أنزل القرآن المجيد في أفصح لسان، وعلمنا كيف ندفع الشبهة بالحجة والبرهان، وصلاةً وسلاماً على نبينا محمد الذي أنشأه الله في حصن من العصمة، وأرسله إلى جميع الناس هداية ورحمة، وعلى آله النبلاء، وأصحابه الأجلاء، وكل من جاهد في الحق على سواء، ولم يتخذ من المضلين أولياء، أما بعد:

فإن القرآن الكريم: كلام الله، ورسالته الأخيرة للبشرية، وهو آخر الكتب السماوية، وخاتَمها، وأطولُها، وأشملها؛ فيه نبأ السابقين، وخبر اللاحقين، وفيه الحُكْم، والحِكمة، والأحكام.

والقرآن الكريم: هو المهيمن على الكتب السابقة، والحكَم عليها؛فما شهد له بالصدق فهو المقبول، وما حكم عليه بالرد فهو مردود قد دخله التحريف والتبديل.

والقرآنُ محفوظٌ من الزيادة والنقص، والتحريف والتبديل؛ فلقد أنزله الله وتكفل بحفظه، قال -عز وجل- : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾.

والقرآن جاء في الذروة من البلاغة والإعجاز؛فهو معجزٌ في لفظه ومعناه، معجزٌ في إخباره عن الغيوب السابقة واللاحقة؛ معجزٌ في حِكَمِه وأحكامه وكلِّ ما جاء به.

بل هو معجز في تأثيره في القلوب؛ فما يسمعه أحد وهو مُلْقٍ سمعَه إلا ويأخذ بمجامع قلبه، ويستحوذ على نياط فؤاده؛ فتشهد كلُّ ذرة في كيان جسده: أن هذا كلام رب العالمين الذي تَنَزَّه عن شوائب اللبس وخَلُصَ من أكدار الشبهات، وتجافى عن مضاجع القلق، وبَرِىء من وَصْمَة التعقيد، وسَلِمَ من معرَّة اللغو والخطأ.

والقرآنُ الكريمُ مشتملٌ على أعدل الأحكام، وأعظمها، وأشرفها، وأشملها، فلم يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا وأحاط بها إجمالاً وتفصيلاً، يشهد بذلك كلُّ منصف

ولو لم يكن مسلماً.

ومن خصائص القرآن الكريم: أن قارئه لا يَمَلُّ قراءته، وأن سامعه لا يسأمه، ولا يمجّه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديدُه يوجب له محبةً، وغيرُه من الكلام يُعادىَ إذا أعيد، ويُملُّ من كثرة الترديد.

ورحم الله الإمام الشاطبي إذ يقول:

وإنَّ كِـتَـابَ اللهِ أوثَقُ شَافعٍ	وأغنى غَناءًا واهباً مُتَفَضِّلا
وخـيرُ جليسٍ لا يُمَلُّ حديثُهُ	وتَرْدَادُه يزدادُ فيه تَجَمُّلا
فيـا أيُّهَا القَارِي بهِ مُتمسِّكاً	مُجِلاً له في كلِّ حالٍ مُبَجِّلا
هنيئاً مريئاً والـداكَ عليهِمـا	مَلابسُ أنوارٍ مِن التَّاجِ والحُلى

هذا القرآن هو: طريق السعادة، وسبيل العزة للفرد والأمة، قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾، وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾، وقال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

القرآن الكريم: نور الصدور، وجلاء الهم والغم، وفرح الفؤاد، وقرة العين.

وكتابُ ربِّك إن في نفحاتِه	مِن كلِّ خيرٍ فوقَ ما يُتَوقَّعُ
نورُ الوجودِ وأنسُ كلِّ مُرَوَّعٍ	بكروبِه ضاق الفضاءُ الأوسعُ
والعاكفون عليه هم جلساءُ مَنْ	لجلاله كلُّ العوالم تخشعُ
فادفن همومَك في ظِلال بيانِهِ	تَحْلُ الحـياةُ وتطمئنَّ الأضلعُ
فبكـل حرفٍ من عجائب وحيه	نبأٌ يبشر أو نذيرٌ يقرعُ

القرآن الكريم: حبل الله المتين، وصراطُه المستقيم، سمّاه الله نوراً وتبياناً،

وموعظة ورحمةً، وشفاءً لما في الصدور، لا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلَقُ عنه كثرة الردّ، لا يعوجّ فيقوَّم، ولا يزيغ فيُستعتَب، فيه القصص العجيبة، ودلائل التوحيد والنبوة، فيه المواعظ الحسنة، وفيه البراهين الجلية القاطعة، التي تسبق إلى الأفهام ببادئ الرأي، وأول النظر، ويشترك كافةُ الخلق في إدراكها؛ فهو مثل الغذاء ينتفع به كلُّ إنسان، بل كالماء الذي ينتفع به الصبي، والرضيع، والرجل القوي والضعيف.

في القرآن حثٌّ على كل خلق جميل، وفيه التنفير من كل خلق ساقط رذيل ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

هذا القرآن: هو الذي أحرزت به الأمةُ السعادةَ، وهو الذي اجتثَّ منها عروقَ الذِّلة والاستكانة، وهو الذي رباها وأدَّبها، فزكَّى منها النفوسَ، وصفَّى القرائحَ، وأذكى الفِطَنَ، وجلا المواهبَ، وأعلا الهممَ، وأرهف الحسَّ، وقوّى العزائم، واستثار العقـول.

وهو الذي غرس الإيمان في الأفئدة، وملأ القلوبَ بالرحمة، وحفز الأيديَ للعملِ النافعِ، والأرجلَ للسعيِ المثمرِ، ثم ساق تلك القوى ـ على ما في الأرض من شرٍّ وباطلٍ وفسادٍ ـ فطهرها منه تطهيراً، وعمَّرها بالحق والإصلاح تعميراً.

هذا القرآن: هو الذي أنار العقول بالنور الإلهي؛ فأصبحت كشافةً عن الحقائق العليا، وطهَّر النفوس من أدران السقوط والإسفاف؛ فأصبحت نزاعةً إلى المعالي، مُقْدِمَةً على العظائم.

وبهذه الروح القرآنية اندفعت تلك النفوس بأصحابها تفتحُ الآذانَ قبل البلدان، وتمتلك بالعدل، والإحسانِ الأرواحَ قبل الأشباح.

هذا القرآن: هو الذي أخرج الله به من رعاة الغنم رعاةَ الأمم، ومن خمول الجهل أعلام الحكمة والعدل والعلم.

الله أكبر إن دينَ محمدٍ وكتابه أقوى وأقومُ قِيلا
طلعت به شمسُ الهدايةِ للورى وأبى لها وصفُ الكمال أُفولا
والحقُّ أبلجُ في شريعته التي جمعت فروعاً للهدى وأصولا
لا تذكر الكتب السوالف عنده طلع الصباحُ فأطفئوا القِنديلا

أيها الصائمون الكرام: هذا هو القرآن، وها نحن في شهر القرآن، قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾

فقوله -عز وجل-: ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ يحتمل عدة معانٍ تدور حول هذا الشهر، ومَيْزةِ إنزال القرآن فيه:

-فقد يكون المرادُ إنزالَ القرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا في رمضان، كما جاء ذلك عن ابن عباس -رضي الله عنهما-.

-وقد يكون المرادُ أن ابتداءَ إنزالِ القرآن على محمد ﷺ كان في شهر رمضان.

-وقد يكون المراد أن القرآن قد نزل في مدح رمضان، والثناء عليه، والتنويه بشأنه.

معاشر الصائمين: ما أحرانا في هذا الشهر أن نجدد العهد بالقرآن، وأن نكثر من تلاوته وتدبره، وعقله، والتخلّق بأخلاقه، والامتثال بأوامره، والانتهاء عن نواهيه، وأن يكون ذلك دأباً لنا في بقية أعمارنا؛ لنسعد في دنيانا وآخرتنا، ولِننال الثواب الجزيل من ربنا -عز وجل-.

ولقد تظاهرت الأدلة من الكتاب والسنة في فضل تلاوة القرآن الكريم؛ فالله -عز وجل- أمر بتلاوة كتابه، وبين أن هذا هو دَأْبُ الصالحين، فقال -عز وجل-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ

شَكُورٌ﴾.

وعن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: «من قرأ حرفاً من كتاب الله؛ فله بكل حرف حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» رواه الترمذي وهو حديث صحيح.

وعن أبي أمامة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «اقرؤا القرآن؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه» رواه مسلم.

فقراءة القرآن خير وأجر وبركة في كل وقت، وهي في رمضان أعظم وأكبر.

ولقد كان جبريل -عليه السلام- يأتي النبي ﷺ في رمضان؛ فيدارسه القرآن كل ليلة، كما في الصحيحين عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: «كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس، وكان أجودَ ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلَرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة».

وفي العام الذي تُوفي فيه رسول الله ﷺ عارضه جبريل القرآن مرتين، رواه البخاري.

فيا لسعادة من أحب القرآن، وأقبل عليه تعلماً، وتعليماً، وتلاوة، وبذلاً، وعملاً لأجل نشره، والدعوة إليه؛ فيا لسعادة ذلك، ويا لعزته في الدنيا والآخرة، ويالِحرمان من حُرم ذلك الخير، وصُدّ عن ذلك النور.

اللهم اجعلنا من أهل القرآن، الذين هم أهلك، وخاصتك، واجعلنا مفاتيح للخير، مغاليق للشر، مباركين أينما كنا.

وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد.

❖❖❖

الدرس الحادي عشر
رمضان شهر الصلة (١)

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإن رمضان شهر البر والصلة، وشهر التعاطف والمرحمة، فالقلوب تلين لذكر الله، والنفوس تستجيب لداعي الله، فلا ترى من جرَّاء ذلك إلا أعمالاً زاكيات، وقرباً من ربّ الأرض والسماوات.

ولعل الحديث ههنا يدور حول صلة الرحم، وفضلها، والأمور المعينة عليها، لعل نفوسنا تنبعث إلى الصلة، وإلى مزيد منها، وتُقْصِر عن القطيعة، وتنأى عن أسبابها.

أيها الصائمون الكرام: لقد تظاهرت نصوص الشرع في عظم شأن الصلة، وفضلها، والتحذير من قطيعتها، قال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾.

وقال ـ عز وجل ـ: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾.

وقال النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة قاطع» رواه البخاري ومسلم، وقال سفيان في روايته: «يعني: قاطع رحم».

وقال ﷺ: «من سره أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره فليصل رحمه» متفق عليه.

وقال ﷺ: «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك، قالت: بلى: قال فذلكِ لكِ» رواه البخاري ومسلم.

وهكذا يتبين لنا عظمُ شأن الصلة وأنها شعار الإيمان بالله واليوم الآخر، وأنها سبب في بسط الرزق وطول العمر، وأنها تجلب صلةَ الله للواصل.

ثم إنها من أعظم أسباب دخول الجنة، وهي من أسباب تيسير الحساب، وتكفير الذنوب، وتعمير الديار، ودفعِ ميتة السوء.

وهي مما اتفقت عليه الشرائعُ السماوية، وأقرته الفطرُ السوية، كما أنها دليل على كرم النفس، وسعة الأفق، وطيب المنبت، وحسن الوفاء.

وصلة الرحم مدعاةٌ لرفعةِ الواصل، وسببٌ للذكر الجميل، وموجبةٌ لشيوع المحبة، وعزة المتواصلين.

أيها الصائمون: صلةُ الأرحامِ ضدُّ القطيعة، وهي كنايةٌ عن الإحسان للأقربين من ذوي النسب، والأصهار.

وتكون بزيارتهم، وتَفَقُّدِ أحوالهم، والسؤالِ عنهم، والإهداءِ إليهم، والتصدق على فقيرهم، والتلطفِ مع وجيههم وغنيهم، وتوقيرِ كبيرهم، ورحمةِ صغيرهم.

وتكون باستضافتهم، وحسن استقبالهم، وإعزازهم، ومشاركتهم في أفراحهم، ومواساتهم في أتراحهم.

وتكون الصلة بالدعاء للأرحام، وسلامة الصدر لهم، والحرص على نصحهم، ودعوتهم إلى الخير، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وإصلاح ذات البين إذا فسدت.

وهذه الصلة تستمر إذا كانت الرحم صالحةً مستقيمةً أو مستورةً.

أما إذا كانت الرحمُ كافرةً أو فاسقةً فتكون بالعِظَةِ والتذكير، وبذل الجهد في ذلك.

فإذا أعيته الحيلة في هدايتهم كأن يرى منهم عناداً، أو استكباراً، أو أن يخاف على نفسه أن يتردى معهم، ويهوي في حضيضهم ـ فَلْينأ عنهم، وليهجرْهُمُ الهجرَ

الجميل الذي لا أذى فيه بوجه من الوجوه، وليكثرْ من الدعاء لهم بالهداية.

وإن صادف منهم غرة، أو سنحت له لدعوتهم فرصةٌ فليُقْدِمْ، وليُعِدْ الكرَّة بعد الكرة.

أيها الصائمون: ومع عظم شأن الصلة إلا أن كثيراً من الناس مضيعون لهذا الحق، مفرِّطون فيه؛فمن الناس من لا يعرف قرابَته بصِلة لا بالمال، ولا بالجاه، ولا بالخلق، تمضي الشهور، وربما الأعوام وهو ما قام بزيارتهم، ولا تودد إليهم بصلة أو هدية، ولا دفع عنهم حاجة أو ضرورة أو أذية، بل ربما أساء إليهم، وأغلظ في القول لهم.

ومن الناس من لا يشارك أقاربَه في أفراحهم، ولا يواسيهم في أتراحهم، ولا يتصدق على فقرائهم، بل تجده يقدم عليهم الأباعدَ في الصِّلات والصدقات.

ومِنَ الناس مَنْ يصل أقاربَهُ إن وصلوه، ويقطعهم إن قطعوه، وهذا -في الحقيقة- ليس بواصل، وإنما هو مكافئٌ للمعروف بمثله، وهو حاصل للقريب وغيره، والواصلُ -حقيقة- هو الذي يتقي الله في أقاربه، فيصلهم لله سواء وصلوه أو قطعوه.

ومن مظاهر القطيعة: أن تجد بعض الناس-ممن آتاه الله علماً ودعوة-يحرص على دعوة الأبعدين، ويغفل أو يتغافل عن دعوة الأقربين، وهذا لا ينبغي؛ فالأقربون أولى بالمعروف قال الله -عز وجل- : ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾.

وإذا أنعمنا النظر في أسباب قطيعة الأرحام وجدنا أنها تحدث لأسباب عديدة تحمل على القطيعة.

فمن تلك الأسباب: الجهلُ بعواقب القطيعة، والجهل بفضائل الصلة.

ومنها ضعفُ التقوى، والكبرُ، فبعضُ الناس إذا نال منصباً رفيعاً، أو حاز مكانة عالية، أو كان تاجراً، أو مشهوراً تكبر على أقاربه، وأَنِفَ من زيارتهم، والتودد إليهم.

ومن أسباب القطيعة: الانقطاعُ الطويلُ الذي يقود إلى الوحشة، واعتياد القطيعة.

ومنها: العتابُ الشديدُ، فبعضُ الناس إذا زاره أحدٌ من أقاربه؛ أمطر عليه وابلاً من التقريع والعتاب على تقصيره في حقه، وإبطائه في المجيء إليه؛ ومن هنا تحصل النفرة من ذلك الشخص، وتُوجَد الهيبةُ من المجيء إليه.

ومن أسباب القطيعة: التكلفُ الزائدُ، فهناك مِنَ الناس مَنْ إذا زاره أقاربه تكلَّف لهم أكثر من اللازم، وخسر الأموالَ الطائلةَ، وقد يكون ـ مع ذلك ـ قليلَ ذاتِ اليد.

ومن هنا تجد أن أقاربه يُقْصِرُون عن المجيء إليه، خوفاً من إيقاعه في الحرج.

وفي مقابل ذلك تجدُ مَنْ إذا زاره أقاربُه لم يهتمَّ بهم، ولم يصغ لحديثهم، وتراه لا يفرح بمقدمهم، ولا يستقبلهم إلا بكل تثاقل وبرود؛ مما يقلل رغبتهم في زيارته.

ومن الأسبابِ الحاملةِ على القطيعةِ: الشحُّ والبخلُ، فمن الناس من إذا رزقه الله مالاً أو جاهاً بَعُد من أقاربه، حتى لا يرهقوه بطلباتهم المتنوعة.

و من أعظم أسباب القطيعة: تأخيرُ قِسْمَةِ الميراث؛ فقد يكون بين الأقارب ميراثٌ لم يقسم، إما تكاسلاً منهم، أو قلةَ وفاقٍ فيما بينهم، وكلما تأخر قسم الميراث شاعت العداوة، وكثرت المشكلات، وزاد سوءُ الظن، وحلَّت القطيعة.

ومن أسباب القطيعة: الشركة بين الأقارب؛ فكثيراً ما يشترك الإخوة أو غيرهم من الأقارب في مشروع أو شركة ما، دون أن يتفقوا على أسس ثابتة، ودون أن تقوم الشركة على الوضوح والصراحة، بل تقوم على المجاملة، والحياء، وإحسان الظن.

فإذا زاد الإنتاج، واتسعت دائرة العمل؛ دب الخلافُ، وساد البغي، ونـزغ الشيطان، وحدث سوءُ الظن خصوصاً إذا كانوا من قليلي التقوى والإيثار، أو كان

بعضهم مستبداً برأيه، أو كان أحد الأطراف أكثرَ جدية من صاحبه.

ومن هنا تسوء العلاقة، وتحل الفرقة، وربما وصلت بهم الحال إلى الخصومات في المحاكم؛ فيصبحون سُبَّةً لغيرهم ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾.

ومن أسباب القطيعة: الاشتغالُ بالدنيا، والطلاقُ بين الأقارب إذا لم يكن بإحسان، وبعدُ المسافة، والتكاسلُ عن الزيارة.

وقد يكون التقاربُ في المساكن بين الأقارب مسبباً للقطيعة بسبب ما يكون من التزاحم على الحقوق، وبسبب ما يحدث بين الأولاد من مشكلات قد تنتقل إلى الوالدين.

ومن الأسبابِ الحاملةِ على القطيعة: قلةُ التحمُّل، وقلةُ الصبرِ على الأقارب، ونسيانُهم في الولائم والمناسبات، فقد يُفَسَّر هذا النسيانُ بأنه تجاهلٌ واحتقار، فيقود ذلك الظن إلى الصرم والهجر.

أيها الصائمون: هذه بعضُ الأسبابِ التي تؤدي إلى قطيعة الأرحام، أما الحديث عن الأمور المعينة على الصلة، فسيكون غداً -إن شاء الله- والله المستعان، وعليه التكلان، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.



الدرس الثاني عشر رمضان شهر الصلة (٢)

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

فقد مر بنا -سالفاً- حديث عن صلة الرحم وفضلها، وعن قطيعة الرحم، وصورها، والأسباب الحاملة عليها.

والحديث ههنا إكمال لما مضى، حيث سيدور حول الأسباب المعينة على صلة الرحم؛ فهناك آداب يجدر بنا سلوكها مع الأقارب، وهناك أمور تعين على الصلة.

فمن ذلك: التفكرُ في الآثار المترتبة على الصلة؛ فإن معرفَة ثمراتِ الأشياء، واستحضارَ حُسْنِ عواقبها من أكبر الدواعي إلى فعلها، وتَمثُّلها، والسعي إليها.

وكذلك النظرُ في عواقب القطيعة، وتأمُلُ ما تجلبه من همٍّ، وغمٍّ، وحسرةٍ، وندامة، ونحوِ ذلك، فهذا مما يعين على اجتنابها، والبعد عنها.

ومما يعين على الصلة: الاستعانةُ بالله، وسؤالُه التوفيقَ، والإعانةَ على صلة الأرحام.

ومما يحسن سلوكه مع الأقارب: مقابلةُ إساءتهم بالإحسان، فهذا مما يبقي على الود، ويحفظ ما بين الأقارب من العهد، ويهون على الإنسان ما يلقاه من شراسة الأقارب؛ ولهذا أتى رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي قرابةً أصِلُهم ويقطعونني، وأُحْسِنُ إليهم ويسيئون إليّ، وأَحْلُم عنهم ويجهلون عليّ.

قال: «لئن كنت كما قلت؛ فكأنما تسفهم الملّ» رواه مسلم.

قال الإمام النووي رحمه الله في شرح الحديث: «وهو تشبيه لما يلحقهم من الألم بما يلحق آكلَ الرماد الحار من الألم، ولا شيء على هذا المحسن، بل ينالهم الإثمُ العظيمُ

في قطيعتهِ، وإدخالِهم الأذى عليه.

وقيل معناه: إنك بالإحسان إليهم تخزيهم، وتحقِّرهم في أنفسهم؛ لكثرة إحسانك، وقبيح فعلهم من الخزي والحقارة عند أنفسهم كمن يسف الملّ.

وقيل :ذلك الذي يأكلونه من إحسانك كالمل يحرق أحشاءهم؛والله أعلم» أ-هـ.

فهذا الحديث عزاءُ لكثير من الناس ممن ابتلوا بأقارب شرسين، يقابلون الإحسانَ بالإساءة، وفيه تشجيعٌ للمحسنين على أن يستمروا على طريقتهم المثلى؛ فإن الله معهم، وهو مؤيدهم، وناصرهم، ومثيبهم.

ومن جميل ما قيل في هذا المعنى قولُ المقنّعِ الكنديِّ يصف حالَه مع قرابته:

وإن الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عمِّي لَمُختلفٌ جِدًّا
إذا قدحوا لي نارَ حربٍ بزندهم ... قدحت لهم في كلِّ مكرمةٍ زندا
وإن أكلوا لحمي وَفَرْتُ لحومَهُمْ ... وإن هدموا مجدي بنيتُ لهم مجدا
ولا أَحْمِلُ الحقدَ القديمَ عليهمُ ... وليس رئيسُ القومِ مَنْ يَحْمِلُ الحقدا
وأعطيهمُ مالي إذا كنت واجداً ... وإن قلّ مالي لم أكلّفْهمُ رِفْدا

ومما يحسن فعله مع الأقارب: أن يقبل الإنسانُ أعذارَهم إذا أخطأوا واعتذروا.

ومن جميل ما يذكر في ذلك ما جرى بين يوسف-عليه السلام-وإخوته، فلقد فعلوا به ما فعلوا، وعندما اعتذروا قَبِلَ عُذْرَهُم، وصَفَحَ عنهم الصفحَ الجميلَ، فلم يقرِّعْهم، ولم يوبِّخْهم، بل دعا لهم، وسأل الله المغفرة لهم.

بل يحسن بالإنسان أن يصفح عن أقاربه، وينسى معايبهم ولو لم يعتذروا، فهذا دليل سمو النفس، وعلو الهمة.

ومن جميل ما يذكر في ذلك قول القائل:

وحَسْبُكَ من ذلٍّ وسوءِ صنيعةٍ ... مناواةُ ذي القربى وإن قيل: قاطعُ

ولكنْ أواسيه وأنسى عيوبَه لِتُرْجِعَهُ يوماً إليَّ الرواجعُ
ولا يستوي في الحكِم عبدانِ: واصلٌ وعبدٌ لأرحامِ القرابةِ قاطعُ

ومما يحبب الإنسان لقرابته، ويدنيه منهم ـ تواضُعُه ولينُ جانبه

مَنْ كان يَحْلُم أن يسودَ عشيرةً فعليه بالتقوى ولينِ الجانب
ويغضَّ طرفاً عن مساوي من أسا منهم ويحلم عند جهل الصاحب

ومما يجمل فِعْلُه مع الأقارب: بذلُ المستطاعِ لهم من الخدمة بالنفس، أو الجاه، أو المال، وأن يدعَ المنةَ عليهم، ومطالبتَهم بالمثل، فالواصل ليس بالمكافئ، والعاقلُ الكريمُ يوطِّن نفسَه على الرضا بالقليل من الأقارب؛ فلا يستوفي حقه كاملاً، بل يقنع بالعفو وباليسير، حتى يستميلَ بذلك قلوب أقاربه، ويُبْقي على مودتهم.

إذا أنت لم تستبق ودّ صحابةٍ على دَخَنٍ أكثرتَ بثَّ المعايبِ

ثم إن الأقارب يختلفون في أحوالهم، وطباعهم، ومنازلهم؛ فمنهم من يرضى بالقليل؛ فتكفيه الزيارةُ السنوية، والمكالمةُ الهاتفية، ومنهم من يرضى بطلاقة الوجه، والصلة بالقول، ومنهم من يعفو عن حقه كاملاً، ويلتمس المعاذير لأرحامه، ومنهم من لا يرضى إلا بالزيارة المستمرة، وبالملاحظة الدائمة؛ فمعاملتهم بهذا المقتضى تعين على الصلة، واستبقاء المودة.

ومما يغري بالصلة تركُ التكلف مع الأقارب، ورفعُ الحرج عنهم، وتجنبُ الشدة في عتابهم، فإذا علموا بذلك عن شخص قريب لهم انبعثوا إلى زيارته، وصلته.

ومن أجملِ الآدابِ التي ينبغي سلوكُها مع الأقارب تَحَمُّلُ عتابِهم، وحَمْلُه على أحسن المحامل، فهذا أدب الفضلاء، ودأب النبلاء ممن تمت مروءتهم، وكملت أخلاقهم، وتناهى سؤددهم، ممن وسِعوا الناس بحلمهم، وحسن تربيتهم، وسعة

أفقهم؛ فإذا عاتبهم أحدٌ من الأقارب، وأغلظ عليهم؛لتقصيرهم في حقه-لم يثرّبوا عليه، ولم يُجاروه في عتابه، بل يتلطفون به، ويحملون عتابه على المحمل الحسن؛ فيرون أن هذا المعاتبَ محبٌّ لهم، حريصٌ على مجيئهم، ويشعرونه بذلك، ويشكرونه، ويعتذرون إليه، حتى تَخِفَّ حِدَّتُه، وتهدأ ثورته؛ فبعضُ الناس يُقَدِّر ويحب، ولكنه لا يستطيعُ التعبيرَ عن ذلك إلا بكثرة اللوم والعتاب.

والكرامُ يحسنون التعامل مع هؤلاء، ولسانُ حالهم يقول: لو أخطأت في حُسْنِ أسلوبك ما أخطأتَ في حسن نيتك.

ومما يَحسن سلوكُه مع الأقارب: أن يعتدل الإنسانُ في مزاحه مع أقاربه، وأن يتجنب الخصامَ، وكثرةَ الملاحاةِ والجدالَ العقيمَ معهم؛ ذلك أن مجالسَ الأقاربِ كثيرةٌ، واجتماعاتِهم عديدةٌ متكررةٌ، واللائق بالعاقل أن يداريَهم، وأن يبتعدَ عن كلِّ ما مِنْ شأنهِ أن يكدرَ صفو الودادِ معهم.

وإذا اشعُرَ بأن واحداً من الأقارب قد حَمَل في نفسه مُوْجِدَةً أو موقفاً -فليبادر إلى الهدية؛ فالهدية تجلب المودة، وتكذِّب سوء الظن، وتستل سخائمَ القلوب.

ومما يعين على الصلة: أن يستحضر الإنسانُ أن أقاربَه لُحْمَةٌ مِنْه؛ فلا بد له منهم، ولا فِكَاكَ لـه عنهم، فعزُّهم عزٌّ له، وذُلُّهم ذلٌّ له، والرابح في معاداة أقاربه خاسر، والمنتصر مهزوم.

ومما يحسن بالإنسان أن يحرص عليه كلَّ الحرص تَذَكُّرُ قراباته في المناسبات والولائم.

ومن الطرق المجدية: أن يسجِّل أسماء أقاربِه، وأرقامَ هواتِفهم، ثم يحفظها عنده؛ حتى يستحضرهم جميعاً، ويتصلَ بهم إما مباشرة، أو عبر الهاتف، أو غير ذلك.

ثم إذا نسي أحداً منهم فليذهبْ إليه، وليعتذرْ منه، ولْيَسْعَ في تطييب قلبه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ومما يحسن بالأقارب: أن يَسْعوا إلى إصلاح ذات البين، إذا فسدت بين بعضهم، وأن تكونَ لهم اجتماعاتٌ دوريةٌ سنويةً كانت أو شهريةً، أو نحو ذلك، وأن يكون هناك دليل خاص، يحتوي على أرقام هواتف القرابة، يقوم بعض الأفراد بإعداده، وطبعه وتوزيعه؛ فهذا الصنيع يعين على الصلة، ويذكر المرء بأقاربه، إذا أراد السلام عليهم، أو دعوتهم.

ومما يحسن فعلُه في هذا الصدد، أن يكون للقرابة صندوقٌ تُجْمَع فيه تبرعاتُ الأقارب واشتراكاتهم، ويشْرِفُ عليه بعض الأفراد، فإذا ما احتاج أحدٌ من الأسرة مالاً لزواج، أو نازلة أو غير ذلك ـ قاموا بدراسة حاله، ورفدوه بما يستحق؛ فهذا مما يولد المحبة بين الأقارب.

ومما يحسن بالأقارب إذا كان بينهم ميراثٌ أن يعجِّلوا قِسْمَتَهُ؛ حتى يأخذ كلُّ واحدٍ نصيبَه، لئلا تكثر المطالباتُ والخصومات، ولأجل أن تكون العلاقةُ بين الأقارب خالصةً صافيةً من المكدارت.

وإذا كان بين بعض الأقارب شَرِكة في أمر ما؛ فليحرصوا كلَّ الحرص على الوئام التام، والاتفاق في كل الأمور، وأن تسودَ بينهم روحُ المودةِ، والإيثار، والشورى، والرحمةِ، والصدقِ، وأن يحبَّ كلُّ واحدٍ منهم لأخيه ما يحبه لنفسه، وأن يعرف كلُّ طرفٍ ما له وما عليه.

كما يحسن بهم أن يناقشوا المشكلاتِ بمنتهى الوضوح، والصراحة بعيداً عن المجاملة والمراوغة، والمواربة، وأن يحرصوا على الإخلاص في العمل، وأن يتغاضى كلٌّ منهم عن صاحبه.

ويجمل بهم أن يكتبوا ما يتفقون عليه، فإذا كانت هذه حَالَهم أيسَ الشيطان منهم، وسادت بينهم المودة، ونـزلت عليهم الرحمة، وحلَّت عليهم بركات الشركة.

وأخيراً: يراعى في صلة الأرحام أن تكون الصلةُ قربةً لله، خالصة لوجهه الكريم، وأن تكون تعاوناً على البر والتقوى، لا يقصد بها حمية الجاهلية.

اللهم اجعلنا من الواصلين، وأعذنا من القطيعة يا رب العالمين.

وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الثاني عشر رمضان شهر التوبة

الحمد لله غافر الذنب، وقابل التوب شديد العقاب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وهو الكريم الوهاب، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله والأصحاب، أما بعد:

فإن التوبةَ وظيفةُ العمرِ، وبدايةُ العبدِ ونهايتُه، وأولُ منازلِ العبودية، وأوسطها، وآخرها.

وإنَّ حاجتَنا إلى التوبة ماسّةٌ، بل إنَّ ضرورتنا إليها مُلِحَّة، فنحن نذنب كثيراً، ونفرّط في جنب الله ليلاً ونهاراً؛ فنحتاج إلى ما يصقل القلوبَ، وينقّيها من رَيْن المعاصي والذنوب.

أيها الصائمون الكرام: التوبة هي: تركُ الذنبِ علماً بقبحه، وندماً على فعله، وعزماً على ألا يعود التائبُ إليه إذا قدر، وتداركاً لما يمكن تداركُه من الأعمال، وأداءًا لما ضيع من الفرائض؛ إخلاصاً لله، ورجاءًا لثوابه، وخوفاً من عقابه، وأن يكون ذلك قبل الغرغرة، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

أيها الصائمون الكرام: لقد فتح الله ـ بمنّه وكرمه ـ بابَ التوبة؛ حيث أمر بها، ووعد بقبولها مهما عظُمت الذنوب.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾.

وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾.

وقال: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

وقال في شأن النصارى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ثم قال - جلّت قدرته - محرضاً لهم على التوبة: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وقال في حق أصحاب الأخدود الذين حفروا الحُفَر لتعذيب المؤمنين وتحريقهم بالنار: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾.

قال الحسن البصري رحمه الله: «انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة». اهـ.

بل إنه - عز وجل - حذّر من القنوط من رحمته فقال: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «من آيس عبادَ الله من التوبة بعد هذا؛ فقد جحد كتاب الله - عز وجل -».

أما فضائلُ التوبةِ وأسرارُها، وبركاتُها - فمتعددةٌ، متنوعةٌ، متشعبةٌ؛ فالتوبة سبب الفلاح، وطريق السعادة، وبالتوبة تكَفَّر السيئات، وإذا حسُنت بدّل الله سيئاتِ صاحِبها حسنات.

وعبوديةُ التوبةِ من أحبِّ العبوديات إلى الله، والله - تبارك وتعالى - يفرح بتوبة

التائبين قال النبي ﷺ: «للهُ أفرحُ بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً، وبه مهلكة، ومعه راحلتُه عليها طعامُه وشرابُه، فوضع رأسَهُ، فنام نومةً، ثم رفع رأسَهُ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلتُه؛ حتى اشتد عليه الحرُّ والعطشُ، أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكاني، فرجع، فنام نومةً، ثم رفع رأسه؛ فإذا راحلتُه عنده» رواه البخاري ومسلم.

ولم يجيء هذا الفرحُ في شيء من الطاعات سوى التوبة، ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيراً عظيماً في حال التائب وقلبه، ومزيدُ هذا الفرح لا يعبر عنه.

ومن فضائل التوبة: أنها توجب للتائب آثاراً عجيبة من مقامات العبودية التي لا تحصل بدون التوبة؛ فتوجب له المحبةَ، والرقّةَ، واللطفَ، وشكرَ اللهِ، وحمدَه، والرضا عنه، فَرُتِّب له على ذلك أنواعٌ من النعم لا يهتدي العبد إلى تفاصيلها، بل لا يزال يتقلب في بركتها وآثارها ما لم ينقضْها أو يفسدْها.

ومن تلك الآثار: حصولُ الذل، والانكسار، والخضوعِ لله، وهذا أحب إلى الله من كثير من الأعمال الظاهرة -وإن زادت في القدر والكمية على عبودية التوبة- فالذلُّ، والانكسارُ روحُ العبوديةِ، ولبُّها، ولأجل هذا كان الله -عز وجل- عند المنكسرةِ قلوبُهم، وكان أقربَ ما يكون من العبد وهو ساجد؛ لأنه مقامُ ذلٍّ وانكسار، ولعل هذا هو السرُّ في استجابةِ دعوة المظلوم والمسافر والصائم؛ للكسرة في قلب كل واحد منهم؛ فإن لوعةَ المظلومِ تُحْدِثُ عنده كسرةً في قلبه، وكذلك المسافر يجد في غربته كسرةً في قلبه، وكذلك الصوم، فإنه يكسر سَوْرَةَ النَّفْسِ السَّبُعية الحيوانية كما قرر ذلك ابن القيم رحمه الله.

أيها الصائمون الكرام: ومع عظم شأن التوبة وعظيم بركاتها إلا أن هناك أخطاءً يقع فيها كثير من الناس في باب التوبة؛ وذلك ناتج عن الجهل، أو التفريط، وقلة المبالاة.

وإليكم نبذةً مختصرةً عن تلك الأخطاء على سبيل الإجمال؛ إذ المقام لا يسمح بالإطالة، وذكرِ الأدلة، والتفصيل في الأقوال.

فمن تلك الأخطاء ما يلي:

أولاً: تأجيل التوبة: فيجب على العبد-والحالة هذه- أن يتوب من ذنبه، وأن يتوب من تأجيل التوبة.

ثانياً: الغفلة عن التوبة مما لا يعلمه العبد من ذنوبه: فهناك ذنوبٌ خفيةٌ، وهناك ذنوبٌ يجهل العبد أنها ذنوبٌ، ولا ينجي من ذلك إلا توبةٌ عامةٌ مما يعلمه من ذنوبه ومما لا يعلمه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل» فقال أبو بكر: فكيف الخلاص منه يا رسول الله؟ قال: «أن تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم» رواه البخاري في الأدب المفرد.

ثالثاً: ترك التوبة مخافةَ الرجوع للذنب، أو خوفاً من لمز الناس، أو مخافة سقوط المنـزلة، وذهاب الجاه والشهرة: وهذا خطأ يجب تلافيه؛ فعلى العبد أن يعزم على التوبة، وإذا رجع إلى الذنب فليجدد التوبة مرة أخرى وهكذا، وعليه أن يدرك أنه إذا تاب عوضه الله خيراً مما ترك.

رابعاً: التمادي في الذنوب اعتماداً على سعة رحمة رب العالمين: وهذا خطأ عظيم، فكما أن الله غفور رحيم فإنه شديد العقاب، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

خامساً: توبة الكذابين: الذين يهجرون الذنوب هجراً مؤقتاً لمرض، أو عارض، أو مناسبة أو خوف، أو رجاء جاه، أو خوف سقوطه، أو عدم تمكُّن، فإذا أتتهم الفرصة رجعوا إلى ذنوبهم؛ فهذه توبة الكذابين، وليست بتوبة في الحقيقة.

ولا يدخل في ذلك من تاب، فحدثته نفسه بالمعصية، أو أغواه الشيطان بفعلها ثم فعلها، فندم وتاب؛ فهذه توبة صادقة، كما لا يدخل في ذلك الخطَرَاتُ ما لم تكن فعلاً متحققاً.

سادساً: الاغترار بإمهال الله للمسيئين: وهذا من الجهل، ومما يصد عن التوبة، قال ﷺ: «إذا رأيت الله -عز وجل- يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب؛ فإنما هو استدراج» ثم تلاه قوله -عز وجل-: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ أخرجه أحمد ورجاله ثقات.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «فكلُ ظالمٍ معاقبٌ في العاجل على ظلمه قبل الآجل، وكذلك كلُّ مذنبٍ ذنباً، وهو معنى قوله -تعالى-: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، وربما رأى العاصي سلامة بدنه، فظن أنْ لا عقوبة، وغفلته عما عوقب به عقوبة».

وقال: «الواجبُ على العاقل أن يحذرَ مغبةَ المعاصي؛ فإن نارها تحت الرماد، وربما تأخرت العقوبةُ، وربما جاءت مستعجلة».

وقال: «قد تبغت العقوبات، وقد يؤخرها الحلمُ، والعاقلُ من إذا فعل خطيئةً بادرها بالتوبة، فكم مغرور بإمهال العصاة لم يُمهل».

سابعاً: من الأخطاء في التوبة، اليأس من رحمة الله، واليأس من التوبة: فبعض الناس إذا تمادى في الذنوب، أو تاب مرة أو أكثر ثم رجع إلى الذنب مرة أخرى- أيس من رحمة الله، وهذا خطأ عظيم؛ لأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

اللهم إنا نسألك التوبة النصوح، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد.

الدرس الرابع عشر رمضان شهر القوة

الحمد لله القوي العزيز الجبار، والصلاة والسلام على النبي الكريم المصطفى المختار، وعلى آله وصحبه الأخيار الكرام الأطهار، ومن اتبعهم واقتفى أثرهم ما تعاقب الليل والنهار، أما بعد:

فإن الإسلامَ دينُ القوة؛ فالمؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، والله ـ عز وجل ـ أمرنا بإعداد القوة، وجاء الثناء في القرآن الكريم على القوي الأمين.

وإن من أسرار الصيام، وآثار شهره الكريم أنه يبعث القوة في نفوس الصائمين، وهذا ما سيتبين في ثنايا هذا الحديث إن شاء الله.

أيها الصائمون الكرام: هذه الحياةُ ميدانٌ لا يفوز فيها إلا الأقوياءُ، ونحن في عصر يكاد يكون شعاره:

«إن لم تكن آكلاً فأنت مأكولٌ، وكن قوياً تُحترم».

ثم إن القوةَ ضَربان: قوةٌ ماديةٌ، وقوةٌ معنويةٌ، ومن مبادئ الإسلام أن القوة المادية قد تنتصر، ولكن انتصارها لا يكون طويلاً، ولن يكون مفيداً.

ولقد قص القرآن الكريم علينا فيما قص: أن أمماً كانت قويةً في مظاهر الحياةِ الماديةِ؛ فعاثت في الأرض فساداً، وحاربت أنبياء الله ورسله وأولياءه؛ فكانت عاقبة أمرها خسراً.

وما خبرُ عادٍ وثمودَ وغيرهما من الأمم بغريب على من يقرأ القرآن، ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝ ٱلَّذِينَ

طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾

تلك هي نهايةُ الأمم التي أخذت من القوة المادية بأعلى نصيب، ولكنها خِلْوٌ من القوة الروحية والمعنوية.

وأما القوةُ المعنويةُ وحدها دون سند من القوة المادية -فيقرر الإسلام: أنه لا سبيلَ لها إلى النصر، ولا شأنَ لها في توجيهِ الحياة؛ فسنَنُ اللهِ ماضيةٌ، لا تحابي أحداً كائناً من كان.

لا خيرَ في حقٍّ إذا لم تَحْمِهِ حِلقُ الحديدِ وألسنُ النيرانِ

وقد رأينا أمماً وشعوباً عاشت في التاريخ هضيمةَ الحقِّ، كسيرةَ الجناح، تُسام في ديارها الخسفَ والهوانَ؛ لأنها لم تَسْلُكْ سبلَ القوة؛ فانهزمت أمام الأقوياء.

والسبيلُ الصحيحُ إلى حياة كريمةٍ سعيدةٍ أن تتضافرَ المادةُ مع الروح، على تقويم الإنسان، وبناء معيشته، وأن تُمْسِك الأمَّةُ بجناحين من قوةِ المادة، وقوةِ الروح، لا يطغى أحدهما على الآخر.

ومما أدبنا القرآن به أن أمرنا أن نقول: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.

وكما أوجب علينا القرآن أن نُصَحِّحَ العقيدة، ونهذِّب النفوس، ونسموَ بالروح -أمرنا بأن نُعِدّ القوة إلى أقصى ما نستطيع ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ ﴾.

وكما أمرنا بأن نقيمَ الصلاة، ونؤتيَ الزكاة-وهما من أبرزِ دعائم القوةِ الروحيةِ المعنوية-أمرنا أن نضربَ في الأرض، ونمشي في مناكبها، وألا ننسى نصيبنا من الدنيا.

ومما يقرره الإسلام: أن القوةَ المعنوية مع قليلٍ من القوةِ المادية تغلب القوةَ المادية إذا هي فقدت الوازعَ النفسيَّ، والباعثَ المعنوي، قال الله -عز وجل-:

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وفي معركة بدر أروعُ مثالٍ شاهدٍ على ذلك؛ فالمسلمون الثلاثُمائة الذين انتصروا في بدر كانوا عرباً ككفار قريش الذين بلغ عددُهم في بدر ألفاً، وأولئك أقرباء هؤلاء، ومن بلد واحد، وميزاتٍ واحدة، والسلاحُ الذي في يد الألف أكثرُ وأضر.

ولكن المسلمين كانوا يملكون من قوة العقيدة، وقوةِ الخُلُق، وقوةِ الروح ما لا يملكه أولئك الكفرة؛ فانهزم الكفرةُ، هزيمةً سجلها القرآن كمثلٍ رائع يدل على ما تستطيع القوة المعنوية أن تحرزه من نصر على القوة المادية؛ إذا هي أخذت من قوة السلاح بالمستطاع، ولو كان أدنى نصيب؛ لأنها بذلك تستحق النصر والمدد الإلهي.

وكما ضربَ القرآنُ المثلَ بالأمة التي تجمع بين القوتين؛ فكذلك ضرب مثلاً للفرد الذي يجمع بين القوتين؛ فيُفْلِحُ وينجح بموسى -عليه السلام- حين سقى للفتاتين الماء بقوة عضل وجسم، ومشى معهما إلى أبيهما، لا يرتفع طرفُه إليهما عن حياء وتكرم، وخلق نبيل ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

وضرب القرآن المثل بالأمة، التي تجمع بين القوتين، فتسعد وتنتصر بأمة محمد ﷺ قال -تعالى-: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾، وهذا عنوان القوة المادية ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ وهذا عنوان القوة المعنوية، ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، وهذا ثمرةُ الجمعِ بين القوتين، وأبرزُ عناصر السعادة للأمة التي تجمع بينهما.

والصيامُ الذي فرضه الله على المسلمين؛ يجمع بين القوتين جمعاً رائعاً متلائماً، يؤتي أحسنَ الثمار؛ فهو من الناحية الصحية قوةٌ للجسم، يدفع عنه كثيراً من الأمراض، ويشفيه من كثيرٍ من العلل.

وهو من الناحية المعنوية يعطي المسلم قوىً معنويةً متنوعةً، لها أكبرُ الأثرِ في سعادة الأفراد والجماعات، فيعطيه: قوةَ الصبرِ، وقوةَ النظام، وقوةَ الطاعة، وقوةَ التحملِ، وقوةَ الإيمان.

أترون أمةً من الأمم تتحلى بهذه القوى المعنوية، ثم تجد سبيلها إلى الانهيار؟!

أترون جيشاً يتحلى أفراده بهذه الأخلاق القوية يجد نفسه على عتبة الهزيمة؟!

أترون مجتمعاً تسود فيه هذه الأخلاق، يتطرق الفساد إلى قواعده وأُسُسِه؟!

أترون المسلمين يومَ بدرٍ وقد كانت في السابع عشر من رمضان أترونهم استطاعوا أن يحرزوا هذا النصر لولا أن الله قيَّض لهم هذا الصيام الذي بث فيهم القوة الروحية الكاملة، فجعلهم يخوضون المعركة أقوياء أحراراً؟!

أترون معاركَنا التي انتصرنا فيها في اليرموك، والقادسية، وجلولاءَ، وحطينَ وغيرها، هل كانت تتم بهذه الروعةِ المُعجزةِ، التي لا تزال تذهل كبار الباحثين، في أسرارها لولا أن أهلَها كانوا يتخلَّقون بخلق الصائمين من عفة، وسموٍّ، وتضحية، وتحمّلٍ للشدائد، وخضوعٍ لله، واستعلاءٍ على كل ما سواه؟!!

هل تُراهم يثبتون هذا الثباتَ، لو أنهم خاضوا المعارك بنفوس المنهزمين، الذين تغلبهم شهواتُهم، وتستحوذُ عليهم شياطينُهم، فلا يستطيعون مقاومةَ الجوع والعطش ساعات معدودة؟!

كلا ثم كلا!!

أيها المسلم الصائم: لا تنس وأنت تصوم رمضان، أنهُ يراد منك أن تكون مثالَ

القويُّ الأمين؛ فحذارِ أن ينسلخ عنك رمضان وأنت الضعيفُ الخائن.

وأيها المسلمون الصائمون: لا تنسوا وأنتم تصومون رمضان، أن الله يريد أن تكونوا بالصيام أشداءَ على الكفار رحماءَ بينكم؛ فاحذروا أن ينسلخ الشهر عنكم وأنتم ممن ينطبق عليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾.

اللهم أعز الإسلام والمسلمين، وأذلَّ الشرك والمشركين، وانصر عِبادك الموحدين يارب العالمين، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.



الدرس الخامس عشر رمضان وتربية الأولاد (١)

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فإن رمضان شهرُ التربية، وشهر المحاسبة، وشهر المراجعة.

فالمؤمن يربي نفسه في رمضان، ويربي من تحت يده على الفضائل، ويحاسب نفسه، ويراجع حاله مع ربه، ومع الأمانات التي ائتمنه الله عليها.

وإن من أهم المهمات، وأوجب الواجبات على المؤمن رعايتَه لأولاده، وتربيتَه لهم.

وهذا الشهر الكريم فرصةٌ سانحة يقف الإنسان فيها مع نفسه، وينظر في حاله مع أولاده، فإن كان محسناً حمد الله، وازداد إحساناً، وإن كان مقصراً نزع عن تقصيره، وتدارك ما فاته.

والحديث ههنا سيكون حول تربية الأولاد، ومظاهر التقصير فيها، والسبل المعينة على تربيتهم.

أيها الصائمون الكرام: الأولاد أمانة في أعناق الوالدين، والوالدان مسؤولان عن تلك الأمانة.

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾.

وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

وقال النبي ﷺ :«كلكم راع ومسؤول عن رعيته، فالإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهل بيته ومسئول عن رعيته». رواه البخاري.

وقال :«ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاشٌّ لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة». متفق عليه.

فالبيت هو المدرسة الأولى للأولاد؛ فالولد قبل أن تربيه المدرسة أو المجتمع يربيه البيت والأسرة.

وهو مدين لأبويه في سلوكه الاجتماعي المستقيم، كما أن أبويه مسؤولان إلى حدٍّ كبيرٍ عن انحرافه الخُلقي.

قال ابن القيم رحمه الله :«وكم ممن أشقى ولده، وَفلْذَة كبده في الدنيا والآخرة بإهماله، وتركِ تأديبه، وإعانته على شهواته، ويزعم أنه يكرمه وقد أهانه، وأنه يرحمه وقد ظلمه؛ففاته انتفاعُه بولده، وفوَّت عليه حظَّه في الدنيا والآخرة، وإذا اعتبرت الفساد في الأولاد رأيت عامته من قِبل الآباء». ا.هـ.

أيها الصائمون الكرام: التقصير في تربية الأولاد يأخذ صوراً شتى، ومظاهر عديدة؛ تتسبب في انحراف الأولاد وتمردهم، وإذا تأملت تلك الأنماط الخاطئة في التربية رأيتها ما بين إفراط وتفريط.

فمن الأخطاء في تربية الأولاد: تنشئُتهم على الجبن والهلع والخوف والفزع؛ فذلك يلاحظ على كثير من الناس؛ فتجدهم يخوفون أولادهم إذا بكوا أو أزعجوا؛ ليسكتوا، ويهدأوا؛ فتجد بعض الناس يخوفهم بالغول، أو الحرامي، أو العفريت، أو صوت الريح أو نحو ذلك.

وبعض الناس يخوفهم بالأستاذ، أو الطبيب أو المدرسة.

وإذا جرح الولد أو أصيب بأي مصيبة أخذت الأم تولول، وَتَلطِمُ وجهها،

وتضرب صدرها، وهكذا ينشأ الولد جباناً رِعديداً يَفْرَقُ من ظله، ويخاف مما لا يخاف منه.

ومن الخطأ في التربية ـ أيضاً ـ تربيةُ الأولاد على التهورِّ، وسلاطةِ اللسان، والتطاول على الآخرين، وتسميةِ ذلك شجاعةً، وهذا نقيض الأول، والحق إنما هو في التوسط.

ومن الخطأ في التربية: تربية الأولاد على الميوعة، والفوضى، وتعويدهم على البذخ، والترف، والإغراق في النعيم، وبسط اليد لهم، وإعطائهم ما يريدون.

فمثل هذه التربية تفسد فطرتهم، وتقضي على استقامتهم، ومروءتهم، وشجاعتهم.

وفي مقابل ذلك نجد من الوالدين من يأخذ أولاده بالشدة المتناهية، فتراه يقسو عليهم أكثر من اللازم، فيضربهم ضرباً مبرِّحاً إذا أخطأ ولو للمرة الأولى، ويبالغ في توبيخهم عند كل صغيرة وكبيرة، ويحرمهم من العطف والشفقة والحنان، ويقتِّر عليهم في النفقة؛ فلا ينفق عليهم إلا بشق الأنفس.

وهذا النمط من التربية يفسد الأولاد، ويقضي على إنسانيتهم، ويقودهم إلى البحث عن المال أو العطف خارج المنزل إما: بالسرقة، أو بسؤال الناس، أو الارتماء في أحضان رفقة السوء.

ومن الأخطاء في التربية: أن يقتصر اهتمام بعض الوالدين على المظاهر فحسب؛ فيرى أن التربيةَ مقتصرةٌ على توفير الطعام الطيب، والشراب الهنيء، والكسوة الفخمة، والدراسة المتفوقة، ولا يدخل عندهم تنشئةُ الأولاد على التدين الصادق، والخلق الكريم.

ومن الأخطاء في التربية: المبالغةُ في إحسان الظن بالأولاد؛ فتجد من الوالدين مَن لا يتفقَّد أولادَه، ولا يعرف عن أحوالهم، ولا أصحابهم شيئاً، وتراه لا يقبل بهم

عذلاً، ولا عدلاً، ولا صرفاً، وذلك لفرط ثقته بأولاده، بل ربما دافع عنهم إذا شكاهم أحدٌ إليه.

وفي مقابل ذلك تجد من يبالغ في إساءة الظن بأولاده؛ فتراه يتهم نياتِهم، ولا يثق بهم البتة، ويشعرهم بأنه وراءهم في كل صغيرة وكبيرة، دون أن يتغاضى عن شيء من هفواتهم أو زلاتهم.

ومن مظاهر الخطأ في تربية الأولاد: التفريقُ بينهم، سواءٌ كان ذلك مادياً، أو معنوياً؛ فهناك من يُفرِّق بين أولاده في العطايا، والهدايا، والهبات وهناك من يفرق بينهم بالملاطفة والمزاح، والمحبة، إلى غير ذلك من صور التفريق، التي تسبب شيوع البغضاء، وتبعث على النفور والتنافر.

ومن مظاهر الخطأ في تربية الأولاد: تركُ المبادرة في تزويج الأبناء مع الحاجة والقدرة، وتأخيرُ تزويج البنات، والمتاجرة بهن، وتزويجهن بغير الأكْفَاء.

وهذا من إضاعة الأمانة، والتسبب في شقاء الأولاد.

ومن مظاهر التقصير في حق الأولاد: تسميتهم بأسماءٍ سيئة، أو مخالفة، فمن الناس من لا يأبه بذلك، فمنهم من يسمي ولده بالاسم القبيح؛ بحجة أن جدَّه فلاناً، أو جدَّته فلانة تسموا بهذا الاسم؛ فهو يرى أن من البر أن يسمي بأسمائهم، ولو كانت غير مناسبة.

ومن الأخطاء التي تقع في تسمية المواليد تسميتهم بالأسماء الممنوعة شرعاً؛ كتسميتهم بأسماء الله المختصة به مثل أن يُسمي الولد: بالأحد، أو الله، أو الرحمن، أو الخالق.

ومن ذلك تسميتهم بالأسماء المعبدة لغير الله مثل: عبدالنبي، أو عبدعلي، أو عبدالحسين.

وكذلك تسميتهم بالأسماء الأجنبية، الخاصة باليهود والنصارى؛ لأن هذا يجر ولوعلى المدى البعيد إلى موالاتهم.

ومن الخطأ في التسمية تسميتهم بأسماء الجبابرة، والطواغيت.

ومن ذلك تسميتهم بالأسماء التي يظن أنها من أسماء الله كالتسمية بـ«عبدالمقصود، وعبدالموجود، وعبدالستار».

ومن ذلك تسميتهم بالأسماء المكروهة أدباً وذوقاً، كالأسماء التي تحمل في ألفاظها تشاؤماً أو معانيَ تكرهها النفوس.

ومن ذلك تسميتهم بالأسماء التي تسبب الضحك والسخرية، أو التي توحي بالتميع، والغرام، وخدش الحياء.

ومن صور التقصير في تربية الأولاد: مكثُ الوالدِ طويلاً خارجَ المنزل؛ خصوصاً إذا كان ذلك لغير حاجة؛ فهذا يعرِّض الأولاد للفتن، والمصائب، والانحراف، ويَحْرِمُ الأولادَ من النفقة والرعاية.

ومن الخطأ في تربية الأولاد: الدعاءُ عليهم، قال النبي ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاءً؛ فيستجيب لكم» رواه مسلم.

ومن مظاهر الخطأ في تربية الأولاد: تربيتهم على سفاسف الأمور، وسيئ العبارات، ومرذول الأخلاق، ومن ذلك: فعل المنكرات أمام الأولاد، وجلب المنكرات لهم في المنزل، والعهد للخادمات والمربيات بتربية الأولاد؛ خصوصاً إذا كُنَّ غيرَ مسلمات.

ومما يتسبب في ضياع الأولاد وانحرافهم: كثرة المشكلات بين الوالدين، وترك البنات يذهبن للسوق بلا محرم، وبلا حاجة، وإهمالُ الهاتف وترك مراقبته، والغفلةُ

عما يقرؤه الأولاد، وقلةُ الاهتمام باختيار مدارس الأولاد، وقلةُ التعاون مع مدارسهم أو انعدامه بالكلية.

ومن الخطأ في تربية الأولاد: احتقارُهم، وتركُ تشجيعهم؛ فبعض الناس يَسْخَرُ كثيراً بأولاده، ويشنِّع عليهم إذا أخطأوا، ويسكتهم إذا تكلموا؛ مما يجعل الولد عديم الثقة بنفسه.

وأشدُّ صور السخرية أن يسخرَ بالولد إذا استقام على أمر الله، فتجد من الآباء من يَسْخَرُ بابنه إذا رآه مستقيماً، مطبقاً للسنة، مقبلاً على العلم؛ فهذه السخرية قد تسبب انحراف الولد، فيكون عالة على والده، وسبباً لجر البلايا إليه، وما علم ذلك الوالد أنه هو الرابح الأول من صلاح ابنه في الدنيا والآخرة.

ومن الخطأ في التربية: قلةُ العناية بتربية الأولاد على تحمل المسؤولية، وعدم إعطائهم فرصةً للتصحيح والتغيير للأفضل.

وهكذا ينشأ الولد وهو يشعر بالنقص، وقلة الثقة بالنفس.

هذه بعض مظاهر التقصير في تربية الأولاد، فماذا نؤمل بعد هذا الإهمال؟ وماذا سنحصد من جرّاء هذا التقصير؟

ومن هنا نعلم أي جناية نجنيها على الأولاد حين نقذف بهم إلى معترك الحياة في جو هذه التربية الخاطئة!

ثم ما أسرعنا إلى الشكوى إذا رأيناهم عاقين متمردين، ونحن قد غرسنا بأيدينا بذور الانحراف!

أيها الصائمون: للحديث بقيةٌ ـ إن شاء الله ـ حيث سيكون حول السبل المعينة على تربية الأولاد وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

الدرس السادس عشر رمضان وتربية الأولاد (٢)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد مرّ سالفاً حديثٌ حولَ تربية الأولاد وأهميته، وأن شهرَ رمضانَ فرصةٌ عظيمةٌ لأن يقفَ الإنسانُ مع نفسه وحالِه مع الأولاد، ومرّ ذكرٌ لبعض مظاهر التقصير في تربية الأولاد.

والحديث في هذه الليلة - إن شاء الله - سيكون في السبل والأسباب المعينة على تربية الأولاد، والتي تَكْفُلُ - بإذن الله - لمن أخذ بها أن يعان، ويوفق، وأن يجد الآثار الطيبة عاجلاً أو آجلاً.

فمن تلك السبل: العنايةُ باختيار الزوجةِ الصالحة؛ فالزوجة أمُّ الأولاد، ولها الأثرُ الأكبر عليهم وعلى زوجها؛ فحري بالإنسان إذا أراد الزواج أن يستشير، ويستخير، ويبحثَ عن ذات الدين، والخلق القويم.

قال أبو الأسود الدؤلي لبنيه: «قد أحسنت إليكم صغاراً وكباراً، وقبل أن تولدوا».

قالوا: «وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد؟» قال: «اخترت لكم من الأمهات من لا تُسبُّون بها».

وأنشد الرياشي:

فأول إحساني إليكم تخيُّري لماجدةِ الأعراقِ بادٍ عفافُها

ومن السبل المعينة على تربية الأولاد سؤالُ الله الذريةَ الصالحة، وسؤاله الإعانةَ على تربية الأولاد، وكثرةُ الدعاء للأولاد بالصلاح، والحذرُ كلَّ الحذر من الدعاء عليهم، أو تركُ الدعاء لهم إذا رأى الوالد منهم تمادياً في الشر؛ فإجابة الدعاء قد

تتأخر لحكمة، وقد يُقْصِرون عن بعض الشر بسبب الدعاء، وقد يصلحون بعد حين، أو بعد فراق الوالد الدنيا، وهكذا...

ومن أعظم ما يعين على صلاح الأولاد، أن يغرس الوالدُ الإيمانَ، والعقيدةَ الصحيحةَ في نفوس الأولاد وهم صغار، وأن يتعاهد ذلك بالسقي والرعاية، فيلَقّن الوالدُ أولادَه منذ الصغر النطق بالشهادتين، ويعلمهم بأن الله ربُّهم، والإسلامَ دينُهم، ومحمداً ﷺ نبيهم.

وينمي في قلوبهم محبَة الله -عز وجل- ومراقبتَه، وأنه في السماء، وأنه سميعٌ بصيرٌ إلى غير ذلك من أمور العقيدة المُيَسَّرة الملائمة لسن الأولاد.

ومن أعظم ما يعين على صلاحهم-أيضاً-غرسُ الأخلاق الحميدة والخلال الكريمة في نفوس الأولاد، وتجنيبُهم الأخلاقَ الرذيلة وتقبيحُها إليهم، فيحرصُ الوالد على تربيتهم على التقوى، والعفة، والحلم والصدق، والصبر والبر، والصلةِ، والعلم، والجهاد، والدعوة، ويكرِّه إليهم في الوقت نفسه أضرارَ تلك الأخلاق، فيكرّه إليهم الفجورَ، والكذبَ، والخيانةَ، والحسدَ، والغِيبةَ، والنميمةَ، والعقوقَ، والقطيعةَ، والجبنَ، والأَثَرة، وغيرَها من سِفْساف الأخلاق، ومرذولها.

وإذا سار بهم على هذه السُّنَّةِ شبوا متعشقين للبطولة، محبين لمكارم الأخلاق، نافرين عن مرذولها.

ومن ذلك تعليمُهم الأمورَ المستحسنةَ، وتدريبُهم عليها، كتشميت العاطس، والأكلِ باليمين وآداب قضاء الحاجة، وآدابِ السلام وردِّه، وآدابِ الرد على الهاتف، واستقبال الضيوف، ونحو ذلك.

فإذا تدرب الولد على هذه الأخلاق منذُ الصغر أَلِفَها، وأصبحت سجيّة له؛ فالصغير يقبل التعليم والتوجيه، وَيَشِبُّ على ما عُوِّد عليه كما قيل:

وينشأ ناشئُ الفتيانِ منا على ما كان عوَّده أبوه

ومما ينبغي للوالدين مراعاتُه أن يحرصا في مخاطبة الأولاد على انتقاء العبارات الحسنة المقبولة الطيبة، وأن يربآ بأنفسهم عن السب، والشتم واللجاج، وغير ذلك من العبارات البذيئة المقذعة، وبذلك تعف ألسنة الأولاد، وتنأى عن السباب، والفحش.

ومن أجلِّ ما يمكن أن يقوم به الوالدان تجاه الأولاد: أن يحرصا على تحفيظهم كتاب الله-عز وجل-لما في ذلك من الأجر العظيم وحفظ الوقت، وحماية الأولاد من الانحراف، وغير ذلك من الفضائل التي لا تعد ولا تحصى.

ومن المسائل المهمة في التربية: مسألةُ التربية بالقدوة؛ فينبغي للوالدين أن يكونا قدوةً للأولاد في الصدق، والاستقامة، والبر، وأن يتمثلا كل ما يقولانه، ويأمران به.

ومن الأمور المستحسنة في ذلك: أن يقوم الوالدان أو أحدُهما، بالصلاة أمام الأولاد؛ حتى يتعلموا الصلاة عملياً من الوالدين.

ولعل هذا من أسرار مشروعية أداء السنة الراتبة في البيت، وكونِ الصلاةِ في البيت أفضلَ من الصلاة في المسجد إلا المكتوبة.

ومما تحصل به القدوة-أيضاً-كظمُ الغيظِ، وحسنُ استقبال الضيوف، وبرُّ الوالدين، والوفاءُ بالعهد والوعد.

ومما يجب على الوالد تجاه أولاده أن يحميهم من المنكرات، وأن يطهرَ بيته منها، حتى يحافظَ على سلامة فطرهم، وعقائدهم وأخلاقهم.

ويجدر به-أيضاً-أن يوجدَ لهم البدائل المناسبة المباحة التي تجمع بين المتعة والفائدة، وبذلك يجد الأولاد ما يشغلون به فراغهم.

ومما يجب على الوالدين ـ أيضاً ـ أن يجنبا أولادهم أسباب الانحراف الجنسي، وذلك بحمايتهم من مطالعةِ القصص الغراميةِ، والمجلاتِ الخليعةِ، والأغاني الماجنة والكتبِ الجنسية وغيرِها، وتجنيبهم الزينةَ الفارهةَ، والميوعةَ القاتلة؛ فَيُمْنَعَ الولد من الإفراط في التجمّل، والمبالغة في التأنق والتطيب، وينهى عن التعري، والتكشف؛ لأن هذه الأعمالَ تتسبب في فساد طباعهم، وتقودهم إلى إغواء الآخرين وفتنتهم، وتدعو إلى جرّ الأولاد إلى الرذيلة؛ خصوصاً إذا كانوا صغاراً أو ذوي مرأىً حسن.

بل يحسن بالوالد أن يعوِّدَ أولاده على الرجولة، والخشونة، والجد، وأن يجنبهم الكسل، والبَطالة، والراحة، والدعة؛ فإن للكسل والبَطالة عواقبَ سوءٍ، ومغبةَ ندمٍ، وللجد والتعب عواقب حميدة؛ فأروحُ الناسِ أتعبُ الناس، وأتعبُ الناسِ أروحُ الناس؛ فالسيادة في الدنيا والسعادة في العقبى لا يوصل إليها إلا على جسرٍ من التعب؛ فالراحة تعقب الحسرة، والتعب يعقب الراحة.

ومما يحسن في هذا الصدد أن يعوِّد الوالدُ أولاده الانتباه آخر الليل؛ فإنه وقت الغنائم، وتفريق الجوائز، فمستقلٌّ، ومستكثر، ومحروم؛ فمن اعتاده صغيراً سَهُل عليه كبيراً.

ومما يحسن بالوالد ـ أيضاً ـ أن يجنب أولاده فضولَ الكلام، والطعام، والمنام، ومخالطة الأنام؛ فإن الخسارة في هذه الفضلات، وهي تفوِّت على العبد خيرَ دنياه وآخرته، ولهذا قيل: من أكل كثيراً، شَرِب كثيراً، فنام كثيراً، فخسر كثيراً.

ومن الأمور النافعة المجدية في التربية مراقبةُ ميول الولد، وتنميةُ مواهبه، وتوجيهُه لما يناسبه.

وبهذا يجد الولد في المنزل ما ينمِّي مواهبَه، ويصقلُها، ويُعِدُّها للبناء.

قال ابن القيم رحمه الله: «ومما ينبغي أن يعتمد حال الصبي، وما هو مستعد له من

الأعمال، ومهيأً له منها، فيعلمَ أنه مخلوقٌ له، فلا يَحْمِله على غير ما كان مأذوناً فيه شرعاً؛ فإنه إنْ حَمَلَه على غير ما هو مستعد له لم يفلحْ فيه، وفاته ما هو مهيأٌ له؛ فإذا رآه حسنَ الفهمِ جيدَ الحفظ واعياً؛ فهذه علامات قبوله، وتَهيُّئه للعلم؛ لينقشه على لوح قلبه ما دام خالياً، وإن رآه ميالاً للتجارة والبيع والشراء، أو لأي صنعةٍ مباحةٍ فليمكِّنْه منها؛ فكلٌّ ميسر لما خلق له» اـهـ.

ومن الأمور النافعة في التربية: إشباعُ عواطف الأولاد، وإشعارُهم بالعطف والرحمةِ، والنفقةُ عليهم بالمعروف، والعدلُ بينهم، والقيامُ على حوائجهم، وإشاعةُ روحِ الإيثار بينهم؛ فذلك مما يشعرهم بالمحبة، ويقضي على كثير من المشكلات.

ومن أسس التربية الناجحة: أن يكون التفاهمُ قائماً بين الزوجين؛ فعليهما أن يحرصا كل الحرص على تجنّب الوسائل المفضية للشقاق أمام الأولاد وأن يبتعدا عن العتاب أمامهم؛ حتى يسود الهدوء البيت، وتشيع الألفة فيه، فيجد الأولاد فيه الراحة والسكن، والأنس والسرور.

ومما يحسن بالوالدين إذا لم يُقَدَّر بينهما وفاقٌ، وحصل الطلاق أن يتقيا الله -عز وجل- وأن يكون التسريح بإحسان، وألا يجعلا الأولاد ضحية لعنادهما، وشقاقهما، وألا يغري كل واحد منهما بالآخر.

بل عليهما أن يعينا الأولاد على البر، وأن يوصي كلُّ واحدٍ منهما الأولاد ببر الآخر بدلاً من التحريش، وإيغار الصدور، وتبادل التهم، وتأليب الأولاد؛ فإن اتقيا الله في حال الطلاق لم يعرضا الأولاد للاضطراب والتمرد، وإن كانت الأخرى فإن الوالدين هم الخاسر الأول، وإن الأولاد سيعقّون الوالدين.

ومما يحسن التنبيه عليه في تربية البنات -على وجه الخصوص- أن يعلمهن ما يَحْتَجْن إليه من أمور دينهن ودنياهن، فكم من الناس من فرط في هذا الحق، وكم

من النساء من يجهلن -على سبيل المثال- أحكامَ الحيض والنفاس ومسائل الدماء عموماً بالرغم من أنه يتعلق بها ركنان من أركان الإسلام وهما الصلاة والصيام، بل والحج.

وكم من النساء من تجهل إقامة الصلاة على الوجه المطلوب، وهكذا...

فينبغي للوالد-أباً أو أماً-أن يُعنى بتعليم بناته أمور دينهن، كما ينبغي حَمْلُهن على الحشْمة، والعفاف والستر، وأن يعلِّمهن-أيضاً-أمور حياتهن الخاصة من كيٍّ وغسيلٍ، وطبخٍ، وخياطةٍ، وتدبيرٍ للمنزل وغير ذلك؛ حتى يكُنَّ على أتم استعداد للحياة الزوجية.

ومما يجب على الوالد تجاه أولاده: أن يمنع البنين من التشبه بالبنات، وأن يمنع البناتِ من التشبه بالبنين، وأن يمنع الأولادَ من التشبه بالكفار والكافرات، وأن يمنع البنات من الخروج من المنزل وحدهن، سواء للسوق أو الطبيب، أو غير ذلك، بل لا بد من وجود المحرم معهن، وألا يخرجن إلا للحاجة الملحة.

كما عليه أن يمنع البنين من الاختلاط بالنساء، ويمنعَ البناتِ من الاختلاط بالرجال، كما عليه أن يحرص كلَّ الحرص على تزويج أبنائه إذا بلغوا سن الرشد عند المقدرة والحاجة، وأن يحرص على تزويج بناته إذا تقدم لهن من يرضى دينه وخلقه.

ومما يحسن بالوالدين أن يرعياه أن يعتنيا بصحة الأولاد خصوصاً وهم صغار؛ لأن كثيراً من العاهات تبدأ مع الأولاد في ذلك السن؛ فإذا أهمل علاجها لازمت الأولاد طيلة أعمارهم.

كما يحسن بالوالدين أن يقوموا بشؤون الأولاد إذا أصيبوا بعاهات مزمنة، أو إذا ولدوا معاقين أو مصابين ببعض التشوهات الخِلقية، أو ما شاكل ذلك؛ فحريٌّ

بالوالدين أن يقوموا برعاية الأولاد، وأن يحسنوا تربيتهم، وأن يشعروهم بمكانتهم، كما يحسن بهم أن يحتسبوا الأجر، وأن يحذروا من التسخط، بل عليهم أن يحمدوا الله، وأن يتحرَّوا الخيرة؛ فربما كان الخير في ذلك البلاء، وربما رحم الله الأسرة جميعها، وأدرَّ عليهم الأرزاق، ودفع عنهم صنوف البلاء، بسبب هؤلاء المساكين.

معاشر الصائمين: للحديث صلة في الليلة القادمة -إن شاء الله تعالى- وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس السابع عشر رمضان وتربية الأولاد (٣)

الحمد لله، والصلاة والسلام على النبي رسول الله، أما بعد:

فقد كان الحديث سالفاً يدور حول السبل المعينة على تربية الأولاد، والحديث ههنا إكمال لما مضى.

فمما يعين على تربية الأولاد ونُضجهم: أن ينمي الوالد الشجاعةَ الأدبيةَ في نفس الولد؛وذلك بإشعاره بقيمته،وزرع الثقة في نفسه، حتى يعيش كريماً شجاعاً صريحاً جريئاً في إبداء آرائه في حدود الأدب واللياقة؛ بعيداً عن الإسفاف والصفاقة؛ فهذا النمطُ من التربيةِ يشعره بالطمأنينة، ويكسبه القوةَ والاعتبارَ، ويزيل عنه الترددَ، والخوفَ، والهوانَ، والصَّغارَ.

ومما يحسن بالوالد في هذا الصدد: أن يستشير أولادَه في بعض الأمور؛ كأن يستشيرَهم فيما يتعلقُ بالمنـزل، أو لونِ السيارة التي سيشتريها، أو أن يأخذ رأيهم في مكان الرحلة أو زمانها، ثم يوازن بين آرائهم، ويستخرج ما لديهم من أفكار، ويطلب من كل واحد منهم أن يبدي مسوغاته، وأسباب اختياره لهذا الرأي وهكذا؛ فكم في مثل هذا العمل من زرع للثقة في نفوس الأولاد، وإشعار لهم بقيمتهم، وكم فيه من تدريب لهم على تحريك أذهانهم، وشحذ قرائحهم، وكم فيه من تعويد لهم على التعبير عن آرائهم.

ومن الأساليب الطيبة في التربية: تعويد الولد على القيام ببعض المسؤوليات؛ كالإشراف على المنـزل في حال غياب ولي الأمر، وكالتعويد على الصرف والاستقلالية المالية، وذلك بمنحه مصروفاً مالياً كل شهر أو أسبوع؛ ليقوم بالصرف على نفسه، وعلى حاجات المنـزل، وكمنحه الثقة في استقبال الضيوف، وإعداد اللازم لهم،

وكتعويده على المشاركة الاجتماعية إما بالدعوة إلى الله، أو إغاثة الملهوفين، أومساعدة الفقراء والمحتاجين، أو التعاون مع جمعيات البر، أو غيرها.

ومن الأساليبِ النافعةِ في التربية: تدريبُ الأولادِ على اتخاذ القرار؛ كأن يَعْمَدَ الوالدُ إلى وضع الولد في مواضع التنفيذ، وفي المواقف المحرجة التي تحتاج إلى حسم الأمر، والمبادرةِ في اتخاذ القرار، وتَحَمُّل ما يترتب عليه؛ فإن أصاب شجَّعه، وشد على يده، وإن أخطأ قوَّمه، وسدَّده بلطف؛ فهذا مما يعوِّده على مواجهة الحياة، والتعامل مع المواقف المحرجة.

ومما يحسن بالوالد: أن يُقَدِّر مراحل العمر التي يمر بها الأولاد؛ فالولد يَكْبُرُ، ويَكْبُرُ معه تفكيرُه؛ فلا بد أن تكونَ معاملتُه ملائمةً لسنه وتفكيره، واستعدادِه، وألا يُعامل دائماً على أنه صغير.

كما يحسن بالوالد: أن يتلافى مواجهةَ الأولادِ مباشرةً قدر المستطاع، خصوصاً في مرحلة المراهقة؛ بل يحسن به إذا لاحظ منهم خطأً أن يُعرِّض لهم، وأن يقودهم بزمام الحجة، والإقناع، والمناقشة الحرة.

ومما ينبغي للأب ـ مهما كان له من شغل ـ أن يخصص وقتاً يجلس فيه مع الأولاد، يؤنسهم فيه، ويعلمهم ما يحتاجون إليه، ويقصُّ عليهم القصصَ الهادفةَ؛ لأن اقترابَ الوالدِ من أولاده ضروريٌّ جداً، وله آثارُه الواضحةُ، حيث تستقر أحوالُ الأولاد، وتهدأ نفوسُهم، وتستقيم طباعهم.

ومما يجدر بالوالد إذا تحدث إليه ولدُه ـ خصوصاً الصغير ـ أن يصغي له تماماً، وأن يبدي اهتمامَه بحديثه، كأن تظهرَ عليه علاماتُ التعجبِ، أو أن يبدي بعضَ الأصواتِ التي تدل على الإصغاء والاهتمام والإعجاب، كأن يقول: رائع، حسن، صحيح، أو أن يقومَ بالهمهمة، وتحريك الرأس، وتصويبه، وتصعيده، أو أن يجيبَ على

أسئلته، أو غير ذلك.

فمثل هذا العملِ له آثار إيجابيةٌ كثيرةٌ؛ فهو يعلّم الولدَ الطلاقةَ في الكلام، ويساعدُه على ترتيب أفكاره وتسلسلها، ويدربه على الإصغاء، وفهمِ ما يسمعه من الآخرين، كما أنه ينمي شخصيةَ الولد، ويصقُلُها، ويقوي ذاكرتَه، ويعينُه على استرجاع ما مضى، ويزيدُه قرباً من والده.

ومما يحسن بالوالد: أن يتفقد أحوالَ أولاده، وأن يراقبهم من بعد؛ فيلاحظهم في أداء الشعائر التعبدية من صلاة، ووضوء، ونحوه، ويراقب الهاتف المنزلي أحياناً، وينظر في جيوبهم وأدراجهم من حيث لا يشعرون؛ كأن ينظر فيها إذا ناموا، أو أن ينظر في أدراجهم إذا ذهبوا للمدرسة، وإذا رأى ما لا يرضى تصرف بما يراه مناسباً.

هذا إذا كان يرى الأولاد على حالة لا تُرضى، أما إذا كانوا صُلحاء؛ فلا يلزم أن يقوم بمثل هذا العمل.

ومما يحسن بالأب: أن يربطَ ولده بالصحبة الطيبة، وأن يكرم أصحاب ولده الطيبين الصالحين، وأن يحثَّه على ملازمتهم، وأن يُحْسِنَ الوالدُ استقبالَ أصحابِ ولده إذا زاروا الولد؛ بل يَحْسُنُ به أن يحثَّ ولدَه على استزارتهم.

وإذا زاروا الولد فإنه يجدر بالأب أن يفرحَ بذلك، وأن ييسر لهم ما يستطيع، وأن يقابلهم بالبشر، ولا بأس أن يجلس معهم ولو قليلاً، ويتجاذب معهم أطراف الحديث، ويسألهم عن أحوالهم، وأحوالِ ذويهم؛ فهذا الصنيع يشعر الولد بقيمته، ويحفزه على طاعة والديه، والتمسك بصحبته.

أما النفور من الصحبة الصالحة للولد، والجفاء في معاملتهم فلا يليق بالأب؛ لأنه يشعرُ الولدَ بعدم قبولهم، فيسعى لمقاطعتهم، أو التخفي في علاقته بهم، أو أن يتركهم؛ فيقع فريسة لأصحاب السوء.

وإذا بُلي الولد بصحبة سيئة فعلى الوالد أن يراعيَ الحكمةَ في إنقاذه منهم، فلا يبادرَ إلى استعمال العنف منذ البداية، ولا يسارعَ إلى إهانتهم أمام ولده، أو طردهم إذا زاروه أول مرة، لأن الولد متعلق بهم، ومقتنع بصحبتهم.

بل ينبغي للوالد أن يتدرج في ذلك؛ فيبدأ بإقناع ولده بسوء صحبته، وأن عليه أن يفارقهم، وأن يبحثَ عن أصحاب خيرٍ منهم، ثم يقومَ بعد ذلك بتهديده، وإشعاره بأنه ساعٍ لتخليصه منهم، وأنه سيذهب إلى أولياء أمورهم، كي يبعدوا أولادهم عنه؛ فإذا حَذَّر الولدَ، وسلك معه ما يستطيع، وأعيته الحيلة، ورأى أن بقاءه معهم ضررٌ محققٌ فهناك يسعى إلى تخليصه منهم بما يراه مناسباً.

ومما ينبغي للوالدين أن لا يضخموا أخطاء الأولاد، بل عليهم أن ينـزلوها منازلها، وأن يدركوا أنه لا يخلو بيت من الأخطاء، فمقل ومستكثر.

أيها الصائمون الكرام: ومن الأمور المعينة في التربية اصطناعُ المرونة، فإذا اشتدت الأم على الولد لانَ الأب، وإذا عنَّف الأب لانَت الأم؛ فمثلاً قد يقع الولد في خطأ ما، فيؤنِّبه والده تأنيباً يجعله يتوارى عن الأعين؛ خوفاً من العقاب، فتأتي الأم، وتطيِّبُ نفسَ الولد، وتوضِّح له خطأَه برفق؛ عندئذ يشعر الولد بأنهما على صواب، وأنه على خطأ، فيقبل من أبيه تأنيبَه، ويحفظُ لأمهِ معروفَها، والنتيجة أنه سيتجنب الخطأ مرة أخرى.

ومن السبل النافعةِ في التربية: التربيةُ بالعقوبة؛ فالأصل أن يأخذَ الإنسان باللين والرفق في معاملته لأولاده؛ إلا أن العقوبة قد يحتاج إليها بشرط ألا تكون ناشئة عن سورة جهل، أوثورة غضب، وألا يَلجأ إليها إلا في أضيق الحدود، وألا يؤدب الولدَ على خطأ ارتكبه مرة واحدة، وألا يؤدبه على خطأ أحدث له ألماً، وألا يكون أمام الآخرين.

ولا يفهم من ذلك أن العقوبةَ قاصرةٌ على الألم البدني فحسب، بل هناك أنواع أخرى كالعقاب النفسي؛ كقطع المديح عنه، أو إشعاره بعدم الرضا أو توبيخه، أو حرمانه من الجائزة، وهكذا...

ومن أنواع العقوبة العقاب البدني الذي يؤلمه، ولا يضره.

ومما ينبغي للوالد مراعاته في التربية: أن يعطي أولادَه فرصةً للتصحيح إذا أخطأوا، وألا يأخذ موقفاً واحداً من أحد أولاده فيجعلَه ذريعةً لوَصْمِهِ، و عيبه؛ كأن يسرق مرة، أو يكذب فيناديه باسم السارق أو الكذاب.

ومما يجدي كثيراً في عملية التربية: أن يكون للوالد مكتبةٌ منـزلية ميسرة تحتوي على كتب، وأشرطة ملائمة لسنهم ومداركهم، وأن يقيم الوالد الحلقات العلمية داخل المنـزل، وأن يجري المسابقات الثقافية بين أولاده.

ومما يجدي -أيضاً- أن يصطحب أولاده معه لمجالس الذكر، ودروس العلم.

ومن الأمور المستحسنة في التربية الرحلةُ مع الأولاد، إما إلى مكة المكرمة، أو المدينة النبوية أو غيرهما من الأماكن المباحة؛ فبذلك يُجِمُّهُم، ويشرح صدورهم، ويكسبهم معارفَ جديدةً، إلى غير ذلك من فوائد السفر التي لا تخفى.

ومن أنفع السبل المعينة على تربية الأولاد أن يربطهم بالسلف الصالح، حتى يسيروا على خطاهم، ويجدوا فيهم القدوة الحسنة.

ومما ينبغي مراعاته في عملية التربية عدم استعجال النتائج؛ بل على الوالد أن يبذل مُستطاعَه، ويستمر في تربيته ودعائه؛ فلربما استجاب الولد بعد حين، وادّكر بعد أمّة.

وإذا رأى الوالدُ من ولده نفوراً أو تمادياً؛ فعليه ألا ييأس من صلاحهم واستقامتهم، فالنصحُ والتربيةُ النافعة يؤتيان أكلَهما بإذن اللهِ، فهما بمثابة البذر الذي

يوضع في الأرض، والله -عز وجل- يتولى رعايته ونماءه، ﴿ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾.

فبسبب التربية الحسنة، يستقيم الأولاد، ويُقْصِرون عن التمادي في الباطل، ويُعْذِرُ الإنسان إلى الله.

وكما أن برَّ الوالدين واجب بكلِّ حال فإن على الوالدين أن يعينا الأولاد على البر، وأن يشجعوهم، ويشكروهم، بل على الوالدين أن يغضّا الطرف عن بعض ما يصدر من الأولاد، وعليهما أن يتنازلا عن بعض حقوقهما، خصوصا إذا رأيا من الولد إقبالاً على العلم، وجِدّاً في الطلب، ومصاحبةً للأخيار خصوصاً في بداية عمره، فعلى الوالدين أن يشجعاه، وأن يعذراه على بعض التقصير.

تقول أم سفيان الثوري لابنها سفيان: «يا بني! اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي».

فكانت تغزل وتبيع وتصرف على سفيان، وتُفَرِّغه لطلَب العلم، فأصبح الإمامَ المتبوعَ، وأمير المؤمنين في الحديث مع أنه نشأ يتيماً.

ومن الأمور المعينة على التربية استشارةُ من لديه خبرة بالتربية، وقراءة الكتب المفيدة في التربية، واستحضار فضلِ التربية في الدنيا والآخرة، واستحضار عواقب الإهمال والتفريط.

وخلاصة القول في تربية الأولاد: أن يسعى الوالدُ في جلب ما ينفع الأولاد، ودفع ما يضرُّهم في دينهم ودنياهم.

﴿ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾ ، ﴿ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الثامن عشر حقوق الجار

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن رمضانَ شهرُ الترابط، وشهرُ التواصي، وشهرُ التقارب، وشهر المودات.

والحديث هذه الليلة سيدور حول معنى من هذه المعاني ألا وهو حق الجار؛ فلقد أوصى الإسلام بالجار، وأعلى من قدره؛ حيث قرن الله حق الجار بعبادته -عز وجل- وبالإحسان إلى الوالدين، واليتامى، والأرحام.

قال الله -عز وجل-: ﴿ وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

أما السنةُ النبويةُ فقد استفاضت نصوصُها في بيان رعاية حقوق الجار، والوصايةِ به، وصيانةِ عرضه، والحفاظ على شرفه، وستر عورته، وسدّ خَلّته، وغضِّ البصر عن محارمه، والبعد عن كل ما يريبه، ويسيء إليه.

ومن أجلى تلك النصوص وأعظمها ما جاء في الصحيحين من حديث عائشة وابن عمر -رضي الله عنهم- أن النبي ﷺ قال: «مازال جبريل يوصني بالجار حتى ظننت أنه سيوَرِّثه».

أي: ظننت أنه سَيَبْلُغني عن الله الأمرُ بتوريث الجارِ الجارَ.

أيها الصائم الكريم: الجار في الاصطلاح الشرعي هو من جاورك جواراً شرعياً، سواء كان مسلماً أو كافراً، براً أو فاجراً، صديقاً أو عدواً، محسناً أو مسيئاً، نافعاً أو ضاراً، قريباً أو أجنبياً، غريباً أو بلدياً.

وله مراتب بعضها أعلى من بعض، تزيد وتنقص بحسب قربه وقرابته، ودينه وتقواه، ونحو ذلك؛ فيعطى بحسب حاله وما يستحق.

أما حد الجوار؛ فقد اختلفت عباراتُ أهل العلم في حد الجوار المعتبر شرعاً، والأقرب ـ والله أعلم ـ أن حدَّ الجوار يُرجع فيه إلى عُرْفِ الناس؛ فما عُلِمَ عُرْفاً أنه جارٌ فهو جار.

ولا ريب أن الجوارَ في المسكن هو أجلى صور الجوار وأوضحُها، ولكنَّ مفهومَ الجار والجوار لا يقتصر على ذلك فحسب، بل هو أعمُّ من ذلك وأشمل؛ فالجار معتبرٌ في المتجر، والسوق، والمزرعة، والمكتب، ومقعد الدرس.

ومفهومُ الجارِ يشمل الرفيقَ في السفر؛ فإنه مجاورٌ لصاحبه مكاناً وبدناً، والزوجةُ كذلك تسمى جارةً، وكذلك مفهومُ الجوارِ يشمل الجوارَ بين المدن، والدول، والممالك، فلكل منهما حق على الآخر.

أيها الصائمون الكرام: حقوق الجار على وجه التفصيل كثيرة جداً، أما أصولها فتكاد ترجع إلى أربعة حقوق.

أولها: كف الأذى: فالأذى على كل أحد بغير حق محرم، وأذية الجار أشد تحريماً.

جاء في صحيح البخاري عن أبي شريح ﷺ عن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «من لا يأمن جاره بوائقه».

وجاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه».

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره».

وفي مسند الإمام أحمد، والأدب المفرد للبخاري، وعند الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي عن أبي هريرة ﷺ قال: قيل يا رسول الله إن فلانةً تصلي الليل، وتصوم النهار، وفي لسانها شيء تؤذي جيرانها سليطة، قال: «لا خير فيها هي في النار».

وقيل له: إن فلانةً تصلي المكتوبة، وتصوم رمضان، وتتصدق بالأثوار ـ وهي القطع الكبيرة من الأقط وهو اللبن الجامد المستحجر ـ وليس لها شيء غيره، ولا تؤذي جيرانها، قال: «هي في الجنة».

ولفظ الإمام أحمد: «لا تؤذي بلسانها جيرانها».

بل لقد جاء الخبر بلعن من يؤذي جاره، ففي حديث أبي جُحيفة ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو جاره فقال له: «اطرح متاعك في الطريق».

قال: فجعل الناس يمرون به فيلعنونه، فجاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما لقيتُ من الناس؟ قال: «وما لقيتَ منهم»، قال: يلعنوني، قال: «فقد لعنك الله قبل الناس» قال: يا رسول الله فإني لا أعود.

أخرجه البخاري في الأدب المفرد، والبزار، والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي.

قال علي بن أبي طالب للعباس ـ رضي الله عنهما ـ: «ما بقي من كرمِ إخوانك؟ قال الإفضالُ إلى الإخوان، وتركُ أذى الجيران».

فانظر كيفَ عدَّ العباسُ ﷺ تركَ أذى الجيران من الكرم.

ولقد كان العرب يتمدحون بكف الأذى عن الجار، قال هُدْبَةُ بنُ الخَشْرم:

ولا نَخْذِلُ المولى ولا نرفع العصا عليه ولا نزجي إلى الجار عقربا

وقال لبيد ﷺ:

وإن هوانَ الجارِ للجار مؤلمٌ وفاقرةٌ تأوي إليها الفواقر

الثاني من حقوق الجار: حماية الجار: فمما ينبه لشرف همة الرجل نهوضُه لإنقاذ جاره من بلاءٍ يُنال به في عرضه، أو بدنه أو ماله، أو نحو ذلك.

ولقد كانت حمايةُ الجار من أشهر مفاخر العرب التي ملأت أشعارهم، قال عنترة:

وإني لأحمي الجارَ من كل ذلّة وأفرحُ بالضيف المقيم وأَبْهَجُ

وقالت الخنساءُ تمدح أخاها بحمايته جارَه:

وجارُكَ مَحْفُوظٌ منيعٌ بنجوة من الضيم لا يُؤذى ولا يتذللُ

بل لقد غالى العرب، وبالغوا في المحاماة عن الجار؛ إذ لم تتوقف محاماتُهم عن الجار الإنسان، بل لقد تعدوا ذلك؛ فأجاروا ما ليس بإنسان إذا نزل حول بيوتهم حتى ولو كان لا يعقل ولا يستجير؛ مبالغةً في الكرامة والعزة، وتحدياً لأن يَخْفِرُ الجوارَ أحدٌ، مثل ما فعل مدلجُ بنُ سويدٍ الطائيُّ الذي نزل الجرادُ حول خبائه؛ فمنع أن يصيدَه أحدٌ حتى طار وبَعُدَ عنه.

وكان كليبٌ يجير الصيدَ، فلا يَعْرِضُ له أحدٌ.

الثالثُ من حقوق الجار: الإحسانُ إليه؛ فذلك دليل الفضل، وبرهان الإيمان، وعنوان الصدق.

جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره» الحديث، ولمسلم ـ أيضاً ـ : «فليحسن إلى جاره».

ومن ضروب الإحسان إلى الجار تعزيته عند المصيبة، وتهنئته عند الفرح، وعيادته عند المرض، وبداءته بالسلام، وطلاقة الوجه عند لقائه، وإرشاده إلى ما ينفعه في دينه ودنياه، ومواصلته بالمستطاع من ضروب الإحسان.

الرابع: من حقوق الجار احتمال أذاه: وذلك بأن يغضيَ عن هفواته، ويتلقى بالصفح كثيراً من زلاته، ولا سيِّما إساءةً صدرت من غير قصد، أو إساءةً ندم عليها، وجاء معتذراً منها؛ فاحتمالُ أذى الجارِ ومقابلةُ إساءتِه بالإحسان من أرفع الأخلاق، وأعلى الشيم.

ولقد فقه السلف هذا المعنى، وعملوا به، روى المرّوذي عن الحسن: ليس حسنُ الجوارِ كفَّ الأذى، حسنُ الجوارِ الصبرُ على الأذى.

هذه هي الأصولُ الأربعةُ التي عليها مدارُ حقوقِ الجارِ، ومع عظم ذلك الحقِّ إلا أن هناك تقصيراً كبيراً في حقِّ الجار من كثيرٍ من ا لناس.

فمن صورِ ذلك التقصير مضايقةُ الجارِ، وحسدُه، واحتقارُه، وكشفُ أسراره، وتتبعُ عثراته، والفرحُ بزلاته.

ومن ذلك: إيذاؤه بالجلبة، ورفعُ الأصوات، وتأجيرُ مَنْ لا يرغب الجيران في إسكانه.

ومن صور التقصير في حق الجار: خيانتُه، والغدرُ به، وقلةُ الإحسان إليه، وتركُ النهوضِ لحمايته، وقلةُ الحرص على التعرف على الجيران، وقلةُ التفقد لأحوالهم.

ومن ذلك: قلةُ التهادي بين الجيران، والتكبرُ عن قبول هداياهم، ومنعُهم ما يحتاجون إليه من الأدوات اليسيرة، وقلةُ الاهتمام بإعادة المعار من الجيران إليهم.

ومن صور التقصير في حق الجيران: تركُ الإجابةِ لدعوتهم، وقلةُ المبالاة بدعوتهم إلى الولائم والمناسبات، وقلةُ المناصحة لهم، وقلةُ التعاون معهم على البر والتقوى.

ومن ذلك: كثرةُ الخصومةِ معهم، والتهاجرُ، والتدابرُ عند أدنى سبب، وقلةُ الحرص على إصلاح ذات البين إذا فسدت بين الجيران.

ومن صور التقصير في حق الجار: تركُ الإحسان إلى الجار الغريب، وقلةُ العناية باختيار الجار الصالح، والتفريطُ به، وقلةُ الوفاء للجيران بعد الرحيل عنهم.

وخلاصة القول: أن انتظام رابطة الجوار أكبر شاهد على رقي المجتمع، وسمو آدابه، والعكس بالعكس، وبإصلاح تلك الرابطة تطوى عند المحاكم قضايا كثيرة لا منشأ لها إلا عدم رعاية حق الجار.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.



الدرس التاسع عشر — رمضان شهر الحرية (١)

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على رسوله الصادق الأمين المكين، نبي الحرية، وعدو العبودية، ومطهر العقول من أدران الوثنية، وسائق ركب الإنسانية إلى السعادة الأبدية، وعلى آله وصحبه أحلاف السيوف، وقادة الزحوف، وأئمة الصفوف، وعلى التابعين لآثارهم في نصرة الدين إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن رمضانَ شهرُ الحريةِ الحقَّة، ومدرسةُ الأحرارِ الشرفاءِ بالمعنى الصحيح.

والحديث ههنا سيدور حول هذا المعنى العظيم.

أيها الصائمون الكرام! ليست الحريةُ كما توهمها أكثرُ الناسِ، مقصورةً على حق الإنسان بالتصرف كيفما أراد، وليست الحرية بالانطلاق وراء الشهوات، وسائر الرغبات؛ فتلك الفوضى أولاً، والعبوديةُ الذليلةُ أخيراً.

أما إنها فوضى؛ فلأنه ليس في الدنيا حريةٌ مطلقةٌ غيرُ مقيدةٍ بنظام، بل كلُّ شيء في الدنيا له نظامٌ يُسيّره، وحريةُ الفردِ لا تصان إلا إذا قُيِّدت ببعض القيود؛ لتسلم حرياتُ الآخرين.

وإنما تمامُ الحرية-لا كمالُها-قد يكون بالمنع أحياناً؛ فالمريضُ حين يُمنع عن الطعام الذي يضره هو حرٌّ لم يُنْتَقَصْ من حريته فتيلٌ ولا قطميرٌ؛ فذلك المنع إنما هو منعٌ مؤقتٌ؛ لتسلم له بعد ذلك حريتُه في تناول ما يشاء من الأغذية.

والمجرمَ تُحَدُّ حريتُه مؤقتاً؛ ليعرف كيف يستعمل حريته بعد ذلك في إطار كريم، لا يؤذي نفسه، ولا يؤذي الآخرين.

ثم إن الإنسانَ مدنيٌّ بطبعه؛ فلا يعيش وحده، وإنما يعيش في مجتمعٍ متماسك

يؤذيه كلُّه ما يؤذي بعضَه، ومن هنا كانت الحريةُ المطلقةُ فوضى.

أما كونُها عبوديةً ذليلةً فلأن تمامَ الحريةِ ألا يستعبدك أحدٌ ممن يساويك في الإنسانية، أو يكون دونك فيها.

وفي الفوضى التي يعبر عنها الناسُ بالحرية الشخصية عبوديةٌ ذليلةٌ لمن هو مثلُك، أو دونك من قيم الحياة المادية؛ فحين تستولي على الإنسان عادةُ الانطلاق وراء كلِّ لذةٍ، والانفلاتِ من كلِّ قيد يكون قد استعبدته اللذةُ على أوسع مدى، فيصبح أسيراً لها مُكَبَّلاً في أغلالها، لا يجري في الحياة إلا لأجلها، ولا يعمل إلا وَفْقَ ما تريد؛ فهذه الحريةُ التي تنقلب إلى عبودية أهونُ ما في الحياة من قيمة ومعنى.

ولئن كانت قيمةُ الإنسان بمقدار ما يناله من لذائذه ـ فإن الحيوانَ أكثرُ منه قيمة، وأعلى قدراً.

وحين ينطلق الإنسانُ وراء فتاةٍ يهواها، أو وراءَ الغانيات يشبع بهن لذائذَه، أيستطيع أن يزعم أنه حر من سلطانهن؟!! أو تراه أسيرَ اللحظات، رهنَ الإشارةِ، شاردَ اللبِّ، مُعَنَّى القلبِ أقصى أمانيه في الحياة بسمة من حبيبٍ هاجرٍ، أو وصال من جسم ممتنع؟!

أيةُ عبوديةٍ أذلُّ من هذه العبودية، وهو لا يملك زِمامَ نفسِه، ولا حريةَ قلبِه؛ فلا يتحكم في حبه ولا بغضه، ولا رضاه، ولا غضبه؟!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فإنَّ أسْرَ القلبِ أعظمُ من أسر البدن، واستعبادَ القلب أعظمُ من استعباد البدن؛ فإن من استُعْبِد بدنُه، واستُرِقّ وأُسِر لا يبالي إذا كانَ قلبُه مستريحاً من ذلك مطمئناً، بل يمكنه الاحتيالُ في الخلاص؛ وأما إذا كان القلب ـ الذي هو مَلِك الجسم ـ رقيقاً مستعبداً متيَّماً لغير الله؛ فهذا هو الذلُّ، والأسرُ المَحْضُ، والعبوديةُ الذليلة لما استَعْبَدَ القلبَ.

وعبوديةُ القلب، وأسرُه هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب؛ فإن المسلمَ لو أسره كافرٌ أو استرقّه فاجرٌ بغير حق؛ لم يضرَّه ذلك إذا كان قائماً بما يقدر عليه من الواجبات، ومن استُعْبِد بحق إذا أدى حقَّ الله وحقَّ مواليه فله أجران، و لو أُكره على التكلّم بالكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضرَّه ذلك.

وأما من استُعْبِد قلبُه، فصار عبداً لغير الله، فهذا يضره ذلك، ولو كان في الظاهر ملكَ الناس؛ فالحريةُ حريةُ القلب، والعبوديةُ عبودية القلب، كما أن الغنى غنى النفس.

قال النبي ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض؛ وإنما الغنى غنى القلب». اهـ.

أيها الصائمون الكرام! وحين يسترسل الإنسان في تناول المسكرات والمخدرات يعبُّ منها ما تناله يده؛ حتى تتلف أعصابه وصحته، وتسلبه عقلَه وكرامتَه، أيزعم بعد ذلك أنه حر؟! أيوجد أبشعَ من هذه العبودية لشراب قاتل، وسموم فتاكة؟!

وقل مثل ذلك في التهالك على المال والجاه، إن ذلك حين يستولي على قلب الإنسان ونفسه ينقلب إلى عبودية ذليلة، وكلُّ هوىً يتمكن من النفس حتى تكون له السيطرة على الأعمال والسلوك يفضي بصاحبه إلى عبودية ذليلة مقيتة لا نهاية لقبحها.

ومن أعجب أساليب القرآن تعبيرُه عن مثل هذه الحالة بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾؛ فليست العبودية الذليلة -إذاً- قيداً ولا سجناً فحسب، فهذه أيسرُ أنواع العبودية، وأسرعُها زوالاً.

ولكن العبوديةَ الذليلةَ عادةٌ سيئةٌ تتحكم، وشهوة عارمة تستعلي، ولذةٌ محرمةٌ تُطاع.

وليست الحريةُ هي القدرةَ على الانتقال من بلد إلى بلد آخر، فتلك أيسرُ أنواعِ الحرية، وأقلُّها ثمناً؛ ولكن الحريةَ الحقَّة: أن تستطيعَ السيطرةَ على أهوائك ونوازع الشر في نفسك، وإن الحرية الحقَّة ألا تستعبدَك عادةٌ، ولا تَستذِلَّك شهوةٌ.

وبهذا المعنى كان المؤمنون ـ حقاً ـ هم أهلُ الحرية الحقَّة؛ فعبوديتهم لله، تحررهم من كل عبودية، وإخلاصُهم لله، يَصْرِفُ عنهم كلَّ ذِلَّةٍ وتبعيَّة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «من أراد السعادة الأبدية؛ فليلزم عتبةَ العبودية».

وقال رحمه الله: «وإذا كان العبدُ مخلصاً لله اجتباه ربه، فأحيا قلبه، واجتذبه إليه، فينصرف عنه السوء والفحشاء، ويخاف من ضد ذلك

بخلاف القلب الذي لم يخلصْ لله، فإن فيه طلباً، وإرادةً، وحباً مطلقاً، فيهوى كلَّ ما يسنح له، ويتشبث بما يهواه؛ كالغصن أيُّ نسيم مرَّ به عَطَفه وأماله؛ فتارة تجتذبه الصورُ المحرمةُ؛ فيبقى أسيراً عبداً لمن لو اتخذهُ هو عبداً لكان ذلك عيباً، ونقصاً، وذماً.

وتارة يجتذبه الشرفُ، والرئاسةُ، فترضيه الكلمةُ، وتغضبه الكلمةُ، ويستعبده مَنْ يثني عليه ولو بالباطل، ويعادي مَنْ يذمه ولو بالحق.

وتارة يستعبده الدرهمُ والدينارُ، وأمثالُ ذلك من الأمور التي تستعبد القلوبَ، والقلوبُ تهواها؛ فيتخذُ إلهَه هواه، ويتبعُه بغير هدى من الله.

ومن لم يكن خالصاً لله، عبداً له، قد صار قلبُه مُعَبَّداً لربه وحده لا شريك له، بحيث يكون هو أحبَّ إليه مما سواه، ويكون ذليلاً له، خاضعاً، وإلا استعبدته الكائناتُ، واستولت على قلبه الشياطينُ، وصار فيه من السوء، والفحشاء ما لا يعلمه إلا اللهُ، وهذا أمرٌ ضروريٌّ لا حيلةَ فيه.» ا ـ هـ.

وهكذا يتبين لنا أن المؤمنين الذين يخضعون لأمر الله ونهيه هم أكملُ الناس، وأعقلُهم، وأسعدُهم، وهم في الوقت نفسه أكثر الناس حرية؛ فخضوعهم لله حررهم حتى من أنفسهم.

أيها الصائمون الكرام! بهذا المعنى الدقيق نستقبل رمضان على أنه شهر الحرية، وعلى أن الصيام مدرسةٌ لتخريج الأحرار بالمعنى العلمي الصحيح.

في رمضانَ جوعٌ وعطشٌ، وفيه قيدٌ وحرمانٌ، ولكنه يمنحنا الصحةَ، ويحررنا من العبودية ؛يحررنا من عبودية الطعام،والشراب، وعبودية العادة، والحياة المملة.

في رمضانَ امتناعٌ عن اللذة اختياراً، وهذه هي الحريةُ؛ فحرية الإرادة أن تعمل وفق ما يمليه عليك دينُك، ووازع عقلك، لا ما تمليه عليك عاطفتك وشهوتك؛ فأنت -إذاً- قوي الإرادة، ضعيفُ الهوى، تضبط ميولَك بإحكام عقلك.

ومن اتصف بهذا كان جديراً بالنصر في كل معركة يخوضها، وما قصة طالوت لما فصل بالجنود عنا ببعيد، قال -تعالى- ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾

فانظر كيف هزموا عدوهم بعد أن هزموا شهواتهم!!.

أيها الصائمون الكرام! في رمضان عبودية كاملة، وهذه هي الحرية الكاملة؛ فأكثر الناس حرية أشدهم لله عبودية.

في رمضان امتناع عن كل خلق رذيل، وقول ذميم، ومقالة ذميمة؛ فما أحلى هذه الحرية ؛فأنت في الخلق الكريم حرٌّ فلا تهان، ولا تُنْتَقَصُ في قدر ولا جاه، وأنت في القول الكريم حُرٌّ فلا تُضْطَرُّ إلى اعتذار، ولا تتعرضُ لملامة، ولا يملأ نفسَك ندمٌ.

وأنت في المعاملة الكريمة حرٌّ؛ فلا تلوكك الألسنُ، ولا تتحدث عن خيانتك المجالسُ، ولا تعلق بذمتك الشهواتُ.

أيها الصائم الكريم هذا هو رمضان؛ يعلمنا الحرية بأجمل معانيها في جوعه، وعطشه، وقيوده، وحرمانه، أفلست تعشق هذه الحرية التي تنطلق من الجوع والحرمان؟!.

لا إخالك إلا كذلك، وللحديث صِلة ـ إن شاء الله ـ وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس العشرون

رمضان شهر الحرية (٢)

الحمد لله، الذي شرح صدور المؤمنين للإيمان، وحررهم من عبودية الأصنام والأوثان، والصلاة والسلام على نبينا محمد ما تعاقب الملَوَان، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان، أما بعد:

فلقد كان الحديث سالفاً عن الحرية الحقّة، وعن أثر الصيام في بثها في نفوس الصائمين، ومر بنا كيف تكون حال الإنسان إذا هو أطلق لنفسه باب الحرية، واستعبدته الشهوات، وسائر الرغبات.

وإذا أردت أيها الصائمُ الكريمُ مثالاً يثبّتُ فؤادَك، وَيدُلُّك على أن الحرية المطلقة شؤمٌ وبلاءٌ على أصحابها ـ فانظر إلى حال المجتمعات الكافرة المعاصرة؛ فها هي قد فتحت أبواب الحرية على مصاريعها، فلم يَعُدْ يردَعُها دينٌ، أو يزمُّها ورعٌ، أو يحميها حياءٌ؛ فمن كفرٍ وإلحادٍ، إلى مجون وخلاعة وإباحية مطلقة، ومن خمور ومخدرات إلى زناً ولواط وشذوذ بكافة أنواعه مما يخطر بالبال ومما لا يخطر؛ فكيف تعيش تلك الأمم، وهل وصلت للسعادة المنشودة؟!

والجواب: لا؛ فما زادهم ذلك إلا شقاءًا وحسرةً؛ فسنة الله ـ عز وجل ـ في الأمم هي سنته في الأفراد؛ فمتى أعرضت عن دينه القويم، وتنكبت صراطه المستقيم أصابها ما أصابها بقدر بعدها وإعراضها.

ولهذا تعيش تلك الأمم حياةً شقيةً تعيسةً صعبةً معقدةً؛ حيث يشيع فيها القلق والاضطراب، والتفكك، والقتل، والسرقة، والشذوذ، والاغتصاب، والمخدرات، وأمراض الجنس، وتُفقد فيها الطمأنينةُ، والراحةُ، والمحبةُ، والصلةُ، والتعاطفُ، والتكافلُ إلى غير ذلك من المعاني الجميلة.

قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾.

كيف تسعد تلك الأمم وفي داخل كلِّ إنسانٍ منها أسئلةٌ محيرة؟ مَنْ خَلَق الحياةَ؟ وما بدايتُها؟ وما نهايتُها؟ وما سرُّ تلك الروح التي لو خرجت لأصبح الإنسان جماداً؟!

إن هذه الأسئلة قد تهدأُ في بعض الأحيان؛ بسبب مشاغل الحياة، ولكنها لا تلبثُ أن تعودَ مرةً أخرى.

وكيف تسعدُ تلك الأممُ وهي تعيشُ بلا دينٍ يزكي نفوسَها، ويضبط عواطفَها، ويَرْدَعُها عن التمادي في باطلها، ويسدُّ جوعتَها بالتوجه إلى فاطرها؟!

إن الكنيسة بتعاليمها المحرفةِ لا تستطيع أن تجيب عن الأسئلة الماضية بدقة ووضوح، ولا تملك منهجاً يزكي النفوس، ويقنع العقول، وتسير عليه أمور الناس بانتظام.

ولقد زاد هذا الأمرُ ضراوةً بعد أن تراجعت الكنيسةُ أمام ضربات الإلحاد؛ فما أغنت تلك الحريةُ المزعومةُ، والإباحيةُ المطلقةُ عن تلك المجتمعات فتيلاً، أو قطميراً، ولا جلبت لها السعادة الحقّةَ، ولا الحياة الكريمةَ؛ ولهذا فإن الناس هناك يبحثون عمّا يريحهم من هذا العناء والشقاء؛ فمنهم من يلجأ إلى المخدرات والمهدئات التي تضاعف البلاء، وتزيد في الشقاء.

ومنهم من يروي غليلَه بالشذوذ الجنسي؛ حتى يفقد إنسانيته، ويلتحق بالأنعام في حياتها السافلةِ، ويفقد مع ذلك صحته وسعادته، ويكون عرضةً للإصابة بأمراض الشذوذ المتنوعة، وما يصاحبها من ضيق وتكدّر.

ومنهم من يُروي غُلّته بالسطو، والسرقة، حتى إن الناس هناك لا يكادون يأمنون على أموالهم وممتلكاتهم، بل لقد أصبحت السرقة تعتمد على الدراسة، والتكنولوجيا الحديثة المجهزةِ بأحدث الوسائل والأساليب القائمة على أحدث المبتكرات، والتخطيط لكل عملية سطو.

وبعضُ أولئك يسلك طريقَ القتل؛ ليتشفى من المجتمع، ويطفئَ نار الحقد المتَّقِدَة في صدره، فتراه يتحيَّن الفرص، وينتهز الغِّرة، ليهجم على ضحية يفقدها الحياة، ثم يبحث عن ضحية أخرى.

بل لقد أصبح القتل عند بعضهم متعةً، ونوعاً من اللذة، وكثيراً ما يكون لأتفه الأسباب، حتى إن الواحد قد يقتل أقرب الأقربين إليه.

ومنهم مَنْ يبلغ به الشقاءُ والهمُّ غايتَه؛ فلا يجد ما يسعده، أو يريحه من همومه، وغمومه، ولا يرى ما ينفّس به كربتَه، أو يعينه على تحمل أعباء حياته؛ فيلجأ حينئذ إلى الانتحار، رغبة في ا لتخلص من الحياة بالكُلِّيَّة.

ولقد أصبح الانتحار سمةً بارزةً في تلك المجتمعات، وصارت نسبته تتزايد، وتهدد الحضارة الغربية بأكملها.

ولقد أقلق كثرةُ الانتحار علماءَ الاجتماع في تلك البلاد؛ حيث أصبح عددُ المنتحرين يفوق عددَ القتلى في الحروب، وفي حوادث السيارات.

أما طرق الانتحار :فتأخذ أساليبَ متنوعةً، فهذا ينتحر بالغَرَق،وذاك بالحَرْق، وهذا بابتلاع السموم، وذاك بالشنق، وهذا بإطلاق الرصاص على نفسه، وذاك بالتردِّي من شاهق، وهكذا...

أما أسباب الانتحار: فمعظمُها تافهةٌ حقيرةٌ، لا تستدعي سوى التغافل، وغض الطّرف عنها؛ فهذا ينتحر بسبب الإخفاق في امتحان الدراسة أو الوظيفة، وذاك

بسبب وفاة المطرب الذي يحبه، أو هزيمة الفريق الذي يميل إليه، وهـذا ينتحر بسبب وفـاة عشيقتـه، وهذه تنتحر بسبب تخلي عشيقها عنها، بل ومنهم من انتحر بسبب وفاة كلبـه!!

بل ومنهم من ينتحر بلا سبب ظاهر، ويبقى السبب الأول للانتحار؛ وهو الكفر بالله، وما يستَتْبِعُه من الضَّنْك، والشدة، وقلة التفكير في المصير.

والغريب في الأمر أن نسبةً كبيرةً من المنتحرين ليسوا من الفقراء حتى يقال: إنهم انتحروا لقلة ذات اليد؛ وإنما هم من الطبقات المُغْرِقة في النعيم، البعيدة الصيت والشهرة، الرفيعة في الجاه والمنصب؛ بل وينتشر الانتحار في طبقات الأطباء، والمثقفين، ومما يلفت النظر أن أشد هذه البلاد تحلُّلاً وإباحية هي أكثرها انتحاراً.

ومن الأشياء التي استحدثوها للتّخفيف من الانتحارات المتزايدة ـ إنشاء مركز يتلقى مكالمات المُقْدِمين على الانتحار، أو من لديهم مشكلة عاطفية، أو الذين يعانون من ضيق الصدر.

والعجيب في الأمر أن يكون للانتحار مؤيدون وأنصار؛ حيث تكونت في بريطانيا جمعيةٌ للمنتحرين، وأصدرت كُتيِّباً، وأَخَذَتْ توزِّعه على أعضائها الذين يحبذون، ويؤيدون حقَّ المرضى بالانتحار عندما يتألمون، وعندما يقرر الطبيب أن حالتهم ميؤوس منها!!.

وقد نص الكُتَيِّبُ على الوسائل السريعة وغير المؤلمة التي يمكن أن تساعد السّاعين إلى الانتحار على تنفيذ رغبتهم!

فلماذا ينتحر هؤلاء؟ ولماذا يستبدُّ بهم الألم، ويذهبَ بهم كل مذهب مع أن أبواب الحرية مفتوحة لهم على مصاريعها؟

والجواب: أنهم فقدوا ينبوعَ السعادة، وسببَها الأعظمَ؛ ألا وهو الإيمان بالله ـ عز

وجل- فلم تُغْنِ عنهم حريتُهم شيئاً، ولم يجدوا ما يطفئ لَفْح الحياة، وهجيرَها، وصخبَها، فلا يكادون يحتملون أدنى مصيبة تنزل بهم.

تُرَى! لو كانت قلوبُ أولئك مطمئنةً بالإيمان أتكون حالهم هكذا؟ ولو كانوا مسلمين يؤدون الصيام على الوجه المطلوب أتكون نفوسهم ضعيفة إلى هذا الحد؟

أيها الصائمون الكرام! هذه هي حال الأمم إذا هي أبعدت عن هداية الإسلام، وأطلقت لنفسها الحرية المطلقة.

ومع ذلك تراهم يصدِّرون إليها تعاستهم، وشقاءهم؛ فهل اطلع على تلك الحال المزرية مَنْ يريدون أن تكون بلاد الإسلام كتلك البلاد تهتكاً، وتوقُّحاً، ودعارة وفساداً؟!

وهل يريدون أن يكون مصير بلاد الإسلام كذلك المصير؟!

إن كانوا لم يطلعوا؛ فتلك مصيبة، وإن كانوا مطلعين فالمصيبة أعظم.

وهكذا يتبين لنا أثرُ الصيام في منح الحرية الحقّة.

اللهم إننا نسألك حبك، وحبَّ من يحبك، وحبَّ العمل الذي يقربنا إلى حبك، اللهم زدنا عبودية لك، وحرية مما سواك، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد.



الدرس الحادي والعشرون — الصلاة أهميتها وثمراتها

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإن رمضانَ المباركَ شهرُ القيام، وشهرُ الإقبال على الله بسائر القربات وشتى الطاعات.

وما من ريب أن من أعظمِ القُرُبَات، وأجلِّ الطاعات فريضةَ الصلاةِ، والمؤمنون يزيد إقبالهم على الصلاة في رمضان، فنهارهم صيام، وليلهم تهجد وقيام.

والحديث ههنا سيكون حول أهمية الصلاة، وفضلها وثمراتها.

أيها الصائمون الكرام! للصلاة في دين الإسلام أهمية عظمى، فهي عمود الدين، وأعظم الأركان العملية، وهي أول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة، فإن قُبلت قُبل سائر عمله، وإن ردت ردّ.

والصلاة: علامةٌ على الإيمان، وسلامةٌ من النفاق، ومن حفظها حفظ دينَه، ومن ضيَّعها فهو لما سواها أضيعُ.

ثم إن قدرَ الإسلام في قلب الإنسان كقدر الصلاة في قلبه، وحظّه في الإسلام على قدر حظه من الصلاة.

ومما يدل على أهميتها: أن اللهَ قرنها بالإيمان به وتوحيدِه في مواضعَ كثيرةٍ من القرآن، قال-عز وجل-: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾.

وقال: ﴿ وَمَا أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾.

ومما يدل على أهميتها: أن الله ـ عز وجل ـ أمر بالمحافظة عليها في السفر، والحضر، وفي السِّلم والحرب، وفي حال الصحة، وحال المرض.

ثم إن ترك الصلاة من أكبر الكبائر؛ فهو أكبر من الزنا، والسرقة، وشرب الخمر.

وتاركَها متعرِّضٌ للوعيد الشديد؛ بل إن تركَها كُفرٌ بالله ـ عز وجل ـ فقد أجمع علماء الإسلام على أن من تركها جاحداً لوجوبها ـ فإنه كافر بالله كفراً أكبر مخرجاً من الملة.

ومن تركها تكاسلاً وتهاوناً فقد اختلف العلماء في حكمه، فمنهم من قال: إنه يكفر كفراً أكبر مخرجاً من الملة، ومنهم من قال: إنه كفر لا يخرج من الملة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأما تارك الصلاة فهذا إن لم يكن معتقداً لوجوبها؛ فهو كافر بالنص والإجماع».

وقال: «ومن يمتنع عن الصلاة المفروضة؛ فإنه يستحق العقوبة الغليظة باتفاق المسلمين، بل يجب عند جمهور الأمة كمالك والشافعي وأحمد وغيرهم أن يستتاب فإن تاب و إلا قتل؛ بل تاركُ الصلاةِ شرٌّ من السارق، والزاني، وشارب الخمر، و آكل الحشيشة».

وسُئل رحمه الله عن رجل يأمره الناس بالصلاة ولم يصلِّ، فما الذي يجب عليه؟

فأجاب: «إذا لم يصلِّ فإنه يُستتاب، فإن تاب و إلا قتل والله أعلم».

وقال رحمه الله: «ومتى امتنع الرجل من الصلاة حتى يُقتل لم يكن في الباطن مقراً بوجوبها، ولا ملتزماً بفعلها، وهذا كافرٌ باتفاق المسلمين كما استفاضت الآثارُ عن

الصحابة بكفر هذا، ودلت عليه النصوص الصحيحة كقوله ﷺ :«ليس بين العبد وبين الكفر إلا ترك الصلاة» ،رواه مسلم.

وقوله : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر» ، وقول عبدالله بن شقيق :«كان أصحاب محمد لا يرون شيئاً من الأعمال تركُه كُفْرٌ إلا الصلاة».

فمن كان مصراً على تركها حتى يموت لا يسجد لله سجدة، فهذا لا يكون قط مسلماً مقراً بوجوبها» انتهى كلامه رحمه الله.

أيها الصائمون الكرام! هذا شيء مما يدل على أهمية الصلاة.

أما ثمراتها وفضائلها فيقصر دونها العد والإحصاء؛ فمن ثمراتها: أنها سلامةٌ من الاتصاف بصفات المنافقين، وسلامةٌ من الحشر مع فرعون وقارون وهامان وأبيّ بن خلف؛ فمن ترك الصلاة حُشر مع أحد أئمة الكفر من هؤلاء كما قال ـعليه الصلاة والسلام ـ.

ومن ثمرات الصلاة: أنها قُرةٌ للعين، وفَرَحٌ للفؤاد، قال النبي ﷺ :«حبِّب إلى من دنياكم النساءُ والطيبُ، وجُعِلَت قرةُ عيني في الصلاة». رواه أحمد والنسائي والحاكم، وقال: هذا صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

قال ابن القيم رحمه الله معلقاً على هذا الحديث:«فأخبر أنه حُبِّب إليه من الدنيا شيئان:«النساء والطيب» ثم قال:«وجعلت قرةُ عيني في الصلاة».

وقرةُ العينِ فوقَ المحبة؛ فإنه ليس كلَّ محبوبٍ تَقَرُّ به العينُ، وإنما تقر بأعلى المحبوبات الذي يُحب لذاته، وليس ذلك إلا الله الذي لا إله إلا هو».

إلى أن قال رحمه الله : «فالصلاةُ قرةُ عيون المحبين في هذه الدنيا؛ لما فيه من مناجاةِ مَنْ لا تَقَرُّ العيونُ، ولا تطمئن القلوب، ولا تسكن النفوس إلا إليه، والتنعمِ بذكرِهِ، والتذلل والخضوع له، والقرب منه ولاسيما في حال السجود، وتلك الحالُ أقربُ ما

يكون العبد من ربه فيها، ومن هذا قول ﷺ: «يا بلال! أرحنا بالصلاة».

فَأَعْلَم بذلك أن راحته ﷺ في الصلاة، كما أخبر أن قرةَ عينه فيها، فأين هذا من قول القائل: نصلي ونستريح من الصلاة؟!

فالمحب راحتهُ، وقرةُ عينه في الصلاة، والغافلُ المعرضُ ليس له نصيب من ذلك، بل الصلاةُ كبيرةٌ شاقةٌ عليه، إذا قام فيها كأنه على الجمر حتى يتخلّص منها، وأحبُّ الصلاة إليه أعجلُها، وأسرعُها؛ فإنه ليس له قرةُ عينٍ فيها، ولا لقلبه راحةٌ بها، والعبدُ إذا قَرَّت عينُه بشيء، واستراح قلبُه به فأشق ما عليه مفارقَته، والمتكلّف الفارغ القلب من الله والدار الآخرة المبتلى بمحبة الدنيا أشقٌّ ما عليه الصلاة وأكرهُ ما إليه طولها مع تفرغه، وصحته، وعدم اشتغاله»، انتهى كلامه رحمه الله.

أيها الصائمون الكرام! ومن ثمرات الصلاة أنها نورٌ في الوجه، وقوةٌ في القلب، وأنها منشطةٌ للجوارح.

والصلاة التي كمل ظاهرُها وباطنُها تصعد ولها نورٌ وبرهانٌ كنور الشمس حتى تُعْرَضَ على الله فيرضاها ويقبلها، وتقول: حفظك الله كما حفظتني.

والصلاةُ جالبةٌ للرزق، داحضةٌ للظلم، زاجرةٌ عن الفحشاء والمنكر، وهي قامعةٌ للشهوات، منـزِلَةٌ للرحماتِ، حافظةٌ للنعم، دافعةٌ للنقم، كاشفةٌ للهـم والغـم.

والصلاة تقرِّب العبدَ من ربه؛ فحظُّ العبدِ من القرب من الله على قدر حظه من مقام الإحسان، وبحسبه تتفاوت الصلاة، حتى يكون بين صلاة الرجلين من الفضل كما بين السماء والأرض، وقيامُهما وركوعهما وسجودهما واحد.

وفي الصلاة: تعليمٌ للجاهل، وتذكيرٌ للفاضل، وتشجيعٌ للمتكاسل، وبالصلاة يحصل التعاونُ على البر والتقوى، وتسودُ المودةُ بين المسلمين؛ فالقرب في الأبدان مدعاةٌ للقرب في القلوب.

وللصلاة تأثيرٌ عجيبٌ في دفع شرور الدنيا والآخرة، ولا سيما إذا أُعطيت حقَّها من التكميل ظاهراً وباطناً؛فما استُدفعت شرورُ الدنيا والآخرة بمثل الصلاة، وما استُجلبت مصالِحُهما بمثل الصلاة؛ لأنها صلةٌ بين العبد وربه، وبقدر تلك الصلاة تُفتَح له أبوابُ الخيرات، وتنقطع أو تقل عنه الشرور والآفات، وما ابتلي اثنان بعاهة أو مصيبة، أو مرضٍ واحدٍ إلا كان حظُّ المصلي منهما أقلَّ، وعاقبته أسلم، وتلقيه وصبرُه ورضاه أكملَ وأتمَّ.

والصلاة سببٌ لاستسهال الصعاب، وتحمُّلِ المشاق؛ فحينما تتأزم الأمورُ، وتضيق وتبلغ القلوبُ الحناجرَ يجد المؤمنون الصادقون قيمةَ الصلاة الخاشعة، وحسن تأثيرها، وبركة نتائجها.

والصلاة من أعظم الأسباب لتكفير السيئات، ورفعة الدرجات، وزيادة الحسنات.

وهي سببٌ لحسن الخلق، وطلاقةِ الوجه، وطيب النفس، وسموِّها.

وهي المددُ الروحيُّ الذي لا ينقطع، والزاد المعنويُّ الذي لا ينضب؛ فهي أعظم غذاء وسَقْي لشجرة الإيمان؛ فهي التي تنميه، وتثبته.

والمحافظةُ عليها تقوي رغبةَ الإنسان في فعل الخيرات، وتسهل عليه فعل الطاعات، وتُضعف أو تُذهب دواعي الشر من نفسه، وهذا أمر مشاهد محسوس؛ فإنك لا تجد محافظاً على الصلاة ـ فرضِها ونفلِها ـ إلا وجدت أثرَ ذلك في بقية أعماله.

ومن فوائد الصلاة: أن أهلَها أثبتُ الناسِ عند الفتن، وأكثرهم غيرة على محارم الله.

والصلاةُ علاجٌ لأدواء النفس الكثيرة، كالبخل، والشح، والحسد، والهلع، والجزع، والخوَر وغيرها.

ومن الفوائد الطبية للصلاة: ما فيها من الرياضةِ المتنوعةِ، المقويةِ للأعضاء، النافعةِ للبدن.

ومن ذلك أنها نافعةٌ في كثير من أوجاع البطن؛ لأنها رياضة للنفس والبدن معاً.

أضف إلى ذلك الطهارةَ المتكررةَ، وما فيها من نفع، كل ذلك مشاهد محسوس.

ومن فوائدها الطبية: أنها -كما مر- تقوي القلبَ، وتشرح الصدرَ، وتفرح النفسَ والروحَ.

ومعلوم عند جميع الأطباء أن السعيُ في راحة القلب، وسكَون النَّفْس، وزوال الهم والغم، وحسن الاستقبال لحوادث الحياة -يعد من أكبر الأسبابِ الجالبة للصحة المخففةِ للآلام.

وذلك مشاهد مجرب في الصلاة خصوصاً صلاةَ الليل أوقاتَ الأسحار.

ومن الفوائد الصحية التي تحصل بالصلاة: ما أظهر الطب الحديث من فوائد عظيمة للصلاة، وهي أن الدماغَ ينتفع انتفاعاً كبيراً بالصلاة ذاتِ الخشوع، كما قرر ذلك كبارُ الأطباءِ في هذا العصر، حتى من غير المسلمين، ولعل هذا سر من أسرار قوة عقول الصحابة ومن تبعهم بإحسان.

أيها الصائمون الكرام! هذا فيض من غيض من بركات الصلاة وثمراتها، وكلما زاد المسلم اهتماماً بها، ومحافظة عليها زادت فائدته، وعظمت بركته، والعكس بالعكس.

اللهم اجعلنا من مقيمي الصلاة، وممن يجدون قرة عيونهم بها.

وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد.

❖❖❖

الدرس الثاني والعشرون — رمضان شهر الذكر (١)

الحمد لله الذي أمر بذكره، ووعد الذاكرين بثوابه وجزيل فضله، والصلاة والسلام على إمام الذاكرين، وقدوة الناس أجمعين، نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن رمضانَ موسمُ الخيرات، وميدان التنافس في القربات.

وإن ذكر الله ـ عز وجل ـ لمن أعظم ما يُتقرب به، وأجلِّ ما يسابق ويتنافس عليه؛ إذ هو المقصود الأعظم في مشروعية العبادات؛ فما شرعت الصلاة إلا لإقامة ذكر الله ﴿ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾.

ولا شُرِعَ الطوافُ بالبيت العتيق، ولا رميُ الجمار، ولا السعي بين الصفا والمروة إلا لإقامة ذكر الله ـ عز وجل ـ وهكذا بقية الأعمال الصالحة.

ونصوص الشرع متضافرةٌ متظاهرةٌ على فضل الذكر، وعموم نفعه، والثناء على أهله، والحث على الإكثار منه.

قال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴾.

وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾

وقال: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾

وقال: ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «مما هو كالإجماع بين العلماء بالله، وأمره أن

ملازمة ذكر الله دائماً هو أفضل ما شغل به العبدُ نفْسَه في الجملة.

وعلى ذلك دلَّ حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم «سبق المفَرِّدون».

قالوا: يا رسول الله! ومن المفردون؟

قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات».

وفيما رواه أبو داود[1] عن أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، ومن أن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟»

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: «ذِكرُ الله».

والدلائل القرآنية، والإيمانية بصراً، وخبراً، ونظراً على ذلك كثيرة.

وأقل ذلك أن يلزم الإنسانُ الأذكارَ المأثورةَ عن معلم الخير، وإمام المتقين ﷺ كالأذكار المؤقته في أول النهار، وآخره، وعند أخذ المضجع، وعند الاستيقاظ في المنام، وأدبار الصلوات، ودخول المنزل، والمسجد، والخلاء، والخروج من ذلك، وعند المطر، والرعد وغير ذلك.

وقد صنفت له الكتب المسمَّاة بعمل اليوم والليلة.

ثم ملازمة الذكر مطلقاً، وأفضله :«لا إله إلا الله».

وقد تعرض أحوال يكون بقية الذكر مثل: «سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله» أفضل منه» انتهى كلامه رحمه الله.

معاشر الصائمين: فوائد الذكر لا تكاد تحصى لكثرتها، وتنوع بركتها، وإليكم نبذةً عن تلكم الفوائد على سبيل الإجمال.

---

١ ـ لم أجده عند أبي داود، وإنما هو عند أحمد والترمذي وابن ماجة.

الذكر يرضي الرحمنَ، ويطرد الشيطانَ، ويزيل الهمَّ والغم، ويجلب البسطَ والسرور.

والذكر يجلب الرزق، ويحيي القلب، ويورث محبةَ الله للعبد، ومحبة العبد لله، ومراقَبَتهُ ـ عز وجل ـ ومعرفتَه، والرجوعَ إليه، والقربَ منه.

والذكر يَحُطُّ السيئاتِ، وينفع صاحبَه عند الشدائد، ويزيل الوحشةَ ما بين العبد وربه.

ومن فوائد الذكر أنه يؤمِّن من الحسرة يوم القيامة، وأن فيه شُغْلاً عن الغيبة، والنميمة، والفحش من القول، وأنَّه مع البكاء من خشية الله سببٌ لإظلال الله للعبد يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله.

معاشر الصائمين: الذكر أمانٌ من النفاق، أمانٌ من نسيان الله.

ومن فوائده أنه غراس الجنة، وأنه أيسر العبادت، وأقلُّها مشقة، ومع ذلك فهو يعدل عتق الرقاب، ويُرَتَّبُ عليه من الجزاء ما لا يرتب على غيره.

والذكر يغني القلب، ويسدُّ حاجته، ويجمعُ على القلب ما تفرق من إراداته وعزومه، ويفرق عليه ما اجتمع من الهموم والغموم والأحزان، والأنكاد، والحسرات.

ويفرق عليه ـ أيضاً ـ ما اجتمع على حربه من شياطين الإنس والجن.

والذكر يقرِّب من الآخرة، ويباعد من الدنيا، ويعطي الذاكرَ قوةً، حتى إنه لَيفعلُ مع الذكر ما لا يُظن فعلُه بدون الذكر.

ومن فوائده أنه رأس الشكر؛فما شكر الله من لم يذكره، وأن أكرم الخلق على الله من لا يزال لسانه رطباً من ذكر الله.

وبالذِّكر تَسْهُل الصعاب، وتَخِفُّ المشاق، وتُيَسَّر الأمور، وتذوب قسوة القلب،

وتُسْتَجْلَب بركة الوقت.

والذكر يوجب صلاةَ الله، وملائكتِه، ومباهاةَ الله -عز وجل- بالذاكرين ملائكتَه.

وللذكر تأثير عجيب في حصول الأمن، ودفع الخوف، ورفعه؛ فليس للخائف الذي اشتد خوفه أنفعُ من الذكر.

ثم إن الجبال والقفار تباهي وتبشر بمن يذكر الله عليها.

ودوام الذكر في الطريق، والبيت، والحضر والسفر، والبقاع-تكثير لشهود العبد يوم القيامة.

وللذكر من بين الأعمال لذة لا تُعَادِلُها لذة.

وبالجملة فإن ثمرات الذكر وفوائده، تحصل بكثرته، وباستحضار ما يقال فيه، وبالمداومة على الأذكار المطلقة، والمقيدة، وبالحذر من الابتداع فيه، ومخالفة المشروع.

اللهم اجعلنا من الذاكرين، وأعذنا من سبيل الغافلين.

وللحديث بقية، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.



الدرس الثالث والعشرون رمضان شهر الذكر (٢)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فقد كان الحديث الماضي يدور حول الذكر، والحديث هنا، إكمال لما مضى؛ حيث سيتناول فضلَ بعضِ الأذكار، وطبقاتِ الناسِ في الذكر، وعمومَ مفهومِ الذكر.

معاشر الصائمين: هناك أذكارٌ مطلقةٌ عظيمةٌ، وقد جاء في فضلها نصوصٌ كثيرة.

وأعظم هذه الأذكار: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله اكبر».

وقد جاء في فضلها أحاديث كثيرة، منها ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر-أحب إلي مما طلعت عليه الشمس»

ومن الأذكار العظيمة «لا حول ولا قوة إلا بالله».

ومعناها: لا تحول للعبد من حال إلى حال، ولا قوة له على ذلك إلا بالله.

وقد جاء في فضلها أحاديثُ كثيرةٌ منها ما جاء في سنن الترمذي عن عبدالله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «ما على الأرض أحدٌ يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله إلا كُفِّرتْ خطاياه، ولو كانت مثل زبد البحر»

قال الترمذي: «وهذا حديث حسن غريب».

وجاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا موسى، أو يا عبدالله بن قيس! ألا أدلك على كنز من كنوز الجنَّة».

قلت: بلى.

قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «لا حول ولا قوة إلا بالله تُحمل بها الأثقال، وتُكابد الأهوال، ويُنال رفيعُ الأحوال».

وقال ابن القيم ﷺ: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ تعالى يذكر أثراً في هذا الباب، ويقول: إن الملائكة لما أمروا بحمل العرش قالوا: ياربنا! كيف نحمل عرشَك وعليه عظمتُك وجلالك؟

فقال: قولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فلما قالوها حملوه».

وقال ابن القيم - أيضاً -: «وهذه الكلمة - يعني لا حول ولا قوة إلا بالله - لها تأثيرٌ عجيبٌ في معاناة الأشغال الصعبة، وتَحمُّلِ المشاقِّ، والدخولِ على الملوك، ومَنْ يُخاف، وركوب الأهوال، ولها - أيضاً - تأثيرٌ في دفع الفقر».

قال: «وكان حبيبُ بنُ مسلمةَ يَستَحب إذا لقيَ عدواً، أو ناهض حصناً، أن يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنه ناهض يوماً حصناً للروم فانهزم، فقالها المسلمون، وكبروا، فانهدم الحصن».

معاشر الصائمين: ومن الأذكار المطلقة العظيمة «سبحان الله وبحمده».

ولقد جاء في فضلها أحاديثُ كثيرةٌ، منها ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حُطَّت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»

ومن الأذكار العظيمة - كذلك -: «سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

فقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

ومن الأذكار العظيمة الاستغفار، والصلاة على النبي ﷺ.

وقد ورد في فضلهما آثارٌ كثيرةٌ، وألف في ذلك كتبٌ عديدةٌ، والمقام لا يتسع للتفصيل.

معاشر الصائمين: الناس في الذكر على أربع طبقات، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إحداها: الذكر بالقلب، واللسان، وهو المأمور به.

الثاني: الذكر بالقلب فقط، فإن كان مع عجز اللسان فحسنٌ، وإن كان مع قدرته فتركٌ للأفضل.

الثالث: الذكر باللسان فقط، وهو كون اللسان رطباً بذكر الله، ويقول الله -تعالى- في الحديث القدسي: «أنا مع عبدي ما ذكرني، وتحركت بي شفتاه».

الرابع: عدم الأمرين، وهو حال الأخسرين».

أيها الصائمون: للذكر مفهومٌ خاصٌ، وهو ما مضى الحديث عنه، وله مفهوم عامٌ شاملٌ، وهو كل ما تكلم به اللسان، وتصوره القلب، مما يقرب إلى الله، من تعلُّم علمٍ، وتعليمه، وأمرٍ بالمعروف، ونهيٍ عن المنكر-فهو ذكرٌ لله.

ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد أداء الفرائض، أو جلس مجلساً يتفقه أو يفقه فيه الفقهَ الذي سماه الله ورسوله فقهاً، فهذا-أيضاً-من ذكر الله.

وكذلك من قام بقلبه محبةُ الله، وخوفُه، ورجاؤه، ونحو ذلك فهو من ذكر الله.

كما يدخل في الذكر تلاوةُ القرآن، والدعاءُ، والصلاةُ، وإفشاءُ السلام، وإصلاحُ ذات البين، ومخاطبة الناس بالحسنى.

ويدخل في ذلك الصدقةُ، ونشرُ الكتب، والدعوةُ إلى الله، فكلُّ ذلك وغيره، داخلٌ في عموم مفهوم الذكر.

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك، وحسن عبادتك، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد.

الدرس الرابع والعشرون

فإنه أغض للبصر (١)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله صحبه ومن والاه، أما بعد:

فقد جاء في صحيح البخاري عن ابن مسعود ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ فقال: «من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء».

قال ابن حجر رحمه الله في شرح الحديث: «الوجاء: رضُّ الخصيتين، وقيل: رضُّ عُروقِهما، ومن يُفعَل به ذلك تنقطع شهوته، ومقتضاه أن الصومَ قامعٌ للشهوة». انتهى كلامه.

معاشر الصائمين: في هذا الحديث إشارة إلى فائدة كبرى من فوائد الصوم، ألا وهي غض البصر، وإحصان الفرج.

فالصائم ينال هذه الفضيلة، ويسلم من معاطب إطلاق البصر وآفاته؛ فالعين مرآةُ القلب، وإذا أطلق الإنسان بصرَه أطلق القلبُ شهوتَه، ومن أطلق بصرَه دامت حسرتُه؛ فأضرُّ شيءٍ على القلب إرسالُ البصر؛ فإنه يريد ما يشتدُ إليه طلبُه، ولا صبر له عنه، ولا سبيل إلى الوصول إليه، وذلك غايةُ ألمه وعذابه.

ثم إن النظرةَ سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس-كما جاء في الحديث-وشأنُ السهمِ أن يسريَ في القلب؛ فيعملَ فيه عملَ السمِّ الذي يُسقاه المسموم، فإن بادر، واستفرغه وإلا قتله ولابد.

وكذلك النظرةُ؛ فإنها تفعل في القلب ما يفعله السهمُ في الرَّميَّة فإن لم تقتله جرحته.

والنظرةُ بمنزلة الشرارة تُرمى في الحشيش اليابس، فإن لم تحرقه كلَّه أحرقت

بعضه كما قيل:

كلُّ الحوادثِ مبداها من النظر ... ومعظمُ النارِ من مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ
كم نظرةٍ فتكت في قلب صاحبها ... فتكَ السهام بلا قوسٍ ولا وتر
والمرءُ مادام ذا عينٍ يقلبها ... في أعين الغيد موقوفٌ على الخطر
يسرُّ مُقْلَتَهُ ما ضرَّ مهجتَه ... لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

والناظر يرمي من نظره بسهامٍ غَرضُها قلبه وهو لا يشعر، قال المتنبي:

وأنا الذي اجتلب المنيةَ طرفُهُ ... فَمَنِ المطالبُ والقتيلُ القاتلُ

قال ابن القيم رحمه الله: «ولما كان النظرُ أقربَ الوسائلِ إلى المحرم اقتضت الشريعةُ تحريمَه، وأباحتْه في موضع الحاجة.

وهذا شأن كلِّ ما حُرِّم تحريم الوسائل؛ فإنه يباح للمصلحة الراجحة»

قال جرير بن عبدالله رضي الله عنه: «سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة فأمرني أن أصرفَ بصري».

قال ابن القيم رحمه الله: «ونظرُ الفجأةِ هي النظرة الأولى، التي تقع بغير قصد؛ فما لم يتعمدْه القلبُ لا يعاقب عليه، فإذا نظر الثانيةَ تَعَمُّداً أثِم؛ فأمره النبي ﷺ عند نظرة الفجأة أن يصرفَ بصرَه، ولا يستديم النظر، فإنَّ استدامته كتكريره».

معاشر الصائمين: ما أحوجنا إلى غضِّ البصر، وإلى ما يذكرنا به، خصوصاً في هذه الأزمنة، التي كثرت فيها الفتن، وتنوعت؛ حيث التبرجُ والسفورُ، والمجلاتُ الهابطةُ، والأفلام الخليعة، والقنوات الفضائية التي تغري بالرذيلة، وتزري بالفضيلة.

فغض البصر -بإذن الله- أمانٌ من الفتنة، وسبيلٌ إلى الراحة والسلامة؛ فإذا غض العبدُ بصره غضَّ القلب شهوتَه وإرادته.

قال ـ تعالى ـ : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : «فجعل ـ سبحانه ـ غضَّ البصر، وحفظَ الفرج هو أقوى تزكيةٍ للنفوس.

وزكاةُ النفوسِ تتضمن زوالَ جميعِ الشرورِ من الفواحش، والظلم، والشرك، والكذب، وغير ذلك».

وقال ابن الجوزي رحمه الله : «والواجب على من وقع بصرُه على مُستَحسنٍ، فوجد لذةَ تلك النظرةِ في قلبه أن يصرفَ بصرَه؛ فمتى ما تَثَبّت في تلك النظرة أو عاود وقع في اللوم شرعاً وعقلاً.

فإن قيل : فإن وقع العشقُ بأول نظرةٍ فأي لومٍ على الناظر؟

فالجواب : أنه إذا كانت النظرةُ لمحةً لم تَكَدْ توجبُ عِشقاً، إنما يوجبه جمودُ العين على المنظور بقدر ما تَثْبتُ فيه، وذلك ممنوع منه.

ولو قَدَّرنا وجودَه باللمحة، فأثَر محبةً سَهُلَ قمْعُ ما حصل».

إلى أن قال رحمه الله : «فإن قيل : فما علاج العشق إذا وقع بأول لمحة؟

قيل : علاجهُ الإعراضُ عن النظر؛ فإن النظرةَ مثلُ الحبةِ تُلْقَى في الأرض؛ فإذا لم يُلتَفَتْ إليها يَبِستْ، وإن سقيت نَبَتَتْ؛ فكذلك النظرةُ إذا أُلحقت بمثلها».

وقال : «فإن جرى تفريطٌ باتْباعِ نظرةٍ لنظرةٍ فإن الثانية هي التي تُخاف وتُحذر؛ فلا ينبغي أن تُحْقَر هذه النظرةُ؛ فربما أورثت صبابةً، صبَّت دمَ الصبِّ».

وقال ابن القيم رحمه الله : «فعلى العاقلِ ألا يُحَكِّم على نفسه عشقَ الصور؛ لئلا يؤدِّيه ذلك إلى هذه المفاسد، أو أكثرِها، أو بعضِها؛ فمن فعل ذلك فهو المفرِّط

بنفسه، المُضِرُّ بها؛ فإذا هلكت فهو الذي أهلكها؛ فلولا تكرارُه النظرَ إلى وجه معشوقه، وطمُعه في وصاله لم يتمكنْ عِشْقُه من قلبه» اهـ

اللهم إنَّا نسألك الهدى، والتقى، والعفاف، والغنى، وللحديث صلة ـ إن شاء الله ـ وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس الخامس والعشرون فإنه أغض للبصر (٢)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فقد كان الحديث الماضي يدور حول أثرِ الصيام في غضِّ البصر، وذلك انطلاقاً من قوله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري: «من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

وقد جاء في الحديث الماضي ذكرٌ لأضرار إطلاق البصر، والحديث ههنا إكمال لما مضى، وبيان لفوائد غض البصر.

معاشرَ الصائمين قد يقول بعض الناس: إذا نظرتُ نظرةً، فاشتدَّ تعلقي بمن نظرتُ إليه؛ فهل لي أن أكررَ النظرَ، لعلي أراه دون ما في نفسي، فَأَسْلوَ عنه؟

والجواب: أن ذلك من تلبيس الشيطان، ولا يجوز فعلُه لأوجهٍ عديدةٍ ذكرها ابن الجوزي، وابن القيم ـ رحمهما الله ـ ومن تلك الأوجه ما يلي:

أولاً: أن الله ـ سبحانه ـ أمر بغضِّ البصر، ولم يجعلْ شفاءَ القلبِ فيما حرَّمه على العبد.

الثاني: أن النبي ﷺ سُئل عن نظر الفجأةِ وقد علم أنَّه قد يؤثر في القلب، فأمر بمداواته بصرف البصر، لا بتكرار النظر.

الثالث: أنه صرح بأن الأولى له، وليست له الثانية، ومحالٌ أن يكون داؤه مما هو له، ودواؤه فيما ليس له.

الرابع: أن الظاهرَ أن الأمرَ كما رآه في أول مرة؛ فلا تَحسُنُ المخاطرةُ بالإعادة.

الخامس: أنه ربما رأى ما هو فوق الذي في نفسه؛ فزاد عذابُه.

السادس: أن إبليس عند قصده للنظرة الثانية، يقوم في ركائبه، فيزيِّن له ما ليس بحسن؛ لتتمَّ البلية.

السابع: أنه لا يعان على مطلوبه، إذا أعرض عن امتثال أمر الشرع، وتداوى بما حرمه عليه، بل هو جديرٌ أن تتخلف عنه المعونة.

الثامن: أن النظرةَ الأولى سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس، ومعلومٌ أن الثانية أشدُّ سُمًّاً؛ فكيف يتداوى من السم بالسم؟!

التاسع: أن صاحبَ هذا المقام في مقام معاملة الحق-عز وجل-في ترك محبوب -كما زعم- وهو يريد بالنظرة الثانية أن يتبينَ حالَ المنظور إليه؛ فإن لم يكن مرضياً تَركَهُ؛ فإذاً يكون تَركُهُ لأنه لا يلائم غرضه، لا لله-تعالى-فأين معاملة الله -تعالى- بترك المحبوب لأجله؟

وبهذه الأوجه وغيرها مما لم يذكر يتبينُ لنا خطورةُ إطلاقِ البصر، وإتْبَاعُ النظرةِ النظرة.

معاشر الصائمين: لغضٍّ البصر فوائدُ عظيمةٌ، لو استحضرها العاقل لقادته إلى غض البصر، ولمنعته من الاسترسال فيه، ومن تلك الفوائد ما يلي:

الفائدة الأولى: تخليص القلب من ألم الحسرة.

الفائدة الثانية: أنه يورثُ القلبَ نوراً وإشراقاً، يَظْهرُ في العين، وفي الوجه، وفي الجوارح.

الفائدة الثالثة: أن غضَّ البصر يورثُ صحةَ الفِرَاسَة؛فإنها من النور، وثمراته، وإذا استنار القلبُ صحَّت الفِراسةُ؛لأنه يصير بمنزلة المرآةِ المجلوَّةِ تظهر فيها المعلوماتُ

كما هي، والنظرُ بمنزلة التنفُّس فيها؛ فإذا أطلق العبد نظره تنفّست نفسُه الصُّعَداءُ في مرآة قلبه، فطمست نورها كما قيل:

مرآةُ قلبِكَ لا تُريكَ صلاحَهُ والنَّفسُ فيها دائماً تتنفسُ

والله-عز وجل-يجازي العبدَ على عمله بما هو من جنسه، فمن غضَّ بصرَه عن المحارم عوَّضه الله إطلاقَ بصيرتِه؛ فلما حبس بصرَه لله أطلق اللهُ نور بصيرتِه، ومن أطلق بصره في المحارم حبس الله عنه بصيرتَه.

الفائدة الرابعة من فوائد غض البصر: أنه يفتحُ للعبد طرقَ العلمِ ويسهلُ عليه أسبابَه، وذلك بسب نور القلب؛ فإنه إذا استنار ظهرت فيه حقائقُ المعلومات، وانكشفتْ له بسرعة، ونفذَ من بعضها إلى بعض.

ومن أرسلَ بصَره تكدَّر عليه قلبه، وأظلم، وانسد عليه بابُ العلم وطرقُه.

الفائدة الخامسة: أن غضَّ البصر يورث القلبَ سروراً، وفرحاً، وانشراحاً، أعظم من اللذة والسرور الحاصلِ بالنظر؛ وذلك لقهره عدوَّه بمخالفته، ومخالفة نفسه، وهواه.

ثم إنه لما كفَّ لذَّتَهُ، وحبسَ شهوتَه لله وفيها مسرةُ نفسه الأمارةِ بالسوء أعاضه الله مَسَرَّةً، ولذةً أكملَ منها، كما قال بعضهم: والله لَلَذَّةُ العفةِ أعظمُ من لذة الذنب.

ولا ريب أن النفس إذا خالفت هواها أعقبها ذلك فرحاً، وسروراً، ولذةً أكملَ من لذة الهوى بما لا نسبة بينهما، وههنا يمتاز العقل من الهوى.

الفائدة السادسة: أن غضَّ البصر يُخَلِّص القلب من أسر الشهوة؛ فإن الأسير هو أسيرُ شهوته وهواه.

الفائدة السابعة: أن غضَّ البصر يسد عنه باباً من أبواب جهنم؛ فإن النظرة باب

الشهوة الحاملة على مواقعة الإثم.

الفائدة الثامنة: أن غضَّ البصر يقوي العقلَ، ويزيده ويثبِّته؛ فإن إطلاق البصر وإرسالَه لا يحصل إلا من خِفة العقل، وطيشِه، وعدمِ ملاحظته للعواقب.

الفائدة التاسعة: أنه يُخَلِّصُ القلب من سُكْرِ الشهوة، ورقدةِ الغفلة.

وبالجملة ففوائدُ غضِّ البصر، وآفاتُ إرسالِه أضعافُ أضعاف ما ذكر؛ فعلى من يريد السلامة لنفسه أن يغضَّ طرفَه عما تشتهيه نفسُه من الحرام، وليكن له في ذلك الغض نيةٌ يحتسب بها الأجرَ، ويكتسب الفضلَ، ويدخل في جملة مَنْ نهى النفسَ عن الهوى.

وهكذا معاشر الصائمين: يتبين لنا أثرُ الصيامِ في غضِّ البصر، ويتضح لنا آثار إرسالِ البصر، وثمراتُ غَضِّه.

وإذا استفاد الصائم هذا الدرس من صيامه بعثه ذلك إلى غضِّ بصره، واستحضار مشاهدة الرب-عز وجل-له؛ فينال بذلك فوائدَ غضِّ البصر، ويدخل في زمرة المحسنين الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم.

اللهم اجعلنا ممن خافك، واتقاك، واتبع رضاك يا رب العالمين.

وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد.

الدرس السادس والعشرون

أثر الصيام في اكتساب العزة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن العزةَ خصلةٌ شريفةٌ، وخَلّةٌ حميدة، وخُلُقٌ رفيع، وأدبٌ سامٍ، تَعْشَقُها قلوبُ الكرام، وتهفو إلى اكتسابها النفوسُ الكبار.

وإن الإسلام لَدِينُ العزة والكرامة، ودينُ السموِّ والارتفاع، ودينُ الجدِّ والاجتهاد، فليس دينَ ذلةٍ ومَسْكنة، ولا دينَ كسلٍ وخمولٍ ودعة.

وإن شهرَ رمضانَ لميدانٌ فسيحٌ لاكتساب العزة، والتحلي بها، وذلك من وجوه عديدةٍ متنوعة؛ فالصائمُ -على سبيل المثال- ينال هذا الخُلقَ من جراء صيامه، وتركِه لطعامه، وشرابه، وشهواته المباحةِ فضلاً عن المحرمة.

وهذا يبعثه إلى الترفع عن الدنايا، ومحقرات الأمور، ويطلقه من أسر العادات، وأهواء النفوس.

وينال العزة - كذلك - من جراء بعده عن الجدال والمراء والجهل والرفث، والصخب، والإساءة إلى الناس، امتثالاً لقوله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث، ولا يصخب».

وفي رواية «ولا يجهل» وفي رواية «ولا يجادل».

وإذا كان الصائم كذلك حفظ على نفسه عزتها وكرامتها، ورَفَعها عن مجاراة الطائفةِ التي تلذُّ المهاترةَ والإقذاع.

وينال المؤمن الصائم العزة في هذا الشهر من جراء صيامه، وكثرة أعماله الصالحة، وانقطاعه عما سوى الله، وهذا هو سر العزة الأعظم؛ إذ ينال بسبب ذلك عزةَ نفسٍ، وزيادةَ إيمانٍ، واتصالاً وقرباً من الرحمن «وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ».

وينال المؤمنون العزة في هذا الشهر بسبب كثرة إنفاقهم، وإحسانهم إلى الفقراء والمعوزين.

وفي ذلك صيانةٌ للوجوه من السؤال، وإنقاذٌ لكثير من الناس من عوز الفقر، وذِلّة الحاجة اللذين قد يَنجرِفان بهم إلى فساد الأخلاق، وضيعة الآداب.

وهكذا يتبين لنا أثرُ الصيام في اكتساب العزة سواء للأفراد أو للأمة.

وما أحوجنا، وما أحوج أمتنا إلى هذا الخلق العظيم، الذي أرشدنا إليه دينُنا، وحثنا على التحلي به، ووجهنا إلى اكتسابه، وبيَّن لنا جميعَ السبلِ الموصلةِ إليه.

ومن مظاهر تربية الإسلام للمسلمين على هذا الخلق، أن وجَّههم إلى إفراد الله بالمسألة دقت أو جَلَّت، كثرت أو قلت.

ومن ذلك توجيه المسلمين إلى الكسب المباح، عن طريق الكدح والعمل، والمشي في مناكب الأرض، حتى يُعِفَّ الإنسانُ نفسَه، ويستغني عن غيره.

كما وجههم في المقابل إلى أن يترفعوا عن مسألة الناس، ونفَّرهم من ذلك الخلق الذميم إلا من كان مضطراً أو متحمِّلاً حَمَالةً، أو من أصابته جائحة، أو فاقةٌ، أو نحوُ ذلك.

كما أرشدهم إلى أن اليدَ العليا خيرٌ من اليد السفلى؛ فَمَنَعَ القادرَ على الكسب من بسط كفه؛ للاستجداء إذا كان في استجدائه إراقةٌ لماء وجهِهِ.

بل إن من أحكام الشريعة إباحةَ التيممِ للمكلف، وعدمَ إلزامهِ بقبول هبةِ ثمنِ الماء؛ لما في ذلك من المنة التي تُنْقِصُ حظاً وافراً من أطراف الهمة الشامخة.

بل ومنها عدم إلزامِ الإنسانِ باستهابة ثوبٍ يسترُ بِهِ عورتَه في الصلاة؛ صيانة لضياء وجهه من الانكساف بسواد المطالب.

ومن الأحكام القائمة على رعاية هذا الخلق أن التبرعات لا تتقرر إلا بقبول

المُتَبَرِّعِ له؛ إذ قَد يَرْبأ بِهِ خُلقُ العزةِ عن قبولها؛ كراهةَ احتمالِ مِنَّتِها، والمِنَّةُ تصدَعُ قناةَ العزةِ؛ فلا يحتملها ذو مروءة إلا في حال ضرورة، ولا سيما منةٌ تجيء من غير ذي طبع كريم، أو قدر رفيع.

ثم إن الشريعةَ أرشدت المسلمَ إذا أخذ المال أن يأخذه بسخاوة نفس؛ ليباركَ اللهُ له فيه، وألا يأخذه بإسرافٍ، وهلع، وتعرضٍ، وذلةٍ، وإشراف.

وإذا اتصف المرء بعزة النفس وَفُرت كرامتُه، وارتفع رأسُه، وسلم من ألم الهوان، وتحرر من رق الأهواء وذل الطمع، ولم يَسِرْ إلا على وَفْقِ ما يمليه عليه إيمانُه، والحقُّ الذي يحمله.

ولهذا تجدُ أن أشدَّ الناس عزماً ومضاءًا هو أنزهُهُم نفساً، وأبعدهم عن الطمع وجهةً.

ثم إن عزةَ النفس تُلقي على صاحبها وقاراً، وجلالاً، ومكانةً في القلوب وذلك مما تنشرح له صدورُ العظام.

وإنما يعاب الرجل إذا جعل هذه المكانةَ غايتَه المنشودةَ، دون أن يكون الحاملُ عليها رضا الله، ومن ثَمَّ نفعُ الآخرين.

وكما أن للعزة أثراً في الأفراد فكذلك لها آثارٌ صالحةٌ في الأمة؛ فالأمة التي تُشْرَب في نفوسها العزةَ يشتد حرصُها على أن تكون مستقلةً بشؤونها، غنيةً عن أمم غيرها، وتبالغ في الحذر من الوقوع في يدِ مَنْ يطعن في كرامتها، أو يهتضم حقاً من حقوقها.

معاشر الصائمين هذا شيء من معالم العزة، وأثرِ الصيام في اكتسابها.

وإليكم نبذةً من النصوص الشرعية الواردة في شأن العزة.

قال النبي ﷺ لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «إذا سألت فاسألِ الله، وإذا استعنت فاستعن بالله» رواه أحمد والترمذي، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

وقال ﷺ :«لأن يأخذَ أحدُكم أَحْبُلاً ، فيأخذَ حُزْمةً من حطب؛ فيكفَّ الله به وجْهَهُ ـ خيرٌ من أن يسألَ الناسَ أعطي أو منع » رواه البخاري ومسلم.

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ :«من يستغنِ يغنِهِ الله ، ومن يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله ، ومن يتصبرْ يصبرْهُ الله ، وما أعطي أحدٌ عطاءاً أو خيراً أوسع من الصبر» رواه البخاري ومسلم .

وفيهما ـ أيضاً ـ عن النبي ﷺ قال: «ما يزال الرجلُ يسأل الناسَ حتى يأتيَ يومَ القيامة ، وليس في وجههُ مُزْعةُ لحمٍ » .

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال :«من سأل الناس ، تكثراً فإنما يسأل جمراً ؛ فَلْيَسْتَقِلَّ أو ليستكثر » .

بل لقد أوصى ـ عليه الصلاة والسلام ـ نفراً من أصحابه ألا يسألوا الناس شيئاً ؛ ففي صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه أن لما بايع النبي ﷺ مع طائفة من أصحابه قالوا : فعلام نبايعك؟

قال :«على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، والصلوات الخمس ، وتطيعوا...» وأسر كلمةً خفيةً : « ولا تسألوا الناس شيئاً » .

قال عوف : فلقد رأيتَ بعض أولئك النفر يسقط سوطُ أحدِهم ؛ فما يسأل أحداً يناوله إياه.

وعن قَبيصةَ بنِ مخارق الهلالي رضي الله عنه قال : «تحملت حَمَالةً ، فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها فقال : « أقم حتى تأتينَا الصدقةُ ؛ فنأمرَ لك بها » .

قال : ثم قال : « يا قبيصةُ! إن المسألة لا تَحِلُّ إلا لأحد ثلاثةٍ : رجلٍ تحمَّل حمالةً ، فحلَّت له المسألةُ ؛ حتى يصيبَها ثم يُمْسِك ، ورجلٍ أصابتْه جائحةٌ اجتاحت ماله ؛فحلَّت له المسألةُ ، حتى يصيب قواماً من عيش ـ أوقال :أو سِداداً من عيش ـ ورجلٍ أصابته

فاقةٌ حتى يقومَ ثلاثةٌ من ذوي الحِجا من قومه: لقد أصاب فلاناً فاقةٌ، فحلَّت له المسألةُ حتى يصيبَ قواماً من عيش ـ أو سداداً من عيش ـ.

فما سواهن يا قبيصةُ سحتاً يأكلها سحتاً» رواه مسلم.

معاشر الصائمين وكما تظافرت نصوصُ الشرع في الثناء على خلق العزة، والحثِّ عليه، فكذلك تتابعت وصايا العلماء والحكماء.

قال وهب بن منبه رحمه الله لرجل يأتي الملوك: «ويحك تأتي من يغلق عنك بابَه، ويظهر لك فقرَه، ويواري عنك غناه، وتدعُ من يفتح لك بابَه بالليل والنهار ويظهر لك غناه، ويقول: «ادعني استجب لك»!.

وقال طاووسٌ ـ لعطاءٍ ـ رحمهما الله: «إياك أن تطلبَ حوائجك إلى من أغلق دونك بابه، ويجعل دونها حُجَّابَه، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة، أمرك أن تدعوَه، ووعدك بأن يجيبك».

وقيل لأبي حازم رحمه الله: «ما مالُك؟ قال: ثقتي بالله، وإياسي من الناس».

وكتب أمير المؤمنين إلى أبي حازم: ارفع إليّ حاجتك.

قال أبو حازم: «هيهات! رفعت حاجتي إلى من لا يَخْتَزِنُ الحوائجَ؛ فما أعطاني قنعت، وما أمسك عني منها رضيت».

وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام رحمه الله إذا قرأ عليه الطالبُ وانتهى يقول: «اقرأ من الباب الذي يليه ولو سطراً؛ فإني لا أحب الوقوف على الأبواب»

وأنشد الإمام أحمد بن يحيى ثعلب رحمه الله:

من عف خف على الصديق لقاؤه ... وأخو الحوائج وجهه مبذول

وأخوك مَنْ وفَّرْتَ ما في كيسه ... فإذا استعنت به فأنت ثقيل

ولله در الشيخ المَكُّوديِّ إذ يقول:

إذا عرضت لي في زمانيَ حاجةٌ وقد أشكلت فيها عليَّ المقاصدُ

وقفت بباب الله وقفةَ ضارعٍ وقلت: إلهي إنني لك قاصدُ

ولست تراني واقفاً عند باب مَنْ يقول فتاهُ: سيديْ اليومَ راقدُ

معاشر الصائمين: هذه هي العزة، وها نحن في شهر الخير والعزة، أفلا نستشعر هذا المعنى من جرَّاء صيامنا؟ وندركَ أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين؛ فنلتمس العزة من مظانها، ونسعى لإدراكها، والاتصاف بها؛ فيكونَ لنا عزٌّ وسرورٌ وذكرٌ جميلٌ في العاجل، وأجرٌ وذخرٌ وعطاءٌ غيرُ مجذوذٍ في الآجل؟

اللهم أعزنا بطاعتك، ولا تذلنا بمعصيتك، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس السابع والعشرون

رمضان شهر المراقبة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن دروسَ رمضانَ لا تنقضي، وإن بركاتِه لا تحصر، وإن أسرارَه لا تقف عند حد.

ومن أعظم ما يفيده المسلم من شهره وصيامه قيامُ عبودية المراقبة في قلبه؛ ذلكم أن الصائمَ يمسك عن المفطرات طيلةَ النهار، فتراه أميناً على نفسه، رقيباً عليها في الصغيرة والكبيرة، متمثلاً هيبةَ مولاه، واطلاعَه، وشهودَه كأتمِّ ما يكون، فلا تحدِّثه نفسُه بتناول مفطرٍ ولو قلّ، ولا يخطر بباله أن يَنْقُضَ صيامه ولو توارى عن الأعين؛ فَيَصِلُ بذلك إلى مرتبة الإحسان؛ حيث يعبد الله كأنه يراه.

ولهذا خصّ الله ـ عز وجل ـ الصيام من بين سائر الأعمال بأنه له، وهو يجزي به.

فقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «كل عمل ابن آدم له الحسنةُ بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف» قال الله ـ عز وجل ـ في الحديث: «إلا الصيام؛ فإنه لي وأنا أجزي به؛ إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي» الحديث.

وفي رواية: «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي».

ولقد كثرت أقوال العلماء في معنى قوله: «فإنه لي» وقد ذكروا فيه وجوهاً، ومن أحسن ما ذُكر منها وجهان:

الوجه الأول: أن الصيامَ هو مجردُ تركِ حظوظِ النفس، وشهواتِها الأصليةِ التي جُبِلَت على الميل إليها، ولا يوجد ذلك في عبادة غير الصيام؛ لأن الإحرامَ إنما يُتْرك فيه الجماعُ ودواعيه من الطيب دون سائر الشهوات من الأكل والشرب، وكذلك الاعتكاف، مع أنه تابعٌ للصيام.

وأما الصلاة فإنه ـ وإن ترك المصلي فيها جميعَ الشهوات ـ إلا أن مدتها لا تطول، فلا يجدُ المصلي فَقْدَ الطعام والشراب، بل قد نُهي أن يصلي ونفسه تتوق إلى طعام بحضرته حتى يتناولَ منه مايسكّن نفسه؛ ولهذا أُمِر بتقديم العَشاء على الصلاة، وذهب طائفة إلى إباحة شرب الماء في صلاة التطوع، وكان ابن الزبير يفعله، وهو رواية عن الإمام أحمد.

وهذا بخلاف الصيام؛ فإنه يستوعب النهار كلَّه، فيجد الصائمُ فَقْدَ هذه الشهوات، وتتوق نفسه إليها خصوصاً في نهار الصيف بشدة حرّه وطوله.

فإذا اشتد توقانُ النفسِ إلى ما تشتهيه مع قدرتها عليه ثم تَركَتْهُ لله ـ عز وجل ـ في موضع لا يطّلع عليه إلا الله كان ذلك دليلاً على صحة الإيمان؛ فإن الصائم يعلم أن له ربّاً يطّلع عليه في خلوته، وقد حرَّم عليه أن يتناول شهواتِه المجبولَ على الميل إليها في الخلوة، فأطاع ربه، وامتثل أمره، واجتنب نهيه، خوفاً من عقابه ورغبة في ثوابه، واستشعاراً لاطلاعه؛ فشكر الله له ذلك، واختص عملَه هذا من بين سائر أعماله بأنه له، ولهذا قال بعد ذلك: «إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي».

الوجه الثاني من أوجه اختصاص الصيام بأنه له من بين سائر الأعمال: أن الصيامَ سرٌّ بين العبد وبين ربه، لا يطلع عليه غيره؛ لأنه مُركّبٌ من نيةٍ باطنة لا يطلع عليها إلا اللهُ، وتَركٍ لتناول الشهوات التي يستخفي بتناولها في العادة؛ لذلك قيل ليس فيه رياء، وقيل: لا تكتبه الحفظة.

وهذا القول قريب من القول الأول، فإنَّ مَنْ ترك ما تدعوه إليه نفسه لله ـ عز وجل ـ حيث لا يطلع عليه غيْرُ مَنْ أمَرَهُ ونهاه دل على صحة إيمانه، والله ـ عز وجل ـ يحب من عباده أن يعاملوه سراً بينهم وبينه، وأهلُ محبتِه يحبون أن يعاملوه هكذا.

فإذا استشعر الصائمُ هذا المعنى العظيمَ انبعث إلى مراقبة الله -عز وجل- في شتى شؤونه؛ فالذي يطلع عليه في صيامه مطلعٌ عليه في جميع أحواله.

وهذا سرٌّ بديعٌ، ودرسٌ عظيمٌ تُفِيد منه الأمةُ بعامة، ويفيد منه الأفرادُ بخاصة؛ فواجب على المصلحين وقادةِ الأمم أن يتنبهوا لهذا المعنى، وأن يحرصوا على إشاعته في الناس؛ ذلكم أن وازعَ الدين والمراقبة لرب العالمين يفعل في النفوس ما لا يفعله وازعُ القوةِ والسلطان؛ فإذا أَلِفَ المرءُ أن يراقب ربه، ويستحضر شهوده واطلاعه عليه - فإن المجتمعَ يأمنُ بوائقه، ويستريحُ من كثير من شروره.

أما إذا كان الاعتماد على وازعِ القوة، وحارسِ القانون -فإن القوةَ قد تضعف، وإن الحارسَ قد يغفُل، وإن القانون قد يُؤَوَّل، وقد يُتَحايلُ للتخلص من سلطانه.

لذلك تكثر الجرائم والمفاسد إذا قلّت التربية الدينية في مجتمع ما، فإذا أشعنا هذا المعنى في الناس وعَمَدنا إلى تربيتهم بأسلوب الدين والفضيلة أرحنا واسترحنا، ووفّرنا جهوداً كبيرة، وقد تكون ضائعة في غير ما فائدة؛ فالمراقبة حارسٌ قويٌّ يمنع الإنسانَ من التفكير في الجرائم والشرور.

وإذا راقب الإنسان ربَّه، واحترمه في خلواته أظهر الله فضله، ورفع ذكره؛ فالجزاء من جنس العمل، ومن يعمل سوءاً يجز به.

قال أبو حازم ﷺ: «لا يُحْسِن عبدٌ فيما بينه وبين الله -عز وجل- إلا أحسن الله فيما بينه وبين الناس، ولا يعوِّر -أي يفسد- فيما بينه وبين الله -عز وجل- إلا عوَّر الله فيما بينه وبين العباد، ولَمُصَانعةُ وجهٍ واحدٍ أيسرُ من مصانعة الوجوه كلها؛ إنك إذا صانعت اللهَ مالت الوجوهُ كلُّها إليك، وإذا أفسدت ما بينك وبين الله شنأتك الوجوهُ كلُّها».

وقال المعتمر بنُ سليمان ﷺ: «إن الرجلَ يصيب الذنبَ في السرِّ، فيصبح

وعليه مذلّتُه».

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «نظرتُ في الأدلة على الحق -سبحانه وتعالى- فوجدتُها أكثرَ من الرمل، ورأيتُ من أعجبها؛ أن الإنسان قد يخفي ما لا يرضاه الله -عز وجل- فيظهره الله -سبحانه وتعالى- عليه ولو بعد حين، وينطق الألسنة به، وإن لم يشاهده الناس، وربما أوقع صاحبَه في آفة يفضحه بها بين الخلق؛ فيكون جواباً لكل ما أخفى من الذنوب، وذلك لِيَعْلَمَ الناسُ أن هنالك مَنْ يجازي على الزلل، ولا ينفع من قدره وقدرتِهِ حجابٌ ولا استتارٌ، ولا يضاع لديه عمل.

وكذلك يخفي الإنسان الطاعة، فتظهر عليه، ويتحدث الناس بها، وبأكثر منها، حتى إنهم لا يعرفون له ذنباً، ولا يذكرونه إلا بالمحاسن، لِيُعْلَمَ أن هنالك ربًّا لا يُضيع عَمَلَ عامل.

وإن قلوب الناس لَتَعْرِفُ حالَ الشخص، وتحبه أو تأباه، وتذمه أو تمدحه وَفْقَ ما يتحقق بينه وبين الله -سبحانه وتعالى- فإنه يكفيه كلَّ هم، ويدفع عنه كلَّ شر.

وما أصلح عبد ما بينه وبين الخلق، دون أن ينظر إلى الحق إلا انعكس مقصودُه، وعاد حامدُه ذامّاً».

وقال رحمه الله: «إن للخلوة تأثيراتٍ تَبِيْنُ في الجلوة؛ كم من مؤمن بالله -عز وجل- يحترمه عند الخلوات، فيترك ما يشتهي؛ حذراً من عقابه، أو رجاءًا لثوابه، أو إجلالاً له، فيكون بذلك الفعل كأنه طرح عوداً هندياً على مجمر، فيفوح طيبه، فيستنشقه الخلائق، ولا يدرون أين هو.

وعلى قدر المجاهدة في ترك ما يهوى تقوى محبتُه، أو على مقدار زيادة دفع ذلك المحبوب المتروك يزيد الطِّيب، ويتفاوت تفاوتَ العود.

فترى عيونَ الخلقِ تُعظِّم هذا الشخص، وألسنتُهم تمدحُه، ولا يعرفون لِمَ، ولا

يقدرون على وصفه.

وقد تمتد تلك الأراييحُ -أي الروائح الطيبة- بعد الموتِ على قَدْرِها، فمنهم من يُذْكَرُ بالخير مدةً مديدةً، ثم ينسى، ومنهم من يذكر مائةَ سنةٍ ثم يخفى ذكره وقبره، ومنهم من يبقى ذكرهم أبداً.

وعلى عكس هذا مَنْ هاب الخلق، ولم يحترم خلوتَه بالحق؛ فإنه على قدر مبارزته بالذنوب، وعلى مقادير تلك الذنوب يفوح منه ريحُ الكراهة، فتمقته القلوب».

إلى أن قال ابن الجوزي رحمه الله: «قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إن العبدَ ليخلو بمعصية الله -تعالى- فيلقي الله بُغْضَه في قلوب المؤمنين من حيثُ لا يشعر».

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «إنه بقدر إجلالكم لله -عز وجل- يجلكم، وبمقدار تعظيم قدره واحترامه يعظمُ أقداركم وحرمتكم» إلى آخر ما قال -رحمه الله- في ذلك السياق في كتابه «صيد الخاطر».

وهكذا نستفيد من شهر رمضان عبوديةَ المراقبة، وهذا شيء من ثمرات تلك العبودية الجليلة، فنسأل الله -جل وعلا- أن يرزقنا خشيته في الغيب والشهادة، وأن يجعلنا هداة مهتدين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين.



الدرس الثامن والعشرون أثر الصيام في اكتساب الحلم

الحمد لله العليم الحليم، والصلاة والسلام على الرسول الكريم، أما بعد:

فقد جاء في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفُث، ولا يصخب؛ فإن سابَّه أحدٌ أوقاتله فليقل: إني امرؤٌ صائم».

وفي رواية لمسلم: «فليقل: إني صائم، إني صائم».

قال ابن حجر رحمه الله: «واختلف في المراد بقوله «إني صائم» هل يخاطِب بها الذي يكلمه بذلك، أو يقولها في نفسه؟

وبالتالي جزم المتولي، ونقله الرافعيُّ عن الأئمة، ورجَّح النوويُّ الأولَ في الأذكار، وقال في شرح المهذب: كلٌّ منهما حسنٌ، والقول باللسان أقوى، ولو جمعهما لكان حسناً».

ثم قال ابن حجر: «ولهذا الترددِ أتى البخاريُّ في ترجمته بالاستفهام فقال: «باب هل يقول: إني صائم إذا شتم».

وقال الروياني: «إن كان في رمضان فليقله بلسانه، وإن كان في غيره فليقله في نفسه».

وادعى ابن العربي أن موضع الخلاف في التطوع، وأما في الفرض فيقوله بلسانه قطعاً.

وأما تكرير قوله: «إني صائم» فلِيَتَأَكَّدَ الانزجارُ منه، أو ممن يخاطبه بذلك.

ونقل الزركشيُّ أن المراد بقوله: «فليقل إني صائم مرتين» يقوله مرة بقلبه، ومرة بلسانه؛ فيستفيد بقوله بقلبه كفَّ لسانه عن خصمه، وبقوله بلسانه كفَّ خصمه عنه.

وتُعقّب بأن القول ـ حقيقةً ـ باللسان، وأجيب بأنه لا يمنع المجاز» انتهى كلام ابن حجر رحمه الله.

معاشر الصائمين في هذا الحديث بيانٌ لأثر الصيام في اكتساب الحلم؛ ذلك الخلق العظيم، الذي يعدُّ ـ بحق ـ سيدَ الأخلاق.

وإليكم بعضَ المعالم التي تحدد الحلم، وتوضح شيئاً من فضائله، وما يدور في فلكه؛ لعل النفوس في هذا الشهر الكريم تنبعث إليه، وتسعى إلى التحلي به.

أيها الصائمون المؤمنون: ترغب النفوس في أشياء، وتنفُر من أخرى، وفي النفوس طبيعةُ غضَبٍ تثور عند منعها مما ترغبُ فيه، أو عند ملاقاتها لما تنفُر منه.

ومن المُخِلِّ بنظام الأفراد والجماعات إطلاقُ العنان لقوة الغضب تثور كلما مُنِعَتِ النفوسُ مما تحب، أو لقيت ما تكره.

والحكمةُ تقْضي أن تكونَ قوةُ الغضبِ خاضعةً للعقل خضوعاً يجري في النفس مجرى الطبيعة؛ فلا تهيج إلا للأمر الذي ينبغي أن تهيج له، وفي الوقت الذي ينبغي أن تهيج فيه، ودون مجاوزة للحد الذي ينبغي أن تقف عنده؛ فذلك ما يعرف بالحلم، وذلك ما نحن بأمسِّ الحاجة إليه.

ومَنْ بلغ أن تكون قوةُ حِلْمِه منقادةً للعقل، جاريةً على مقتضى العلم ـ فهو الحليم بحق.

وليس من شرط الحلم أن يَفْقِدَ الرجلُ قوةَ الغضب، وإنما شرطُ الحلم ألا يطغى الغضب حتى يدفع الرجل إلى الانتقام، أو يَمْنَعَهُ من الصفح حيث يكون الصفح أولى به.

فالحليم قد يأخذه الغضبُ لجهل عليه، لكنه يكظِم غيظَه، حتى لا يكون له أثر في غير نفسه، ومِنْ أَحكمِ ما قالته العرب.

ولربما ابتسم الكريمُ من الأذى وفؤادهُ من حرِّه يتأوه

والحلمُ لا يعارض الأخذ بالحزم شأنهُ شأنُ الفضائلِ يأخذ بعضُها ببعض، وتتلاقى؛ لتتعاون على البر والتقوى.

فإذا كان الحلمُ سكونَ النَّفْس، وعدمَ تهيُّجها للمكروه الذي يكفي في دفعه الصفحُ عنه ـ فإن من الحزم الغضَب للأذى الذي يَصْدُر عن لؤم، ويتمادى ولو مع الإغضاء عنه، قال المتنبي:

إذا قيل: رفقاً قل: فللحلمِ موضعٌ وحلمُ الفتى في غيرِ موضِعِهِ جهلُ

وقال الحسينُ بنُ عبدالصمدِ يمدحُ بعضَ الأمراء:

عَجِبوا لِحِلْمِكَ أن تحوّل سطوةً وزُلال خُلْقِكِ كيف عاد مُكَدَّرا

لا تعجبوا من رقّةٍ وقساوةٍ فالنار تُقْدَحُ من قَضيبٍ أخضرا

أيها الصائمون الكرام: الحلم لا يشتبه بالذلة في حال؛ فإن الذلة احتمالُ المكروه على وجه يذهب بالكرامة.

أما الحلم فهو إغضاءُ الرجلِ؛ حيث يزيدُه الإغضاء رفعةً ومهابة.

ولا يظهر معنى الحلم إلا مع القدرة على دفع الأذى.

وكما أن الحلم فِطريٌّ جِبلّيٌّ يولد مع الإنسان ـ فهو كذلك يتأتّى بالتحلُّم، والتخلُّق، ومجالسة الحلماء، والنظر في سير أهل الحلم.

أيها الصائمون الكرام: الحلمُ خلقُ الأنبياء، وأدب النبلاء، و دأب الفضلاء.

وفي الحلم سلامةُ الصدر، وراحة الجسد، واجتلاب الحمد.

وبالحلم يحفظ الرجلُ على نفسه عزَّتَها؛ إذ يرفَعُها عن مجاراة الطائفة التي تلذ المهاترةَ والإقذاع.

كان عروة بن الزبير إذا أسرع إليه أحدٌ بشتم أو قول سوءٍ قال: «إني أتركك رَفعاً لنفسي».

ولما ولي عمر بن عبد العزيز رحمه الله خرج ليلةً في السحر إلى المسجد، ومعه حرسيٌّ، فمرا برجل نائمٍ في الطريق، فعثُر عمر به، فقال الرجل أمجنون أنت؟ قال عمر: لا؛ فَهَمَّ الحرسيُّ بالرجل، فقال عمر: مَه؛ فإنه سألني: أمجنون أنت؟ فقلت: لا!.

وشتم رجل الحسن وأربى عليه، فقال له الحسن رحمه الله: أما أنت فما أبقيت شيئاً، وما يعلم أكثر.

وشتم رجل الأحنف بن قيس رحمه الله وجعل يتبعه حتى بلغ حيَّه، فقال له الأحنف: يا هذا! إن كان بقي في نفسك شيءٌ فهاتِه، وانْصَرِفْ؛ لا يسمعْك بعض سفهائنا، فتلقى ما تكره.

وكثيراً ما يشكوا الحكماء من قلة الحلم في الناس، قال أبو العتاهية:

عذيريَ فِيْ الإنسان ما إنْ جَفَوْتُهُ ... صفا ليْ ولا إنْ صرتُ طوعَ يديه

وإني لمشتاقٌ إلى ظلِّ صاحبٍ ... يَرِقُّ ويصفو إن كَدِرْتُ عليه

ولما سمع المأمون هذين البيتين قال ـ كما روي عنه ـ: خذوا مني الخلافة، وأعطوني هذا الصاحب.

معاشر الصائمين هذا هو الحلم، وتلك معالِمه، وفضائلُه، وهذا هو شهر رمضان يضفي علينا السكينة، والطمأنينة، ويدعونا إلى الحلم والرفق؛ أفلا يكون لنا نصيب من هذا الخلق العظيم في هذا الشهر الكريم؟

اللهم إنا نسألك الحلم، والعلم، والهدى، والتقى، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد.

❖❖❖

الدرس التاسع والعشرون

الصيام والحياء

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإن الحياء خلقُ الإسلام، وشعبةٌ من شعب الإيمان، ومقامٌ عالٍ من مقامات الإحسان.

وإن شهرَ رمضانَ لمدرسةٌ عظمى، تبعثُ على الحياء، وتعين على اكتسابِه، والتحلي به؛ ذلكم أن الصيامَ سرٌّ بين العبد وربه، والصائم عن إيمان واحتساب يراقب الله في خلواته وجلواته، ويستشعر اطلاع ربه، وشهوده عليه؛ فلا تراه يُقْدِمُ على ما يفسد صومه، أو ينقص أجره.

ولا ريب أن الصيام بهذا المعنى لهُ أثرهُ البالغُ في قيام الحياء، ونموِّه في القلب، وشيوعه في الأمة.

وإذا شاع هذا الخلق العظيم في الأفراد والأمة دنت منهم الخيرات، ونأت عنهم الشرور والآفات؛ فالحياء كله خير، والحياء لا يأتي إلا بخير.

معاشر الصائمين: الحياءُ خلقٌ يبعث على فعل الحسن، وترك القبيح، ويمنع من التقصير في حقِّ ذي الحق.

وهو عبارةٌ عن انقباض النفس عما تُذَمُّ عليه، وثمرتُه ارتداعُها عما تَنْزِع إليه الشهوةُ من القبائح.

ولقد تظاهرت نصوصُ الشرعِ في الحث على الحياء، وبيانِ فضلهِ، والثناءِ على أهله.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾

وقال ـ عز وجل ـ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾

وفي صحيح البخاري وغيره من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مرَّ برجل وهو يعظ أخاه في الحياء فقال: «دعه؛ فإن الحياء من الإيمان».

وفي الصحيحين عن عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أو بضع وستون شعبة؛ فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان».

وفيهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: «كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها؛ فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه».

وفي سنن ابن ماجة عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن لكل دينٌ خُلقاً، وخُلُق الإسلام الحياء» حسنه الألباني في صحيح الجامع.

وفي صحيح البخاري وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحِ فاصنعْ ما شئت».

قال النووي رحمه الله في قوله: «فاصنعْ ما شئت»: «أمرُ إباحةٍ؛ لأن الفعلَ إذا لم يكن منهياً عنه كان مباحاً.

ومنهم من فسر الحديث بأنك إذا كنت لا تستحي من الله ـ تعالى ـ ولا تراقبه ـ فأعطِ نفسَك مناها، وافعل ما تشاء؛ فيكون الأمر فيه للتهديد لا للإباحة، ويكون كقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ وكقوله: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾» انتهى كلام النووي رحمه الله.

وقال ابن القيم رحمه الله في قوله: «فاصنع ما شئت» قال: وفي هذا قولان:

أحدهما: أنه أمر تهديد ومعناه الخبر، أي من لم يستحِ صنع ما شاء.

والثاني: أنه أمرُ إباحةٍ، أي انظر إلى الفعل الذي تريد أن تفعله؛ فإن كان مما لا يُستحيى منه فافعله، والأول أصحُ، وهو قول الأكثرين» اـهـ.

معاشر الصائمين وكما أن نصوص الشرع تظاهرت على ذكر الحياء، والحث عليه، والثناء على أهله، والتحذير من قلة الحياء ـفكذلك تتابعت أقوال الأنبياء والعلماء والحكماء في ذلك الشأن.

ذكر ابن عبد البر رحمه الله عن سليمان ـعليه السلام ـ قوله: «الحياءُ نظامُ الإيمان؛ فإذا انحل النظام ذهب ما فيه».

وقيل في تفسير قوله ـتعالى ـ: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ قيل: هو الحياء.

وقال الحسن رحمه الله «أربع من كن فيه كان عاقلاً، ومن تعلق بواحدة منهن كان من صالحي قومه: دينٌ يُرْشِدُه، وعقلٌ يسدده، وحسبٌ يصونه، وحياءٌ يقوده».

وقال الأصمعي رحمه الله: «سمعت أعرابياً يقول من كساه الحياء ثوبَه لم يرَ الناسُ عيبَه».

وقال ابن حبان رحمه الله: «فالواجب على العاقل لزومُ الحياء؛ لأنه أصل العقل، وبَذْرُ الخير، وتركُه أصلُ الجهل وبذر الشر».

وقال صالح بن عبد القدوس:

إذا قلَّ ماءُ الوجهِ قل حياؤه ... و لا خيرَ في وجهٍ إذا قل ماؤه

حياءَك فاحْفَظْهُ عليك وإنما ... يدلُّ على وجه الكريم حيــاؤه

وقال بشار:

ولقد أصْرِفُ الفؤادَ عن الشي ... ء حياءاً وحبُّه في الفـــؤاد

أُمسِكُ النفسَ بالعفاف وأمسي ذاكراً في غدٍ حديثَ الأعادي

قال يحيى بنُ معاذٍ رحمه الله: «من استحيا من الله مطيعاً استحيا الله منه وهو مذنبٌ»

قال ابن القيم رحمه الله معلقا على كلمة يحيى بن معاذ: «وهذا الكلام يحتاج إلى شرح، ومعناه: أن من غلب عليه خلقُ الحياء من الله حتى في حال طاعته، فقلبُهُ مطرقٌ بين يديه إطراقَ مستحٍ خجلٍ -فإنه إذا واقع ذنباً استحيا الله-عز وجل- من نظره إليه في تلك الحال؛ لكرامته فيستحيي أن يرى مِنْ ولِيِّه، ومَنْ يَكْرُمُ عليه ما يشينه عنده.

وفي الشاهد شاهدٌ بذلك؛ فإن الرجلَ إذا اطلّع على أخصِّ الناس به، وأحبِّهم إليه، وأقربهم منه - من صاحب أو ولد أو من يحبه - وهو يخونه؛ فإنه يلحقه من ذلك الاطلاع عليه حياءٌ عجيب، حتى كأنه هو الجاني وهذا هو غاية الكرم».

إلى أن قال رحمه الله: «أما حياءُ الرب-تعالى- من عبده فذاك نوعٌ آخرُ لا تدركه الأفهامُ، ولا تكيِّفه العقولُ؛ فإنه حياءٌ كرمٍ، وبرٍّ، وجودٍ، وجلال؛ فإنه-تبارك وتعالى-حييٌّ كريمٌ، يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردَّهما صِفْراً، ويستحيي أن يعذب ذا شيبةٍ شابت في الإسلام» اـهـ.

معاشر الصائمين لسائل أن يسأل فيقول: هل الحياءُ غريزةٌ وطبيعةٌ تكون في الإنسان؟ أو هو اكتسابيٌّ يأتي بالتدرب والأخذ بالأسباب؟

والجواب أن الحياءَ قد يكون غريزةً وطبيعةً في الإنسان، وقد يكون تخلُّقاً واكتساباً كسائر أعمال البر.

واستعماله على مقتضى الشرع يحتاج إلى كسب، ونية وعلم؛ فهو من الإيمان لهذا السبب، ولكونه باعثاً على أفعال البر، مانعاً من المعصية.

اللهم ارزقنا الحياء، والإيمان، والعفو والعافية، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد.

الدرس الثلاثون

الاستغفار ختام الصيام

الحمد لله غافر الذنوب، وساتر العيوب، والصلاة والسلام على إمام المستغفرين، وقدوة الناس أجمعين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد جاء في الحديث المرفوع عن أبي هريرة ﷺ في فضل شهر رمضان «ويغفر فيه إلا لمن أبى».

قالو: يا أبا هريرة! ومن يأبى! قال: «يأبى أن يستغفر الله».

معاشر الصائمين: الاستغفارُ: طلبُ المغفرةِ، وهي سَتْرُ الذنوبِ، والعفوُ عنها، ووقايةُ شرِّها.

والاستغفارُ من أجلّ القربات، وأنفعِ الطاعات، وأعظمِ موانع إنفاذ الوعيد.

و الاستغفارُ ختامُ الأعمال الصالحة؛ فيختم به الصلاةُ، وقيامُ الليل، والحجُّ.

ويختم به المجالس؛ فإن كانت ذكراً كان كالطابَعِ عليها، وإن كانت لغواً كان كفارةً لها.

ولما وفّى نبينا ﷺ تبليغَ الرسالةِ والجهادِ في سبيل الله، وأقرّ الله عينه بعز الإسلام، وظهور المسلمين، ودخول الناس في دين الله أفواجاً ـ أمره الله بالاستغفار؛ فكان التبليغُ والجهاد عبادةً قد أكملها، وأداها، فشُرِعَ له الاستغفار عَقِيبها.

وبالجملة فهذه حالُ العبدِ مع ربه في جميع أحواله؛ فهو يعلمُ أنه لا يوفّي هذا المقامَ حقّه؛ فهو أبداً يستغفر عَقِبَ كلِّ عمل صالح، فكلُّ أحدٍ محتاج إلى مغفرة الله ورحمته، ولا سبيل إلى النجاة بدون ذلك.

ولذلك ينبغي أن يُخْتَم شهرُ رمضانَ بالاستغفار؛ فهو يكمِّل الصيام، ويرقّع ما

تخرَّق منه باللغو، والرفث.

قال ابن رجب رحمه الله :«ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :«الغيبة تخرق الصيام، والاستغفار يرقِّعه؛ فمن استطاع منكم أن يجيء بصوم مرقَّع فليفعل»

وعن ابن المنذر رحمه الله قال: «معنى ذلك: أن الصيامَ جُنَّةٌ من النار ما لم يخرقْها، والكلام السيِّئ يَخْرِقُ هذه الجُنة، والاستغفار يرقِّع ما تخرَّق منها».

«وكتب عُمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى الأمصار يأمرهم بختم شهر رمضان بالاستغفار، وصدقة الفطر».

أيها الصائمون: مِنَ الناسِ مَنْ لا يعرف مِنْ موجبات سخط الله، وأسباب عقوبته إلا المعاصي التي شددت الشريعة في النهي عنها؛ فإذا تابوا من عمل سيىء فإنما يتوبون منها؛ فهذه حال عامة المؤمنين.

أما خاصة المؤمنين فحالهم أكملُ وأتم؛ فهم يعرفون أن لكل عمل سيِّىء لوثةً في النفس تُبْعِدُ بها عن الكمال، ويرون أن لكل عمل صالح أثراً في النفس يقربها من الله -عز وجل- والتقصير في الصالحات يعدُّ عند هؤلاء من الذنوب التي تهبط بالنفس، وتبعدها عن الله؛ فالنفس إذا قصَّرت فيها تتوب؛ وإذا استمرت لم تأمنْ من النقائض والعيوب.

ويختلف اتهامُ هؤلاء لأنفسهم باختلاف عِلْمِهم بصفات النفس، وما يعرضُ لها من الآفات في سيرها، وعلمهم بكمال الله، ومعنى القرب منه، واستحقاق رضوانه.

ولهذا ترى هؤلاء الكمّلِ يسارعون في الخيرات، ويبادرون إلى التوبة والاستغفار؛ لشعورهم بالنقص في العمل والتقصير في حق رب الأرض والسماوات.

أيها الصائمون :للاستغفار فضائلُ جمَّة، وأسرار بديعةٌ، وبركاتُ متنوعة، فمن ذلك أنه طاعة لله، وأنه سببٌ لمغفرةِ الذنوب، ورفعةِ الدرجات، ونزولِ الأمطار،

والإمدادِ بالأموال والبنين ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢ ﴾

والاستغفارُ سببٌ في زيادة القوة والمتاع الحسن، ودفع البلاء، وحصول الرحمة.

قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾

وقال على لسان هود ـ عليه السلام ـ : ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾

وقال ـ عز وجل ـ : ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

قال لقمان ـ عليه السلام ـ لابنه: «يا بني عوّد لسانَك الاستغفارَ، فإن لله ساعاتٍ لا يَرُدُّ فيهن سائلاً».

قالت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ : «طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً».

وقال أبو المنهال رحمه الله: «ما جاورَ عبدٌ في قبرِه من جارٍ أحبَّ إليه من استغفارٍ كثير».

وقال الحسنُ رحمه الله: «أكثروا من الاستغفار؛ فإنكم لا تدرون متى تنزل الرحمة»

وقال قتادة رحمه الله: «إن هذا القرآن يدلُّكم على دائكم ودوائكم؛ فأما داؤكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار».

وقال بعضهم: «فمن أهمّتهُ ذنوبُه أكثر لها من الاستغفار».

ومما يدل على عِظم شأن الاستغفار أن الله ـ عز وجل ـ جمع بينه وبين التوحيد في قوله: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾

وفي بعض الآثار أن إبليس قال: «أهلكت الناس بالذنوب، وأهلكوني بـ: لا إله

إلا الله ، والاستغفار » .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ :« شهادةُ التوحيدِ تفتح بابَ الخير ، والاستغفارُ يغلقُ بابَ الشر » .

معاشر الصائمين : للاستغفار صيغ عديدة ، وأفضلُها أن يبدأ العبد بالثناء على ربه ، ثم يثنِّي بالاعتراف بذنبه ، ثم يسأل الله المغفرة كما في حديث شداد بن أوس في صحيح البخاري عن النبي ﷺ قال :« سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي ؛ فاغفر لي ؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

ومن صيغ الاستغفار : « استغفر اللهَ الحيَّ القيومَ وأتوب إليه » .

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ :« من قاله غُفر له وإن كان فر من الزحف »

رواه أبو داود ، والترمذي ، وجوّد إسناده المنذري في الترغيب والترهيب.

وفي كتاب عمل اليوم والليلة للنسائي عن خباب بن الأرت ﷺ قال : قلت يا رسول الله! كيف نستغفر ؟ قال : « قل : اللهم اغفر لنا وارحمنا وتب علينا ؛ إنك أنت التواب الرحيم » .

وفيه ـ أيضا ـ عن أبي هريرة ﷺ قال :« ما رأيت أحداً أكثر أن يقول : أستغفر الله وأتوب إليه من رسول الله ﷺ » .

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : « إنْ كنا لنعُدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائةَ مرةٍ يقول :« رب اغفر لي وتب عليّ ؛ إنك أنت التواب الرحيم » .

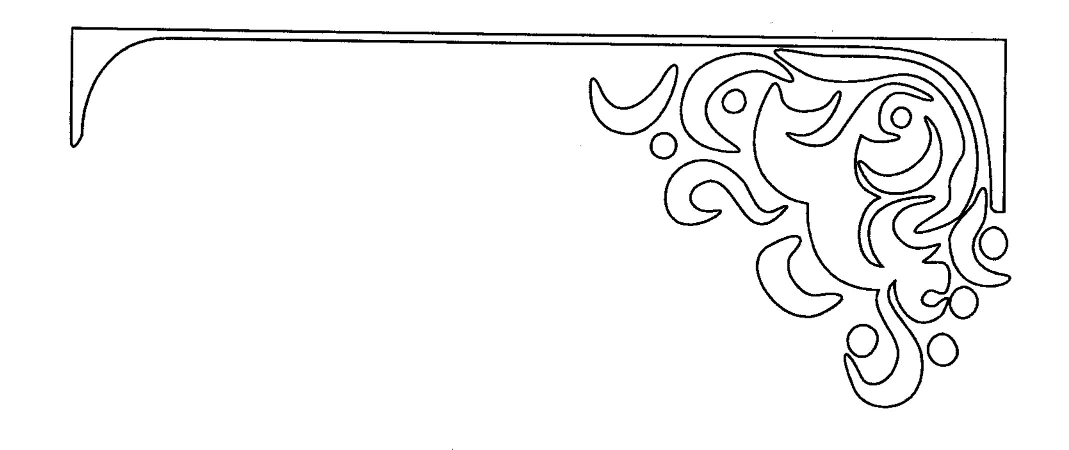
رواه أحمد ، وأبو داود ، والبخاري في الأدب المفرد ، والترمذي ، وابن ماجة ، وصححه ابن حبّان

ومن أخصر الصيغ وأشهرها: أستغفر الله، ورب اغفر لي.

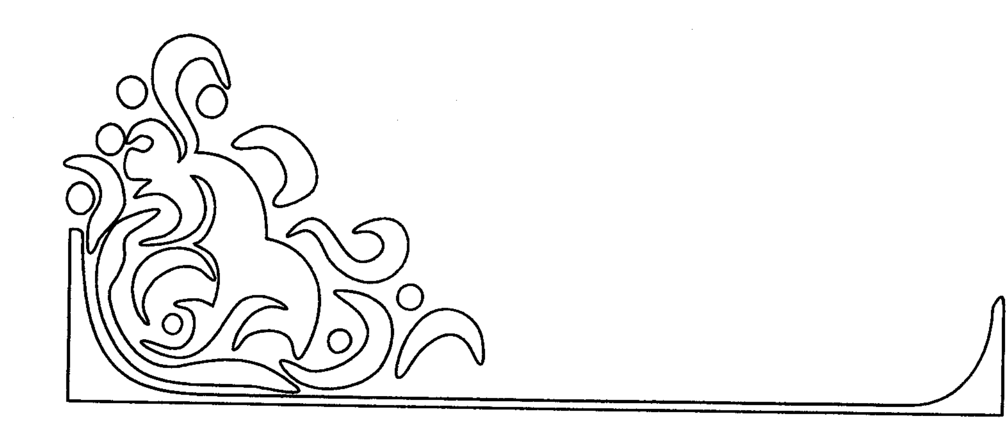
معاشر الصائمين، هذا هو الاستغفار، وهذا فضله، وتلك صيغه، فما أحرانا في نهاية شهرنا أن تلهج ألسنتنا بالاستغفار، وما أجمل أن يكون الاستغفار لنا خير دثار فيما نستقبله من أيام.

اللهم تقبل صيامنا، وتجاوز عن تقصيرنا وتفريطنا، وصلّ اللهم وسلّم على نبينا محمد.





أحاديث العشر



١. رمضان شهر الدعاء (١)

٢. رمضان شهر الدعاء (٢)

٣. مسائل في التوبة

٤. من لطائف التوبة

٥. رمضان شهر الصبر(١)

٦. رمضان شهر الصبر(٢)

٧. رمضان شهر السخاء والجود

٨. الصيام والخوف من الله

٩. الصيام والرجاء

١٠. من معاني العيد

الدرس الأول — رمضان شهر الدعاء (١)

الحمد لله مجيب الدعوات وكاشف الكربات، والصلاة والسلام على أزكى البريات، أما بعد:

فإن شأنَ الدعاءِ عظيم، ونفْعَهُ عميم، ومكانتَه عاليةٌ في الدين، فما استُجْلِبت النعمُ بمثله ولا استُدْفِعت النِّقَمُ بمثله، ذلك أنه يتضمن توحيد الله، وإفراده بالعبادة دون من سواه، وهذا رأس الأمر، وأصل الدين.

وإن شهرَ رمضانَ لفرصةٌ سانحة، ومناسبة كريمة مباركة يتقرب فيها العبد إلى ربه بسائر القربات، وعلى رأسها الدعاء؛ ذلكم أن مواطن الدعاء، ومظانَّ الإجابة تكثر في هذا الشهر؛ فلا غَرْوَ أن يُكْثِر المسلمون فيه من الدعاء.

ولعل هذا هو السر في ختم آيات الصيام بالحثّ على الدعاء، حيث يقول ربنا ـ عز وجل ـ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

وإليكم ـ معاشر الصائمين ـ هذه الوقفات اليسيرة مع مفهوم الدعاء، وفضله.

أيها الصائمون: الدعاء هو أن يطلبَ الداعي ما ينفعُه وما يكشف ضُرَّه؛ وحقيقته إظهار الافتقار إلى الله، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمةُ العبوديةِ، واستشعارُ الذلةِ البشرية، وفيه معنى الثناءِ على الله ـ عز وجل ـ وإضافةِ الجود والكرم إليه.

أما فضائلُ الدعاءِ، وثمراتُه، وأسرارُه ـ فلا تكاد تحصر، فالدعاءُ طاعةٌ لله، وامتثال لأمره، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾

والدعاء عبادة، قال النبي ﷺ: «الدعاء هو العبادة».

رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، ورواه ابن ماجه، وصححه الألباني.

والدعاء سلامة من الكبر: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾.

والدعاءُ أكرمُ شيءٍ على الله، قال النبي ﷺ: «ليس شيءٌ أكرم على الله ـ عز وجل ـ من الدعـاء».

رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد، وابن ماجة، والترمذي والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي.

والدعاء سبب لدفع غضب الله، قال النبي ﷺ: «من لم يسأل اللهَ يَغْضَبْ عليه».

أخرجه أحمدُ، والترمذيُّ، وابن ماجةَ، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني.

والدعاء سبب لانشراح الصدر، وتفريج الهم، وزوال الغم، وتيسير الأمور، ولقد أحسن من قال:

وإني لأدعو اللهَ والأمرُ ضيّقٌ ... عليَّ فما ينفك أن يتفرّجا
وربَّ فتىً ضـاقتْ عليه وجوهُهُ ... أصاب له في دعوة الله مَخْرَجا

والدعاء دليل على التوكل على الله، فسرُّ التوكلِ وحقيقتُه هو اعتمادُ القلبِ على الله، وفعلُ الأسباب المأذون بها، وأعظمُ ما يتجلى هذا المعنى حالَ الدعاء؛ ذلك أن الداعيَ مستعينٌ بالله، مفوضٌ أمرَهُ إليه وحده.

والدعاء وسيلة لكِبَرِ النفس، وعلو الهمة؛ ذلك أن الداعيَ يأوي إلى ركن شديدٍ ينـزل به حاجاتِه، ويستعين به في كافّة أموره؛ وبهذا يتخلص مـن أَسْرِ الخلق، ورقِّهم، ومنَّتِهم، ويقطعُ الطمعَ عما في أيديهم، وهذا هو عين عِزِّهِ، وفلاحِه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ : «وكلّما قوي طمع العبد في فضل الله، ورحمته، لقضاء حاجته ودفع ضرورته؛ قويت عبوديتُه له، وحريته مما سواه؛ فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديتَه له فَيأْسُهُ منه يوجب غنى قلبه» ا.هـ.

والدعاء سلامة من العجز، ودليل على الكَياسة، قال النبي ﷺ : «أعجز الناس من عجز من الدعاء، وأبخل الناس من بخل بالسلام».

رواه ابن حبان، وصححه الألباني.

ومن فضائل الدعاء: أن ثمرته مضمونة ـ بإذن الله ـ قال النبي ﷺ : «ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل، أو كفّ عنه من سوء مثلَه؛ ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم». رواه أحمد والترمذي، وحسنه الألباني.

وقال ﷺ : «ما من مؤمنٍ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لله يسأله مسألةً إلا أعطاه الله إياها، إما عجّلها له في الدنيا، وإما ذخرها له في الآخرة، ما لم يعجل».

قالوا: يا رسول الله وما عَجَلَتُه؟ قال: «يقول: دعوت ودعوت ولا أراه يُستجاب لي».

أخرجه أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني.

ففي الحديثين السابقين وما في معناهما؛ دليل على أن دعاء المسلم لا يُهمل، بل يُعطى ما سأله إما مُعجلاً، وإما مُؤجلاً.

قال ابن حجر ﵀ : «كلُّ داعٍ يُستجاب له، لكن تتنوع الإجابة؛ فتارةً تقع بعين ما دعا به، وتارةً بعِوَضِه». ا.هـ.

قال بعضهم في وصف دعوة:

وساريةٍ لم تَسْرِ في الأرض تبتغي ... مَحَلاً ولم يقطعْ بها البِيْدَ قاطعُ

سَرَتْ حيث لم تَسْرِ الركابُ ولم تُنخْ ... لِورْدٍ ولم يَقْصُرْ لها القيدَ مانعُ

تحلُّ وراءَ الليلِ والليلُ ساقطٌ ... بأرواقه فيه سميرٌ وهاجعُ
تُفتِّحُ أبوابَ السماء ودونها ... إذا قرعَ الأبوابَ منهن قارعُ
إذا أَوْفَدَتْ لم يَرْدُدِ اللهُ وفدَها ... على أهلها والله راءٍ وسامعُ
وإني لأرجو اللهَ حتى كأنني ... أرى بجميل الظنِّ ما اللهُ صانعُ

ومن فضائل الدعاء: أنه سبب لدفع البلاء قبل نزوله، ورفعه بعد نزوله، قال النبي ﷺ: «لا يغنى حذرٌ من قدرٍ، وإن الدعاءَ ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن الدعاء ليلقى البلاءَ فيعتلجان إلى يوم القيامة» أخرجه الطبراني وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

ومعنى يعتلجان أي: يتصارعان، ويتدافعان.

والدعاء يفتح للعبد بابَ المناجاةِ ولذائذَها، قال بعضُ العُبَّادِ:«إنه ليكون لي حاجةٌ إلى الله، فأسأله إياها، فَيَفْتَحُ عَلَيَّ من مناجاتِهِ، ومعرفتِهِ، والتذللِ لَهُ، والتملقِ بين يديه ما أحب معه أن يؤخَّر عني قضاؤها، وتدومَ لي تلك الحال».

أيها الصائمون الكرام،والدعاء من أعظم أسباب الثبات والنصر على الأعداء، قال-تعالى-عن طالوت وجنوده لما برزوا لجالوت وجنوده: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

فماذا كانت النتيجة؟ ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾.

ومن فضائل الدعاء: أنه مَفْزَعُ المظلومين، ومَلْجأُ المستضعفين؛ فالمظلوم أو المستضعف إذا انقطعت به الأسباب، وأغلقت في وجهه الأبواب، ولم يجد من يرفع عنه مظلمته، ويعينه على دفع ضرورته، ثم رفع يديه إلى السماء، وبث إلى الجبار العظيم شكواه ـنصره الله، وأعزه، وانتقم له ولو بعد حين.

قال الإمام الشافعي رحمه الله :

وربَّ ظلومٍ قد كُفِيتُ بحربهِ ... فَأَوقعَه المقدورُ أيَّ وقوعِ

فَما كان لـيْ الإسلامُ إلا تَعَبُّداً ... وأدعيةً لا تُتَّقى بدروعِ

وحسبك أن ينجو الظلومُ وَخَلْفَهُ ... سهامُ دعاءٍ من قِسِيٍّ ركوعِ

مُرَيَّشةً بالهدب من كل ساهرٍ ... ومنهلةً أطرافها بدموعِ

ويقول :

أتهزأُ بالدعاء وتزدريه ... وما تدري بما صنع الدعاءُ

سهامُ الليلِ لا تخطي ولكن ... لها أَمَدٌ وللأمدِ انقضاءُ

وأخيراً : فإن الدعاءَ دليلٌ على الإيمان بالله، والإقرارله بالربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات؛ فدعاءُ الإنسان لربه متضمنٌ إيمانهَ بوجوده، وأنه غنيٌّ، سميعٌ بصيرٌ، رحيمٌ، قادرٌ، جوادٌ، مستحقٌ للعبادة دون من سواه.

اللهم يسرنا لليسرى، وجنبنا العسرى، اللهم اختم بالصالحات أعمالنا، واقرن بالعافية غدوَّنا وآصالنا، اللهم انصر المجاهدين، وفرج هم المهمومين، ونَفِّسْ كربَ المكروبين من المسلمين، واقض الدين عن المدينين، واشف مرضانا ومرضى المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين.

وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الثاني رمضان شهر الدعاء (٢)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المتقين، وقدوة الناس أجمعين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد مرَّ سالفاً الحديثُ عن فضائل الدعاء، والحديث ههنا سيكون حولَ شروطِ الدعاءِ وآدابِه على سبيل الإيجاز، ثم يُفصَّل الحديثُ عن مسألةٍ مهمةٍ في الدعاء، ألا وهي مسألة تأخّر الإجابة، والحِكَم من وراء ذلك.

أيها الصائمون الكرام: للدعاء شروطٌ عديدةٌ لابد من توافرها؛كي يكون الدعاء مستجاباً مقبولاً عند الله.

فمن أهم تلك الشروط: أن يكون الداعي عالماً بأن الله وحده هو القادر على إجابة الدعاء، وألا يدعو إلا الله وحده؛ لأن دعاء غير الله شرك، وأن يتوسل إلى الله بأحد أنواع التوسل المشروعة كالتوسل إلى الله باسم من أسمائه، أو صفة من صفاته، أو أن يتوسل بصالح الأعمال، أو بدعاء رجل صالح حيٍّ حاضر قادر.

ومن شروط الدعاء: تجنبُ الاستعجال، والدعاءُ بالخير، وحسنُ الظنِّ بالله، وحضورُ القلب، وإطابةُ المأكل، وتجنُّبُ الاعتداءِ، هذه هي شروط الدعاء على سبيل الإيجاز.

وهناك آداب يحسن توافرها: كي يكون الدعاء كاملاً، ومنها الثناءُ على الله قبل الدعاء، والصلاة ُعلى النبي ﷺ والإقرارُ بالذنب، والاعترافُ بالخطيئة، والتضرعُ، والخشوعُ، والرغبةُ، والرهبةُ، والجزمُ في الدعاءِ، والعزمُ في المسألة، والإلحاحُ بالدعاء، والدعاءُ في كل الأحوال، والدعاءُ ثلاثاً، واستقبالُ القبلة، ورفعُ الأيدي، والسواكُ، والوضوءُ، واختيارُ الاسم المناسبِ أو الصفةِ المناسبةِ كأن

يقول: يا رحمن ارحمني، برحمتك أستغيث.

ومن آداب الدعاء: خفضُ الصوتِ، وأن يتخير الداعي جوامعَ الدعاء، ومحاسنَ الكلام، وأن يتجنب التكلفَ، والسَجْعَ، وأن يبدأ الداعي بنفسه، وأن يدعو لإخوانه المسلمين.

هذه بعض آداب الدعاء على سبيل الإجمال، والأدلة على ذلك مبسوطة في الكتاب والسنة، والمجال لا يتسع للتفصيل؛ فالإتيان بشروط الدعاء وآدابه من أعظم الأسباب الجالبة لإجابة الدعاء.

ومن الأسباب ـ أيضاً ـ: الإخلاص لله حالَ الدعاء، وقُوةُ الرجاء، وشدةُ التحرّي، وانتظارُ الفَرَجِ، والتوبةُ، وردُّ المظالمِ، والسلامةُ من الغفلة، وكثرةُ الأعمال الصالحةِ، والأمرُ بالمعروفِ، والنهيُ عن المنكر، والتقربُ إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، وبِرُّ الوالدين، واغتنامُ الفُرصِ، وذلك بتحري أوقات الإجابة، واغتنامُ الأحوال، والأوضاع، والأماكن التي هي مظانُّ إجابة الدعاء.

أيها الصائمون الكرام: إن من البلاء على المؤمن أن يدعو فلا يُجاب؛ فيكرِّر الدعاء، ويلحَّ فيه، وتطولَ المدة فلا يرى أثراً للإجابة.

ومن هنا يجد الشيطان فرصته؛ فيبدأ بالوسوسة للمؤمن، وإيقاعه في الاعتراض على حكم الله، وإساءته الظن به ـ عز وجل ـ.

فعلى من وقعت له تلك الحال ألا يلتفت إلى ما يلقيه الشيطان؛ ذلك أن تأخر الإجابة مع المبالغة في الدعاء يحمل في طيّاته حِكَماً باهرةً، وأسراراً بديعةً، وفوائدَ جمةً، لو تدبرها الداعي لما دار في خَلَدِه تضجُّر من تأخر الإجابة.

ومن تلك الحِكَم والأسرار والفوائد التي يحسن بالداعي أن يتدبرها، ويجمل به أن يستحضرها ما يلي:

أولاً: أن تأخر الإجابة من البلاء كما أن سرعة الإجابة من البلاء ـ أيضاً ـ قال ـ عز وجل ـ: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾.

فالابتلاء بالخير يحتاجُ إلى شكر، والابتلاءُ بالشر يحتاج إلى صبر؛ فإياك أن تستطيل البلاء، وتَضْجَرَ من كثرة الدعاء؛ فإنك ممتحنٌ بالبلاء متعبَّدٌ بالصبر والدعاء؛ فلا تيأسنّ من رَوْح الله وإن طال البلاء.

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «أصبحت ومالي سرورٌ إلا في انتظارِ مواقعِ القدرِ، إن تكنِ السراءُ، فعندي الشكرُ، وإن تكن الضراءُ فعندي الصبرُ»

ثانياً: من حكم تأخر إجابة الدعاء: أن يستحضر الإنسان أن الله هو مالك الملك، فله التصرف المطلق، بالعطاء والمنع؛ فلا رادّ لفضله، ولا مُعقّب لحكمه، ولا اعتراض على عطائه ومنعه، إن أعطى فبفضل، وإن منع فبعدل؛ فلا حقّ ـ إذاً ـ للمخلوق المربوب على الخالق الرب ـ عز وجل ـ.

ثالثاً: أن الله ـ عز وجل ـ له الحكمة البالغة؛ فلا يعطي إلا لحكمة، ولا يمنع إلا لحكمة، وقد يرى الإنسان أن في ذلك الشيء مصلحةً ظاهرةً؛ ولكن الحكمةَ لا تقتضيه، فقد يخفى في الحكمة فيما يفعله الطبيب من أشياء تؤذي في الظاهر ويُقْصَد بها المصلحة، فلعل هذا من ذاك، بل أعظم؛ فقد يكون تأخرُ الإجابة، أو منعُها هو عينَ المصلحةِ.

رابعاً: قد يكون في تحقق المطلوب زيادةٌ في الشر، فربما تحقق للداعي مطلوبُه، وأجيب له سؤلُه؛ فكان ذلك سبباً في زيادةِ إثمٍ، أو تأخيرٍ عن مرتبةٍ، أو كان ذلك حاملاً على الأشَر والبَطر، فكان التأخير أو المنع أصلح.

وقد روي عن بعض السلف أنه كان يسأل الغزو؛ فهتف به هاتف: إنك إن

غزوت أُسرت، وإن أُسرت تنصّرت.

قال ابن القيم رحمه الله: «فقضاؤه لعبده المؤمن عطاءٌ، وإن كان في صورة المنع، ونِعْمَةٌ وإن كان في صورة محنة، وبلاؤه عافية، وإن كان في صورة بلية.

وَلَكنْ لجهل العبدِ، وظلمِه لا يَعُدُّ العطاءَ والنعمةَ والعافيةَ إلا ما التذّ به في العاجل، وكان ملائماً لطبعه.

ولو رزق من المعرفة حظاً وافراً؛ لعد المنعَ نعمةً والبلاءَ رَحمةً، وتلذذ بالبلاء أكثرَ من لذته بالعافية، وتلذذ بالفقر أكثرَ من لذته بالغنى، وكان في حال القِلّةِ أعظمَ شكراً من حال الكثرة.» ا-هـ.

وقال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله: «ولهذا من لطف الله -عز وجل- لعبده أنه ربما طمحت نفسُه لسبب من الأسباب الدنيوية التي يظُن بها إدراكَ بُغْيتِهِ، فيعلم أنها تضرّه، وتصدّه عما ينفعه؛ فيحول بينه وبينها، فيظل العبد كارهاً، ولم يَدْرِ أن ربه قد لَطَفَ به؛ حيث أبقى له الأمر النافع، وصرف عنه الأمر الضار».

خامساً: الدخول في زمرة المحبوبين لله -عز وجل- فالذين يدعون ربهم، ويُبْتَلَون بتأخر الإجابة عنهم -يدخلون في زمرة المحبوبين المشرَّفين بمحبة الله؛ فهو -عز وجل- إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم، قال النبي ﷺ: «إن عِظمَ الجزاءِ مع عِظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السَّخطْ» أخرجه الترمذي وابن ماجة، وحسنه الترمذي والألباني.

سادساً: أن اختيارَ اللهِ للعبد خيرٌ من اختيار العبد لنفسه، وهذا سر بديع يحسن بالعبد أن يتفطن له حال دعائه لربه؛ فهذا يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، ويُفْرِغُ قَلْبَهُ من التقديرات، والتدبيرات التي يصعد منها في عَقَبَة، وينـزل في أخرى.

وإذا فوض العبد أمره إلى ربه، ورضي بما يختاره له ـ أمدّه الله بالقوة، والعزيمة، والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضةُ اختيارِ العبدِ لنفسه، وأراه من حسن العاقبة ما لم يكن ليصلَ إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه.

سابعاً: أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والعكس بالعكس؛ بل إن عامةَ مصالحِ النفوس في مكروهاتها، كما أن عامَّةَ مضارِّها وأسباب هلكتها في محبوباتها قال ـ عز وجل ـ: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾.

قال سفيان بن عيينة رحمه الله: «ما يكرهُ العبدُ خيرٌ له مما يحب؛ لأن ما يكرهه يُهَيِّجُه للدعاء، وما يحبه يلهيه».

ثامناً: أن تأخر الإجابة سببٌ لِتَفَقُّدِ العبد لنفسه؛ فقد يكون امتناعُ الإجابة أو تأخرها لآفة في الداعي؛ فربما كان في مطعومه شبهةٌ، أو كان في قلبه وقتَ الدعاء غفلةٌ، أو كان متلبساً بذنوب مانعةٍ؛ وبهذا ينبعث إلى المحاسبة، والتوبة، ولو عُجِّلَت له الإجابةُ لفاتته هذه الفائدة.

تاسعاً: قد تكون الدعوةُ مستجابةً دون علم الداعي؛ لأن ثمرة الدعاء مضمونة ـ بإذن الله ـ قال النبي ﷺ: «ما من مسلم يدعو، ليس بإثم ولا بقطيعة رحم؛ إلا أعطاه الله إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها» قيل يا رسول الله ﷺ: إذاً نكثر؟ قال: «الله أكثر» أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني.

إذا تقرر هذا؛ فكيف يستبطئ الداعي الإجابة طالما أن الثمرةَ مضمونةٌ، ولماذا لا يحسنُ العبدُ ظنَّه بربه ويقول: لعله استُجِيب لي، وآتاني ربي إحدى هذه الثلاثِ من حيثُ لا أعلم؟!.

عاشراً: التمتع بطول المناجاة، فكلما تأخرت الإجابة طالت المناجاة، وحصلت اللذة، وزاد القرب، ولو عجلت الإجابة لربما فاتت تلك الثمرة.

قال سفيان الثوري رحمه الله: «لقد أنعم الله على عبد في حاجة أكثرَ من تضرعه إليه فيها».

حاديَ عَشَرَ: تكميلُ مراتب العبودية؛ فالله -عز وجل- يحب أولياءه، ويريد أن يكمل لهم مراتب العبودية؛ فيبتليهم بأنواع من البلاء، ومنها تأخر إجابة الدعاء؛ كي يترقّوا في مدارج الكمال، ومراتب العبودية.

ومن تلك العبوديات العظيمة التي تحصل من جرّاء تأخر إجابة الدعاء-انتظار الفرج، وقوةُ الرجاء، وحصولُ الاضطرار، والافتقارُ إلى الله، والانكسارُ بين يدي جبار السماوات والأرض، ومجاهدةُ الشيطان ومراغمُته.

أيها الصائمون: هذه بعض الحكمِ والأسرار والفوائدِ المتلمَّسةِ من جرّاء تأخر إجابة الدعاء؛ فحريٌّ بالعبد أن يكثر من دعاء الله، وبعد ذلك يدعُ التقديراتِ، والتدبيراتِ للعليم الحكيم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.



الدرس الثالث
مسائل في التوبة

الحمد لله الذي يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على أزكى البريات، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن رمضانَ شهرُ التوبةِ، وموسمَ الرجوع والإنابة، حيث يثوب الغاوون إلى رشدهم، ويُقْصِرُ المتمادون فيه عن غيِّهم.

وفي هذا الشهر الكريم تكثر الأسئلةُ عن أحكام التوبةِ، وتلحُّ الحاجةُ إلى بيان تلك الأحكام التي يتكرر عنها السؤال.

وإليكم -معاشر الصائمين- جملةً من المسائل في هذا الباب على سبيل الإيجاز.

فمن تلك المسائل: مسألة التخلص من الحقوق، والتحلل من المظالم؛ فالتوبة تكون من حق الله، وحقِّ العباد، فحقُّ الله -تعالى- يكفي في التوبة منه أن يترك ما كان يفعله من النواهي، وأن يفعل ما كان يتركه من الأوامر.

ومن حقوق الله ما يجب فيه مع التوبةِ القضاءُ والكفارةُ كما هو مفصّلٌ في مواضعه.

وأما حق غير الله -فَيَحْتَاجُ إلى التحلل من المظالم فيه، وإلى أداء الحقوق إلى مستحقيها، و إلا لم يحصلِ الخلاصُ من ضرر ذلك الذنب.

قال النبي ﷺ: «من كان لأخيه عنده مظلمة من مال، أو عرض؛ فليتحلَّلْهُ اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات» أخرجه البخاري.

ولكن من لم يقدر على الإيصال بعد بذله الوُسعَ في ذلك؛ فعفو الله مأمول، فإنه يضمن التبعاتِ، ويبدل السيئاتِ حسناتٍ.

أيها الصائمون: ومما يدخل في الحقوق والمظالم التي يجب التحلل منها - الحقوق المالية، فإن كان لدى التائب مظلمةٌ ماليةٌ لأحد من الناس فليردَّها عليه سواء كانت غصباً، أو تحيُّلاً، أو سرقة، أو جحداً لأمانة مالية، أو نحو ذلك.

وبعض الناس قد يستحيي من ردِّ تلك المظلمة، خصوصاً إذا كانت سرقة.

والحَلُّ في مثل هذا الحال يسير -بحمد الله- فإما أن يذهب بنفسه لصاحب الحق، ويخبرَه بما كان من أمره، ويرد عليه ما أخذه منه، أو أن يتحلل منه، وإما أن يهاتفه عبر الهاتف، ويتفق معه على حلّ معين، وإما أن يرسل له المبلغ عبر البريد، أو أن يوسط أحداً من الناس ليقوم بالوساطة في هذا الشأن.

وإن كان لا يعرف صاحبَ تلك المظلمةِ، أو أن يكون قد بحث عنه فلم يجدْه، ولم يعرف أحداً من قرابته، أو أن يكون مع ذلك قد نسي مقدارَ تلك المظلمةِ، أو أن يكون نسي صاحبَ المظلمة -فليقدِّرْ ما أخذ منه، وليتصدقْ به عنه.

وإذا كانت المظلمة من نوع الجراحات في الأبدان-فالتوبةُ منها أن يمكِّن صاحبَ الحق من استيفاء حقِّه إما بالمال، وإما بالقصاص، أو العفو؛ فإن لم يَعْرِفْه، أو لم يتمكنْ من لقائه فلْيدعُ له ولْيتصدقْ عنه إن استطاع.

وإذا كانت المظلمة في الأعراض، كأن تكون بقدح في أحد بغِيبة، أو نميمة، أو قذف، أو وشاية، أو أن تكون بإفساد لذات البين فليتحللْ ممن أساء إليه، ولْيصلح ما أفسد بقدر الإمكان.

فإن كان إذا أخبر مَنْ أساء في حقهم لا يغضبون عليه، ولا يورِثهم ذلك غماً - صارحهم، وطلب منهم المسامحة بعبارات عامة كأن يقول: إني أخطأت في حقك في الماضي، وأسأت فهمك، فظلمتُك بكلامٍ تَبَيَّن لي فيما بعدُ خطؤه، وإنني تبت الآن فسامحني-فلا بأس فقد يكون المُخبَرُ كريماً يقيل العثرة، ويتجاوز عن الزَّلة.

أما إن كانوا ممن إذا أخبرهم أحد بما اغتابهم أو قذفهم به حنقوا عليه، وازدادوا غماً، أو أنهم لا يرضون بالعبارات العامة، ولا يقنعون إلا بالتفاصيل التي إذا سمعوها زادوا هماً وكراهية لهذا الشخص-فإنه حينئذ لا يخبرهم، بل يكفي توبته فيما بينه وبين الله، وأن يذكر المُسَاءَ إليه بخير وإحسان؛ فيبدل ذمه بمدحه والاستغفار له فهذا هو المتعين في مثل هذه الحالة؛ لأن الإعلام -والحالة هذه- مَفْسَدةٌ لا تتضمن مصلحةً؛ إذا الإعلام قد يورث الحربَ، والعداوةَ، والغمَّ، و البغضاء؛ وهذا ضِدُّ مقصود الشارع من تأليف القلوب، والتراحم، والتعاطف.

وإذا كانت مظلَمةُ الأعراضِ متعلقةً بالمحارم ثم تاب منها -فشأنها شأن المسألة الماضية من جهة الاستتار، وتركِ الإعلامِ، فتكون توبةُ الإنسانِ فيما بينه وبين ربه؛ بل إن مصلحة الإخفاء هنا أكبر؛ لأن مصلحة الإعلام لا تكاد تذكر.

فإذا تاب الإنسانُ -على سبيل المثال- من معاكسة إحدى محارم المسلمين، أو حصل بينهما لقاءٌ، أو خلوةٌ، أو نحو ذلك-فَلْيَسْتَتِرْ بستر الله؛ لأنه إذا أخبر وَلِّيها؛ ليتحلل منه حصل مفسدةٌ أكبرُ، فقد يسعى الوليُّ للتّشفّي، والانتقام، وقد يتأذى كثيراً بمجرد علمه، وقد يحصل قتلٌ، وطلاقٌ، وفسادٌ عريضٌ.

أما إذا كان في الإخبار مصلحة، كأن تكون المرأة التي حصل منها ما حصل مستمرةً في غيها، ثم تاب من يعاكسها-فلا بأس بإشعار وليها، أو أحد معارفها العقلاء عبر الرسالة، أو الهاتف، حتى يقف الفساد عند حد.

وإذا كانت المظلمةُ عامةٌ يتضرر منها عموم الناس -فالتوبة في حق من يقوم بذلك أوجب؛ لأن ضررها متعدٍّ.

وذلك كحال من كان صحفياً يبث سمومه عبر وسائل الإعلام، أو كان ممثلاً يغري بالرذيلة، ويزري بالفضيلة من خلال تمثيله، أو كان أديباً أو كاتباً ينشر الخَنا

والزور، أو كان مبتدعاً في دين الله ناشراً لبدعته. أو أياً كان ممن يستخدم مواهبَه وإمكاناتِه لمحاربة الخير ونشر الشر-فالواجب على هؤلاء أن يتوبوا، وتوبتُهم تكون بترك ما يقومون به، وبالندم على ما فات من أمرهم، وإعلان الخطأ إن استطاعوا، واستقبال بقية العمر بالإكثار من الطاعات، والحرصِ على هداية من تسببوا في إغوائهم، وتسخير الموهبة والمكانة لخدمة الدين.

وبالجملة فكلُّ مظلمةٍ يستطيع الإنسانُ أن يتحللَ منها فليفعلْ، وما لم يستطع - فلا حرج عليه؛ فعفو الله مأمول، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

ومن المسائل في باب التوبة: مسألةُ نقضِ التوبة، فالإنسان إذا تاب من ذنب ثم عاد إليه مرة أخرى يكون ناقضاً للتوبة؛ فيلزمه حينئذ أن يجدِّدَ توبتَه.

ولا يرجع إليه -في هذه الحالة- إثمُ الذنب الذي تاب منه، والعائد إليه إنما هو إثمُ الذنبِ الجديدِ المستأنفِ لا الماضي؛ لأن الماضي قد ارتفع بالتوبة، وصار بمنزلة ما لم يَعْمَلْه.

وعلى هذا فلا يجوز للتائب إذا ابتلي بالذنب مرة أخرى أن يدع التوبة؛ بحجة أنه نقض التوبة، بل عليه أن يتوب، وأن يرجع إلى ربه كلما أحدث ذنباً.

اللهم ارزقنا التوبة النصوح؛ التي ترضيك عنا. واجعلنا من عتقائك في هذا الشهر الكريم.

وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

❖❖❖

الدرس الرابع

من لطائف التوبة

الحمد لله الكريم التواب، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله والأصحاب، أما بعد:

فإن رمضانَ موسمُ الخيرات، وميدانُ التنافس في الباقيات الصالحات، وإن النفوس فيه لتَنْزِعُ عن غيِّها، وتبادرُ إلى تلافي ما مضى من تقصيرها.

وبما أن رمضانَ فرصةٌ للتوبة والرجوع إلى الله فهذه نبذةٌ موجزةٌ يتبين لنا من خلالها بعضُ المسائل واللطائف في باب التوبة.

فمن ذلك: أن التوبةَ واجبةٌ ومستحبةٌ؛ فالتوبةُ الواجبةُ تكون من فعلِ المحرماتِ وتركِ الواجباتِ والتوبة المستحبةُ تكون من فعل المكروهات وتركِ المستحبات؛ فمن اقتصر على التوبة الأولى كان من المقتصدين الأبرار، ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقربين، ومن لم يأتِ بالأولى الواجبة؛ كان من الظالمين؛ إما الكافرين وإما الفاسقين.

ومن المسائل في باب التوبة: مسألة التوبةُ النصوحِ، وهي الخالصةُ، الصادقةُ، الناصحةُ الخاليةُ من الشوائب و العلل؛ وهي التي تكون من جميع الذنوب؛ فلا تَدَعُ ذنباً إلا تناولتْه، وهي التي يَجْمَعُ صاحبُها العزمَ والصدقَ بكُلِّيته؛ فلا يبقى عنده تردُّدٌ ولا تَلوُّم، ولا انتظار، وهي التي تقعُ لمحض خوف الله، وخشيته، والرغبة مما لديه، والرهبة مما عنده، فمن كانت هذه حالَهُ غُفِرَتْ ذنوبُه كلُّها، وإذا حَسُنَتْ توبتُه بدّل الله سيئاتِه حسنات.

ومن المسائل في باب التوبة: مسألةُ التوبةِ الخاصة، وهي التي تكون من بعض الذنوب؛ فالواجب على العبد أن يتوب من جميع الذنوب صغيرها وكبيرها.

لكن إذا تاب من بعضها مع إصراره على بعضها الآخر -قُبِلَتْ توبتُه مما تاب منه ما لم يُصِرَّ على ذنبٍ آخرَ من نوعه.

مثال ذلك: أن يتوب من الرّبا وهو مصر على شرب الخمر، فتقبل توبته من الربا وهكذا.

وقد يُتَصَوَّر أن يتوب الإنسانُ من الكثير من الذنوب دون القليل؛ لأن لكثرة الذنوب تأثيراً في كثرة العقوبة، وصعوبة التوبة.

وبالجملة فكلٌّ ذنبٍ له توبةٌ خاصةٌ، وهي فرضٌ منه لا تتعلق بالتوبة من غيره؛ فهذه هي التوبةُ الخاصةُ، وحكمها: أنها تَصِحُّ فيما تاب منه؛ شريطةَ أن يكون التائب باقياً على أصل الإيمان.

وسر المسألة: أن التوبة تَتَبَعَّضُ كالمعصية؛ فيكون تائباً من وجه دون وجه.

ثم إن على العبد إذا وُفِّق للتوبة من ذنب أن يسعى للتخلص من الباقي؛ لأن الإصرارَ على الذنوب يقود إلى ذنوبٍ أخرى؛ فالحسنة تهتف بأختها، والسيئة كذلك.

ومن اللطائف في باب التوبة مسألةُ رجوعِ الحسناتِ إلى التائب بعد التوبة؛ فإذا كان للعبد حسناتٌ، ثم عمل بعدها سيئاتٍ استغرقت حسناتِه القديمةَ وأَبطَلَتْها، ثم تاب بعد ذلك توبة نصوحاً -عادت إليه حسناتهُ القديمةُ ولم يكن حكمُه حكمَ المستأنف لها بل يقال: تُبْتَ على ما أسلفتَ من خير؛ فالحسنات التي فَعَلْتَها في الإسلام أعظمُ من الحسنات التي يفعلها الكافر في كفره، من عتاقة، وصِدْقِة، وصِلَةٍ، وبر.

قال حكيم بن حزام رضي الله عنه: «قلت يا رسول الله، أرأيتَ أشياءَ كنت أتحنَّث بها - يعنى أتعبدُّ بها- في الجاهلية من صَدقة، أو عتاقة، أو صلة رحم؛ فهل فيها من أجر؟ فقال النبي ﷺ « أسلمتَ على ما أسلفتَ من خير» رواه البخاري ومسلم.

قال ابن حجر رحمه الله في شرح الحديث: «لا مانع من أن يضيف الله إلى حسناته في الإسلام ثوابَ ما كان صدر منه في الكفر؛ تفضّلاً وإحساناً» اهـ.

وقال ابن القيم رحمه الله مبيّناً العلة في ذلك: «وذلك لأن الإساءةَ المُتَخَلِّلَة بين الطاعتين قد ارتفعت بالتوبة، وصارت كأنها لم تكن؛ فتلاقت الطاعتان، واجتمعتا، والله أعلم» اهـ.

ومن اللطائف في باب التوبة: مسألةُ رجوعِ التائبِ إلى حاله ومقامه قبل المعصية؛ فقد يكون للعبد حالٌ، أو مقامٌ مع الله، ثم ينـزل عنه بسبب ذنبٍ ارتكبه، ثم بعد ذلك يتوب من ذلك الذنب، فهل يعود بعد التوبة إلى مثل ما كان، أو لا يعود، أو يعود إلى أنقص من رتبته، أو يعود خيراً مما كان؟

والجواب: أن من التائبين من يعود إلى مثل حاله الأول، ومنهم من يعود إلى أكملَ من حاله، ومنهم من يعود إلى أنقصَ مما كان؛ فإن كان بعد التوبة خيراً مما كان قبل الخطيئة، وأشدَّ حذراً، وأعظم تشميراً، وأعظم ذلاً وخشية وإنابة ـ عادَ إلى أرفع مما كان.

وإن كان قبل الخطيئة أكمل في هذه الأمور، ولم يعد بعد التوبة إليها عاد أنقص مما كان عليه.

وإن كان بعد التوبةِ مثلَ ما كان قبل الخطيئة ـ رجع إلى منـزلته.

هذا ما رجّحه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هذه المسألة.

وعلى هذا؛ فإنه ينبغي التفطُّن لهذه المسألة، خصوصاً من كان له حالٌ مع الله، وكان ذا خشيةٍ، وعلمٍ، وتألُّهٍ، ومسارعة إلى الخيرات، وحرص على الدعوة ونحو ذلك، ثم طاف به طائف من الشيطان فأزلّه، وأغواه، وطوَّح به عن قصد السبيل، فنـزل عن رتبته السابقة، وفقد أُنسَه بالله، ودبَّ إلى الضّعف والفتور وترك ما كان

يقوم به من خير ومسارعة.

فهذه مسألة تعتري كثيراً من الناس، فيستسلمون لها، ويركنون إلى خاطر اليأس، ويرضون بالدّون، فيظنون أنهم لا يمكن أن يرجعوا إلى حالتهم السابقة من الخير، والقرب من الله.

فعلى من وقعت له تلك الحال ألا يستسلم للشيطان، وألا ييأس من رجوعه إلى ما كان عليه من منزلة؛ بل عليه أن يجتهد بالتوبة النّصوح، وأن يشمّر عن ساعد الجدِّ؛ لتدارك ما فات بالأعمال الصالحات؛ فلربما عاد إلى مقامه وحاله السابق، بل ربما عاد أكمل مما كان عليه، وليس ذلك ببعيد على من كان ذا نفس شريفة، وهمة عالية.

ولا بُعدَ في خيرٍ وفي الله مطمعٌ ولا يأسَ من رَوْحٍ وفي القلب إيمانُ

ومن المسائل في هذا الباب: أن فعلَ معصيةٍ من المعاصي لا يسوّغ فعل غيرها، ولا يسوّغ ترك الطاعات، ولا المجاهرة بالمعصية، أو الدعوة إليها.

ومن ذلك أن فعل المعاصي لا يسوغ للإنسان حبَّ المعصية وأهلِها، وبغضَ الطاعةِ وأهلِها، ولا يسوغ له ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله.

أيها الصائمون: مسائل التوبة كثيرة، ولطائفها متنوعة، وأسرارها بديعة عديدة لا يتّسع لها هذا الوقت اليسير.

اللهم إننا نسألك التوبة النصوح التي ترضيك عنا.

وصل اللهم وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

❖❖❖

الدرس الخامس

رمضان شهر الصبر (١)

الحمد لله الذي هدانا لأقوم السُّبل، ونسأله أن يمدَّنا بعزم لا يأخذه فتور ولا ملل، وأن ينفي عن قلوبنا اليأس ويقوي منّا الأمل، والصلاة والسلام على نبينا محمد المؤيد بأجلّ آية، وأسطع برهان، الداعي إلى الدين الحق بأقوم حجة وأبلغ بيان، وعلى آله وأصحابه السادة الأمجاد، الذين فتحوا بحكمتهم القلوب، وبأسنتهم الوهاد والنجاد، أما بعد:

فإن رمضان شهرُ الصبر، ومدرسةُ الصبر؛ فالصومُ تعويدٌ على الصبر، وتمرينٌ عليه، ولهذا ورد عن النبي ﷺ أنه سمى شهرَ رمضان شهرَ الصبر.

وفي حديث آخر عنه ﷺ قال: «الصوم نصف الصبر». أخرجه الترمذي.

ثم إن الصبر ثلاثة أنواع:

صبرٌ على طاعة الله، وصبرٌ عن محارم الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

وتجتمع هذه الثلاثةُ كلُّها في الصوم؛ فإن فيه صبراً على طاعة الله، وصبراً عمّا حرم الله على الصائم من الشهوات، وصبراً على ما يحصل للصائم من ألم الجوع، والعطش، وضعف النفس والبدن.

وهذا الألمُ الناشئُ عن أعمال الطاعات يثاب عليه صاحبه؛ كما قال-تعالى-في المجاهدين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

بل إن الصومَ يضاعَفُ مضاعفةً خاصةً، ذلك أن الله-عز وجل-يتولى جزاء

الصائمين، فقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «كل عمل ابن آدم له؛ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف».

قال الله ـ عز وجل ـ: «إلا الصيام؛ فإنه لي، وأنا أجزي به؛ إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي» الحديث.

قال ابن رجب ﷺ في هذا الحديث: «فعلى هذه الروايةِ؛ يكون استثناءُ الصومِ من الأعمال المضاعفة، فتكون الأعمالُ كلُّها تضاعف بعشر أمثالها إلا الصيام؛ فإنه لا ينحصر تضعيفُه في هذا العدد، بل يضاعفه الله ـ عز وجل ـ أضعافاً كثيرة بغير حصر عدد؛ فإن الصيام من الصبر، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾» ا ـ هـ.

أيها الصائمون هكذا يتبين لنا عِظمُ الارتباط بين الصوم والصبر، ويتضح لنا أن الصوم سبيلٌ إلى اكتساب خلق الصبر، ذلك الخلقُ العظيم الذي أمر الله به، وأعلى مناره، وأكثر من ذكره في كتابه، وأثنى على أهلِه القائمين به، ووعدهم بالأجر الجزيل عنده.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ وقال ـ عزو جل ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

وقال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «ومن يتصبّر يصبّره الله، وما أُعطي أحدٌ عطاءً أعظمَ ولا أوسعَ من الصبر».

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: «وجدنا خيرَ عيشِنا بالصبر».

وقال: «أفضلُ عيشٍ أدركناه بالصبر، ولو أن الصبرَ كان من الرجال كان كريماً».

وقال أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب ﷺ «الصبرُ مطيةٌ لا تكبو».

وقال الحسن ﷺ: «الصبرُ كنزٌ من كنوز الخير، لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده».

معاشر المؤمنين: الصائمُ المحتسبُ يُفيد دروساً جمةً في الصبر من جرّاء صيامه، فهو يدعُ الطعامَ والشراب والشهوة حالَ صيامه، فيفيد درساً عظيماً في الصبر؛ حيث يتعوَّد فَطْمَ نفسه عن شهواتها وغيِّها.

ومَنْ يطعمُ النفسَ ما تشتهي كمَن يُطعمُ النارَ جَزْلَ الحطبْ

والصائمُ المحتسبُ إذا أوذي أو شتم لا يغضب، ولا يقابل الإساءة بمثلها، ولا تضطرب نفسه، فكأنه بذلك يقول لمن أساء إليه: افعل ما شئت، فقد عاهدت ربي بصومي على أن أحفظ لساني وجوارحي، فكيف أنقض العهد، أو أسيء إليك كما أسأتَ إليّ ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

والصائم المحتسبُ لا يثور لأتفه الأسباب كحال من لم يتسلحوا بالصبر، ممن يظنون أن الصومَ عقوبةٌ وحرمانٌ، فيخرجون عن طورهم، وتثور نفوسهم، وتضطرب أعصابهم.

أما الصائم المحتسبُ فتراه هادئَ النفس، ساكن الجوارحِ، رضيَّ القلب.

والصائمُ المحتسبُ يطرد روح الملل؛ لأن صيامه لله، وصبره بالله، وجزاءه على الله.

والأمةُ الصائمةُ المحتسبةُ تتعلمُ الانضباطَ والصبرَ على النظام، والتحررَ من أسر العادات.

وهكذا يتبين لنا أثرُ الصيام في اكتساب خلق الصبر؛ فإذا تحلى الإنسان به كان جديراً بأن يفلح في حياته، وأن يقدِّمَ الخيرَ العميمَ لأمته، ويتركَ فيها الأثرَ الكبيرَ.

وإن عَطُل من الصبر فما أسرعَ خورَه، وما أقل أثرَه.

ثم إن الإنسان ـ أيَّ إنسان ـ لا بد له من الصبر، إما اختياراً وإما اضطراراً؛ ذلك أنه عُرضةٌ لكثير من البلاء في نفسه بالمرض، وفي ماله بالضياع، وفي أولاده وأحبته بالموت، وفي حياتِه العامةِ بالحروبِ وتوابِعها من فقدان كثير من حاجاته التي تعوَّدها في حياته؛ فإذا لم يتعوَّدِ الصبرَ على المشاقِّ وعلى تركِ ما يألف ـ وقع صريع تلك الأحداث.

وكذلك حال الإنسان مع الشهوات؛ فهي تتزين له، وتغريه، وتتمثل له بكل سبيل، فإذا لم يكن معه رادعٌ من الصبر، ووازعٌ من الإيمان أوشك أن يتردى في الحضيض.

ومَنْ كان متصدياً للدعوة إلى الإصلاح، منبرياً للدفاع عن الحق ـ فما أشد حاجتَه إلى الصبرِ، وتوطينِ نفسِه على المكاره؛ فإن في ذلك السبيل عقبة كؤوداً لا يقتحمها إلا ذو الهمم الكبيرة؛ فإن في طوائف المبطلين أو المفسدين نفوساً طاغية، وأحلاماً طائشة، وألسنةً مقذعةً، وربما كان فيهم أيدٍ باطشةٌ، وأرجلٌ إلى غير الحق ساعية.

وإنما تعظم همةُ الداعي إلى الحق والإصلاح بقدر صبره، وبقدر ما يتوقعه من فقد محبوب، أو لقاء مكروه؛ فلا بد لأهل الحق من الصبر على دعوة الناس، ولا بدّ لهم من الصبر في انتظار النتائج؛ لأن استعجال الثمرة قد يؤدي إلى نتائجَ معاكسةٍ تضر أكثر مما تنفع؛ فالصبر إذا اقترن بالأمر كان عصمةً للداعية من الانقطاع، وتفجرت بسببه ينابيعُ العزم والثبات.

إنه الصبر المُتْرَعُ بأنواع الأمل العريضِ، والثقةِ بمن بيده ملكوت كل شيء، ليس صبرَ اليائسِ الذي لم يجد بُدَّاً من الصبر فصبر، ولا صبر الخانع الذليل لغير ربه -جل وعلا-.

وبالجملة فإن الصبر من أعظم الأخلاق، وأجلّ العبادات، وإن أعظمَ الصبرِ وأحمده عاقبةً الصبرُ على امتثال أمر الله، والانتهاء عمّا نهى الله عنه؛ لأنه به تَخْلُص الطاعة، ويصِحُّ الدين، ويُسْتَحَقُّ الثوابُ؛ فليس لمن قل صبرُه على الطاعةِ حظٌّ من برٍّ، ولا نصيبٌ من صلاح.

ومن الصبر المحمود: الصبر على ما فات إدراكه من رغبةٍ مرجوَّة، وأعوزَ نيلُه من مسرةٍ مأمولةٍ، فإن الصبر عنها يُعقِب السلوَّ منها، والأسفُ بعد اليأسِ خَرَقٌ.

ومن جميل الصبر: الصبرُ فيما يُخْشَى حدوثُه من رهبة يخافها، أو يحذرُ حلولَه من نكبةٍ يخشاها، فلا يتعجلْ همَّ ما لم يأتِ؛ فإن أكثر الهموم كاذبة، وإن الأغلب من الخوف مدفوع.

ومن جميل الصبرِ الصبرُ على ما نزل من مكروه، أو حلّ من أمر مخوف؛ فبالصبر في هذا تنفتحُ وجوهُ الآراءِ، وتُسْتَدْفَعُ مكائدُ الأعداءِ؛ فإن من قلّ صبره عَزُبَ رأيه، واشتد جزعُه، فصار صريعَ همومه، وفريسةَ غمومه.

وكما أن الأفرادَ بأمسِّ الحاجةِ إلى الصبر فكذلك الأمة؛ فأمة الإسلام كغيرها من الأمم؛ لا تخرج عن سنن الله الكونية، فهي عرضةٌ للكوارث، والمحن.

وهي -في الوقت نفسه- مكلفةٌ بمقتضى حكم الله الشرعي بحمل الرسالة الخالدة، ونشر الدعوة المباركة، وتحمُّلِ جميعِ ما تلاقيه في سبيلها برحابة صدر، وقوةِ ثباتٍ، ويقينٍ بأن العاقبة للتقوى وللمتقين.

وهي -كذلك- مطالبة بالجهاد في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله، ونشر دين الله،

وإزاحة ما يقف في وجه الدعوة من عقبات؛ فلا بد لها من الجهاد الداخلي الذي لا يتحقق إلا بمجاهدة النفس والهوى.

وهذا الجهاد لا يتحقق إلا بخلق الصبر، ومغالبة النفس والشيطان والشهوات؛ فذلك هو الجهاد الداخلي الذي يؤهِّل للجهاد الخارجي؛ لأن الناس إذا تُركوا وطباعَهم وما أُوْدِعَ فيها من حبٍّ للراحة، وإيثارٍ للدَّعة، ولم يُشَدَّ أَزْرُهُمْ بإرشاد إلهي تطمئن إليه نفوسهم، ويثقون بحسن نتائجه ـ عجزت كواهِلُهم عن حمل أعباء الحياة، وخارت قواهم أمام مغرياتها، وذاب احتمالُهم إزاء ملذاتها وشهواتها؛ فَيَفْقِدُون كلَّ استعدادٍ لتحصيل السمو، والعزة، والمنـزلة اللائقة.

فلهذا اختار الله لهم من شرائع دينه ما يصقُل أرواحهم، ويزكّي نفوسهم، ويمحص قلوبهم، ويربي ملكات الخير فيهم.

ومن أعظم الشرائع التي يتحقق بها ذلك المقصود شريعةُ الصيام في شهر رمضان.

فيا أيها المسلمون!

هذا رمضان يعلمنا الصبر، ويربينا على خلق الصبر؛ فليكن لنا منه أوفرُ الحظّ والنصيب، وليكن زاداً لنا فيما نستقبله من أعمارنا.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

❖❖❖

الدرس السادس

رمضان شهر الصبر (٢)

الحمد لله الحق المعين، والصلاة والسلام على سيد الشاكرين الصابرين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد كان الدرس الماضي يدور حول الصبر، وأثرِ الصيام في اكتسابه، وحولَ بعض الأنواع من الصبر.

والحديث ههنا سيكون حول نوعٍ عظيم من الصبر، وصورة عالية من صوره؛ ذلكم هو الصبر على أذى الناس؛ إذ إن من أعظم الصبر ما يحصل للإنسان بفعل الناس في ماله، أو عرضه، أو نفسه؛ فهذا النوع يصعب الصبرُ عليه جداً؛ لأن النفسَ تستشعر المؤذيَ لها، وهي تكره الغلبة؛ فتطلب الانتقامَ؛ فلا يصبر على هذا النوعِ إلا الأنبياء، والصديقون.

وهذا النوعُ من الصبر عاقبتُه النصرُ، والهدى، والسرورُ، والطمأنينةُ، والأمنُ والقوةُ في ذات الله، وزيادة محبة الله، ومحبةِ الناسِ، وزيادةُ العلم.

فحري بنا معاشر الصائمين أن نربي أنفسَنا، وأن نوطنها على هذا الخلق الجميل؛ لنحظى بتلك الفضائل، وأضعافها، خصوصاً وأننا في شهر الصبر، وهو موسم فاضل، وميدان فسيح للتدرب على الصبر.

وهناك أمور تعين على هذا النوع من الصبر، وقد ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالة لطيفة عنوانها «قاعدة في الصبر».

أحدها: أن يشهد العبد أن الله ـ تعالى ـ خالق أفعال العباد؛ فلا يتحرك شيء إلا بمشيئته؛ فانظر إلى الذين سلطهم عليك، ولا تنظر إلى فعلهم بك تسترح من الهم والغم.

الثاني: أن يشهد العبد ذنوبه، وأن الله إنما سلطهم عليه بذنبه كما قال ـتعالى ـ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾

وإذا رأيت العبد يقع في الناس إذا آذوه، ولا يرجع إلى نفسه باللوم والاستغفارـ فاعلم أن مصيبتَه حقيقيةٌ، وإذا تاب واستغفر وقال: هذا بذنوبي صارت في حقه نعمة.

الثالث: أن يشهد العبدُ حُسْنَ الثواب الذي وعده الله لمن عفا وصبر كما قال ـتعالى ـ: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

ولما كان الناسُ عند مقابلة الأذى ثلاثةَ أقسامٍ: ظالمٍ يأخذ فوق حقّه، ومقتصدٍ يأخذُ بقدرِ حقّه، ومحسنٍ يعفو ويترك حقَّه ـذكر الأقسام الثلاثة في الآية؛ فأولها للمقتصدين، ووسطها للسابقين، وآخرها للظالمين.

الرابع: أن يشهد أنه إذا عفا، وأحسن أورثه ذلك مِنْ سلامة القلب لإخوانه، وحصل له من حلاوة العفو ما يزيد لذته، ومنفعته عاجلاً وآجلاً على المنفعة الحاصلة له بالانتقام أضعافاً مضاعفة، ويدخل في قوله ـتعالى ـ: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾.

فيصير محبوباً لله، ويصير كمن أُخِذَ منه درهمٌ، فَعُوِّض عليه ألوفاً من الدنانير؛ فحينئذٍ يفرح بما مَنَّ الله عليه أعظم فرح يكون.

الخامس: من الأمور التي تعين العبد على الصبر على أذى الناس: أن يعلم أنه ما انتقم أحدٌ قطُّ لنفسه إلا أورثه ذلك ذُلاً يجده في نفسه؛ فإذا عفا أعزه الله، وهذا مما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ بقوله: «وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً» رواه مسلم.

السادس: أن يشهد أن الجزاء من جنس العمل، وأنه نَفْسَه ظالمٌ مذنبٌ، وأن من عفا عن الناس عفا الله عنه، ومن غفر غفر الله له.

السابع: من الأمور التي تعين العبد على العفو والصبر: أن يعلم أنه إذا اشتغلت نفسه بالانتقام ضاع عليه زمانه، وتفرق عليه قلبُه، وفاته من مصالحه ما لا يمكن استدراكه.

ولعل هذا أعظم من المصيبة التي نالته من جهتهم؛ فإذا عفا وصفح فَرَغ قلبُه وجسمه لمصالحه التي هي أهم عنده من الانتقام.

الثامن: أن يستحضر أن رسول الله ﷺ لم ينتصر لنفسه قط مع أن أذاه أذى لله ويتعلق به حقوق الدين، وأن نفسَه أشرف الأنفس، وأزكاها، وأبرها؛ فكيف ينتقم أحدنا لنفسه التي هو أعلم بها وبما فيها من الشرور والعيوب.

بل العارف لا تساوي نفسه عنده أن ينتقم لها.

التاسع: أنه إذا أوذي في الله وجب عليه الصبر؛ لأن من كان في الله تلفه كان على الله خلفه.

العاشر: أن يشهد معية الله، ومحبته له إذا صبر، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾، وقال: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾.

الحادي عشر: أن يشهد أن الصبر نصف الإيمان؛ فإذا صبر أحرز نصفَ إيمانه من النقص.

الثاني عشر: أن يشهد أن صَبره حُكْمٌ منه على نفسه، وقهر وغلبة لها؛ فمتى كانت النفس مقهورة معه مغلوبة لم تطمع في استرقاقه، وأسره، وإلقائه في المهالك.

الثالث عشر: أن يعلم أنه إن صبر فالله ناصره ولا بد؛ فالله وكيل من صبر.

ومن انتصر لنفسه وكله الله إلى نفسه؛ فكان هو الناصر لها؛ فأين مَنْ ناصِرُه الله خير الناصرين؟ إلى مَنْ ناصرُه نَفْسُه أعجز الناصرين وأضعفُهم؟

الرابع عشر: أن صبره على من آذاه، واحتمالَه له يوجب رجوعَ الخصم عن ظلمه، ويوجب ندامته، واعتذاره، ولوم الناس له، فيعود بعد إيذائه له مستحيياً منه، نادماً على ما فعله، بل يصير موالياً له، وهذا معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

الخامس عشر: أنه ربما كان انتقامُهُ ومقابلتُه سبباً لزيادة شر خصمه، وقوة نفسه؛ فإذا صبر وعفا أَمِنَ مِنْ هذا الضرر.

والعاقل لا يختار أعظم الضررين بدفع أدناهما.

وكم جلب الانتقامُ، والمقابلةُ من شرٍّ عجز صاحبُه عن دفعه.

وكم ذهبت من نفوسٍ ورئاساتٍ، وأموال لو عفا المظلوم لبقيت عليه.

السادس عشر: أن من اعتاد الانتقامَ ولم يصبر لابد أن يقع في الظلم؛ فإن النفسَ لا تقف على قدر العدل الواجب لها، فإن الغضبَ يَخْرُجُ بصاحبه إلى حدٍّ لا يعْقِل معه ما يقول ولا ما يفعل؛ فبينما هو مظلوم ينتظر العزَّ والنصر إذا به ينقلب ظالماً ينتظر المقتَ والعقوبة.

السابع عشر: أن هذه المظلمةَ التي ظُلِمَها هي سببٌ إما لتكفير سيئة، أو رفع درجة؛ فإذا انتقم ولم يصبر لم تكن مكفِّرةً لسيئته، ولا رافعةً لدرجته.

الثامن عشر: أن عفوه وصبره من أكبر الجند له على خصمه؛ فإن من صبر وعفا كان ذلك موجباً لذل خصمه، وخوفه، وخشيته منه ومن الناس؛ فإن الناس لا

يسكتون عن خصمه وإن سكت هو؛ فإذا انتقم زال ذلك كلّه.

ولهذا تجد كثيراً من الناس إذا شَتَم غيره، أو آذاه يحبّ أن يستوفيَ منه المشتومُ والمُؤذى؛ فإذا قابله بذلك استراح، وأُلْقِي عنه ثقلاً كان يجده.

التاسع عشر: أنه إذا عفا عن خصمه استشعرت نفس الخصم أنه فوقه، وأنه قد ربح عليه، فلا يزال يرى نفسه دونه، وكفى بهذا فضلاً وشرفاً للعفو.

العشرون: أنه إذا عفا وصفح كانت هذه حسنة، فتولد له حسنة أخرى، وهكذا...

اللهم اجعلنا من عبادك المتقين الصابرين العافين، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد.



الدرس السابع — رمضان شهر السخاء والجود

الحمد لله الكريم الوهاب، والصلاة والسلام على من أنزل إليه خير كتاب، أما بعد:

فإن رمضانَ شهرُ الجود، وشهر السخاء؛ فالنفوس في هذا الشهر تقترب من مولاها، وتنبعث إلى ما يزكيها ويطهرها من شحها، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

ولقد جاء في الصحيحين عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس، وكان أجودَ ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل في كل ليلة، فيدارسه القرآن، فلَرسولُ الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة».

هكذا وصف حال النبي ﷺ وهكذا ينبغي للمسلم أن يكون ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

أيها الصائمون الكرام: للصدقة والسخاء فضائلُ، لا تُحصى كثرة؛ فالصدقة تطفئ غضبَ الرب، وتدفعُ ميتةَ السوء، وتدل على الإيمان بالله، والثقة به، وإحسان الظن به ـ عز وجل ـ.

والصدقة دليل على الرحمة، والشعور بالآخرين، كما أنها سبب لتيسير الأمور، وتفريج الكربات، وإعانة الرب ـ جل وعلا ـ فالله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه.

والصدقة مدعاة لزيادة المال، ونزول الخيرات، وحلول البركات، وهي سبب للاستظلال في ظل عرش الرحمن يوم لا ظل إلا ظله، كما أن لها تأثيراً في دفع البلايا.

قال ابن القيم رحمه الله : «وللصدقة تأثير عجيب في دفع أنواع البلاء، ولو كانت من فاجر، أو ظالم، بل من كافر، وهذا أمر معلوم عند الناس، وأهل الأرض مُقِرُّون بذلك» ا.هـ.

والصدقة تشرح الصدر، وتفرح النفس.

قال ابن القيم رحمه الله : «المتصدق كلما تصدق بصدقة انشرح لها قلبه، وانفسح لها صدره، وقوي فرحه، وعظم سروره.

ولو لم يكن في الصدقة إلا هذه الفائدة لكان العبد حقيقاً بالاستكثار منها، والمبادرة إليها».

أيها الصائمون الكرام: ومن فضائل الصدقة: أنها سبب للخلف من الله - عز وجل - قال النبي ﷺ: «ما من يوم يصبح فيه العباد، إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً» متفق عليه.

ثم إن للسخاء أثراً في صيانة الأعراض، ونباهة الذكر، وائتلاف القلوب، وتأكيد رابطة الإخاء.

وللسخاء أثرٌ في القضاء على كثير من الأخلاق المرذولة، كالحسد من الفقراء للأغنياء، وكالكبر من الأغنياء على الفقراء.

وللسخاء أثرٌ في ستر العيوب، قال الشافعي رحمه الله :

وإنْ كثرت عيوبُكَ في البرايا وَسرَّك أن يكون لها غطاءُ

تَسَتَّرْ بالسخاء فكلُّ عيبٍ يُغَطِّيه كما قيل السخاءُ

ثم إن السخيَّ قريبٌ من الله، ومن خلق الله، ومن الجنةِ، والبخيلُ بعكس ذلك.

والسخاءُ مُتَّصِل بفضائلَ أخرى؛ فالسخيُّ في أغلب أحواله يأخذ بالعفو،

ويتحلى بالحلم، ويجري في معاملاته على الإنصاف، ويؤدي حقوقَ الناسِ من تلقاء نفسه.

ولتجدنّ السخيَّ بحق متواضعاً، لا يطيش به كبر، ولا تستخفه خيلاء، ولتجدنَّه أقربَ الناس إلى الشجاعة وعزة النفس؛ وإنما يخسر الإنسانُ الشجاعةَ والعزةَ بشدة حرصه على متاع الحياة الدنيا.

ولقد جَرَتْ سُنةُ اللهِ بأن السخيَّ بحقٍّ يفوز بالحياة الطيبة، ولا تكون عاقبتُه إلا الرعايةَ من الله والكرامة؛فلما كان رحيماً بالفقراء، والمساكين، والمحتاجين، حريصاً على إسعادهم، وإدخال السرور والبهجة على نفوسهم-كان جزاؤه من جنس عمله.

هذا، وإن السخاء ليس مقتصراً على بذل المال فحسب، بل إن مفهومَه أوسعُ، وصورَهُ أعمُّ وأشمل.

فمن صور السخاء: أن يكونَ للإنسان دَيْنٌ على آخر؛ فيطرحَه عنه، و يُخْلِيَ ذمته منه، وهو يستطيع الوصول إليه، دون عناء ولا تعب.

كان قيسُ بنُ سعدِ بنِ عبادة-رضي الله عنهما-من الأجواد المعروفين، حتى إنه مرض مرة، فاستبطأ إخوانه في العيادة، فسأل عنهم فقيل له: إنهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدين، فقال: أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً ينادي: من كان لقيس عليه مالٌ فهو منه في حِل؛ فما أمسى حتى كُسِرتْ عتبةُ بابِه من كثرة من عاده.

ويدخل في قبيل الأسخياء مَنْ يستحق على عمل أجراً؛ فيترك الأجر من تلقاء نفسه.

ويدخل في قبيلهم مَنْ يسعى في قضاء حوائج الناس، وتفريج كرباتهم، فعن

الحسن رحمه الله قال: «لأنْ أقضيَ حاجةَ أخٍ لي أحبُّ إلي من أن أعتكفَ سنة».

وقيل لابن المنكدر رحمه الله: «أي الأعمال أحب إليك؟ قال: إدخال السرور على المؤمن، وقيل: أي الدنيا أحب إليك؟ قال: الإفضال على الإخوان».

وقال الشافعي رحمه الله:

وأفضلُ الناسِ ما بينَ الورى رجلٌ تُقضى على يدهِ للناسِ حاجاتُ

ويدخل في السخاء سخاوة الإنسان بجاهه؛ بحيث يبذله في سبيل الخير، والشفاعات الحسنة: من إحقاق حق، ونُصْرةِ مظلوم، وإعانة ضعيف، ومَشْيٍ مع الرجل إلى ذي سلطان، قال-تعالى-: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾.

وقال ﷺ: «اشفعوا تؤجروا» رواه البخاري ومسلم.

ومن السخاءِ سخاءُ الإنسان برياسته؛ فيحمله سخاؤه على امتهانها، والإيثار في قضاء حاجات الملتمس.

ومن السخاءِ سخاءُ الإنسانِ براحته، ووقته، ونصحه؛ في سبيل نفع الناس.

ومن أعلى مراتبِ السخاء سخاءُ الإنسان بالعلم؛ فذلك أشرف من السخاء بالمال.

ومن السخاءِ سخاءُ الإنسان بِعرضه؛ بحيث يعفو ويصفح عمن ناله بسوء، مر الشعبيُّ رحمه الله بقوم يذكرونه بسوء، فتمثل بقول كُثَيِّر عزةَ:

هنيئاً مريئاً غيرَ داءٍ مخامرٍ لِعَزَّةَ من أعراضنا ما استحلتِ

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومةً لدينا ولا مقليةً إن تقلَّتِ

وفي هذا السخاءِ من سلامة الصدر، وراحة القلب، والتخلص من معاداة الخلق ما فيه.

ومن السخاءِ السخاءُ بالصبر، والاحتمال، والإغضاء، وهي مرتبةٌ شريفةٌ لا يقدر عليها إلا النفوسُ الكبار.

ومن السخاءِ السخاءُ بالخلق، والبشر، والتبسم، والبشاشة، والبسطة، ومقابلة الناس بالطلاقة؛ فذلك فوق السخاء بالصبر، والاحتمال، والعفو، وهذا هو الذي بلغ بصاحبه درجةَ الصائم القائم، وهو أثقلُ ما يوضع في الميزان، وفيه من أنواع المسارّ والمنافع والمصالح ما فيه.

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله:

وإني لأكسو الخلَّ حُلَّةَ سُندسٍ إذا ما كساني من ثياب مداده

ويدخل في السخاء حَضُّ الناس على الخير، ودِلالتهم على وجوهه، وشُكْرُ الأسخياءِ، والدعاءُ لهم.

ومن صور السخاء الخفية المحمودة سخاء النفس بترفعها عن الحسد، وحبٌّ الاستئثار بخصال الحمد، وذلك بأن يحب المرء لإخوانه ما يحبه لنفسه، ويكره لهم ما يكرهه لنفسه، فيفتح لهم المجالات، ويعطيهم فرصة للإبداع، والحديث، والمشاركة، ونحو ذلك؛ فيفرح لنجاحهم، ويحزن لإخفاقهم؛ فهذه من الصور الخفية للسخاء، وقلَّ من يتفطن لها، ويأخذ نفسه بها.

ومن جميل السخاءِ سخاءُ المرء عما في أيدي الناس، فلا يلتفت إليه، ولا يستشرف له بقلبه، ولا يتعرض له بحاله ولسانه.

وأروع ما في السخاء، سخاء المرء بنفسه، وأروع ما في ذلك ما كان في سبيل الله -عز وجل-.

أيها الصائمون الكرام: يتفاضل الناس بالسخاء، على قدر هممهم، وشرف

نفوسهم.

فيتفاضلون من جهة الإنفاق؛ فالذي ينفق في السر أكمل من الذي لا ينفق إلا في العلانية.

ويتفاضلون من جهة استصغارِ ما يُنْفَق واستعظامِه؛ فالذي ينفق في الخير، وينسى أو يتناسى أنه أنفق هو أسخى ممن ينفق ثم لا يزال يذكر ما أنفق ولا سيما إذا كان في معرض الامتنان.

ويتفاضل الناس في السخاء من جهة السرعة إلى البذل، والتباطؤ فيه؛ فمن يبذل المال لذوي الحاجة لمجرد شعوره بحاجتهم يَفْضُل مَنْ لا يبذل إلا بعد أن يسألوه.

ومن يقصد بالبذل موضع الحاجة ـ عرفه أو لم يعرفه ـ يكون أسخى ممن يَخُصُّ بالنوال من يعرفهم ويعرفونه.

ومن يعطي عن ارتياحٍ، وتلذُّذٍ بالعطاء يعد أسخى ممن يحسن وفي نفسه حرجٌ.

ومن علامات الرسوخ في السخاء ملاقاةُ السائلين بأدب وحفاوة؛ حتى يحفظ عليهم عزتهم.

وأبلغ ما يدل على أصالة الرجل، ورسوخ قدمه في فضيلة السخاء ـ أن يرقَّ عطفُه، حتى يبسط إحسانه إلى ذي الحاجة، وإن كان من أعدائه؛ فذلك من كِبَر النفس، وضروب العزة، والترفع عن العداوات.

ومن علامات الرسوخ في السخاء أن يتألمَ المرءُ، وأن يتأسف أشد الأسف إذا سئل شيئاً وهو غيرُ واجدٍ له، قال الشافعي رحمه الله:

إن اعتذاري لمن قد جاء يسألني ... ماليس عندي لمن إحدى المصيباتِ

ومن الأسخياء من تَسْمُو به الحال، فيرى أن الفضل والمنَّة إنما هي لمن جاء

يستجديه ويسأله؛ حيث أحسن الظنَّ به، وتكرم عليه؛ فهذا من غرائب السخاء.

ينسب لابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال:

إذا طارِقَاتُ الهمِّ ضَاجعت الفتى وأعْمل فكرَ الليلِ والليلُ عاكرُ

وباكرني في حاجة لم يجدْ بها سواي ولا مِنْ نكبة الدهرِ ناصرُ

فَرَجتُ بمالي همَّهُ من مقامه وزايله همٌّ طروقٌ مسامرُ

وكان له فضل عليَّ بظنه بي الخير إني للذي ظنَّ شاكرُ

وأرفع درجات السخاء أن يكون الإنسان في حاجة ملحة إلى ما عنده؛ فيدع حاجته، ويصرف ما عنده في وجوه الخير؛ وذلك ما يسمى بالإيثار.

اللهم قنا شح أنفسنا، واجعلنا من المفلحين، وصلِّ اللهم وسلم على خاتم المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس الثامن

الصيام والخوف من الله

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن الخوف من أعظم منازل العبودية وأنفعها، ومن أجلِّ أعمال القلوب وأرفعها.

والخوف ثالثُ أركانِ العبادة؛ إذ هي تقوم على الحب، والخوف، والرجاء.

ولقد جاءت نصوص الشرع في بيان فضل الخوف، والحث عليه، والثناء على أهله، ووجوب إفراد الله به.

قال الله -تعالى-: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وقال -عز وجل-: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾.

وقال - تبارك وتعالى-: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

والخوف -معاشر الصائمين- غمٌّ يلحق بالنفس؛ لتوقع مكروه.

وإذا قام الخوف من الله في قلب العبد فلا تَسْل عما يُعقبه من الخير، وما يورثه من الصلاح، والاستقامة، والأمن والهدى، والنور.

وإذا عَرِيَ القلب من الخوف من الله فلا تسل عما يورثه ذلك من الغم، والشر، والفساد، والقلق، والاضطراب، والضنك، والظلمة.

ولهذا فإن المنافقين يحسبون كل صيحة عليهم و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

قال أبو حفصٍ عمرُ بنُ مسلمةَ النيسابوري رحمه الله: «الخوف سِرَاجٌ في القلب به يُبْصَرُ ما فيه من الخير والشر، وكلُّ أحدٍ إذا خفته هَرَبْتَ مِنْهُ، إلا الله -عز وجل- فإنك إذا خِفْتَهُ هَرَبْتَ إليه؛ فالخائفُ مِنْ رَبه هاربٌ إليه».

وقال إبراهيم بنُ سفيان رحمه الله: «إذا سكن الخوفُ القلوبَ أحرق مواضعَ الشهوات منها، وطرد الدنيا عنها».

وقال ذو النون المصري رحمه الله: «الناس على الطريق ما لم يَزُلْ عنهم الخوف؛ فإذا زال الخوف ضلوا الطريق».

معاشر الصائمين: الخوف المحمود ما حجز عن محارم الله -كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

والواجب من ذلك ما حمل على فعل الواجبات، وترك المحرمات.

والمستحب منه ما حمل على فعل المستحبات، وترك المكروهات.

فإذا تجاوز ذلك خِيْفَ على صاحبه من اليأس والقنوط.

معاشر الصائمين: لابد للعبد في سَيْرِهِ إلى الله أن يجمع بين الحب والخوف والرجاء؛ لأن عبادة الله بالخوف وحده طريقةُ الخوارج، ولذلك لا يجدون للعبادة لذَّةً، ولا إليه رغبة، فيجعلون الخالق بمنزلة سلطان جائر.

وهذا يورث اليأس والقنوط من رحمة الله، وغايتُه إساءةُ الظن بالله، والكفر به -عز وجل-.

وعبادة الله بالرجاء وحده طريقة المرجئة الذين وقعوا في الغرور والأماني الباطلة، وترك العمل الصالح، وغاية ذلك الخروج من الملة.

وعبادة الله بالحب وحده طريقة الزنادقة الذين يقولون: نعبد الله لا خوفاً من ناره، ولا طَمَعاً في جنته، إنما نعبده حباً لذاته.

وهذه طريقة فاسدة، ولها آثار وخيمة منها الأمن من مكر الله، وغايته الخروج من الدين.

ولهذا قال السلف كلمتهم المشهورة: «من عبدالله بالحب وحده فهو زنديق، ومن

عبده بالخوف وحده فهو حروري -أي خارجي- ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب، والخوف، والرجاء فهو مؤمن موحد».

معاشر الصائمين: هناك أمور تبعث على الخوف من الله -عز وجل- وإن الصيام لمن أعظم ذلك؛ فهو دليلٌ على الخوف من الله، وسبيلٌ إلى امتثاله وقيامِهِ بالقلب؛ ذلكم أن الصائم يصوم عن إيمان بالله، والخوفُ شعبةٌ عظمى من شعب الإيمان.

والصائم -كذلك- يدعُ طعامَه، وشرابه، وشهوته من أجل الله، ويجتنب كلَّ ما يفسد صومَهُ أو ينقص أجره من قول أو عمل.

وما من شك أن الخوف من الله من أعظم ما يحمله على ذلك.

وهكذا يتبين لنا أثر الصيام في اكتساب الخوف من الله، وقيامِهِ في قلب المؤمن الصائم.

وهكذا يستفيد العبد هذا الدرس العظيم من جرَّاءِ صومه، فيبعثه ذلك إلى لزوم الخوف من الله في شتى أحواله، وسائر أيامه.

وإذا لزم هذه الطريقة عاش في أمان، ويقظة، وبصيرة.

فالصائم بحق يفرد الله بالخوف فلا يتقرب إلى أحد كائناً من كان بخوف التأله والتقرب، ولا يخشى من أحد أن يصيبه بفقر، أو غضب، أو سلب نعمه؛ لعلمه أن ذلك إنما يُصْرَفُ لله، ومن صَرَفَهُ لغير الله فقد أشرك.

والصائم بحق يخاف من وعيد الله للعصاة، فينزجر عن المعاصي لعلمه بعظمة الله، وشديد عقابه.

والصائم بحق يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويجاهد في سبيل الله حسب استطاعته وقدرته، ولا يخاف في الله لومة لائم.

والصائم بحق لا يبالي بالأوهام التي ليس لها سبب أصلاً، أو لها سبب ضعيف

جداً؛ إذ إن هذا وصف الجبناء، ولقد تعوذ النبي ﷺ من الجبن؛ فهو من الأخلاق المرذولة.

ولهذا كان الإيمانُ التامُّ، والتوكلُ الصحيحُ أعظمَ ما يدفع هذا الخوف، ويملأ القلب شجاعة؛ فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه الخوف من غير الله، وكلما ضعف إيمانه وقل خوفه من الله زاد وقوي خوفه من غير الله.

ولهذا فإن خواص المؤمنين وأقوياء الإيمان تنقلب المخاوف في حقهم طمأنينة وأمناً ولو كانوا في جفن الردى؛ لقوة إيمانهم، وسلامة يقينهم، وكمال توكلهم.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

اللهم اجعلنا ممن خافك، واتقاك، واتبع رضاك يارب العالمين، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد.



الدرس التاسع

الصيام والرجاء

الحمدلله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن الرجاء ركنٌ من أركان العبادة، وعمل عظيم من أعمال القلوب؛ فالعبادة تقوم على الحب والخوف والرجاء، والنصوص الشرعية تظافرت في بيان فضل الرجاء والحث عليه، والثناء على أهله.

قال الله -تعالى-: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾

وقال النبي -عليه الصلاة والسلام-: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله-عز وجل-» رواه مسلم.

معاشر الصائمين: الرجاء حادٍ يحدو القلوبَ إلى الله والدارِ الأخرةِ، ويطيِّبُ لها السيرَ؛ فهو استبشارٌ بفضل الرب، وثقةٌ بجوده، وارتياحٌ لمطالعةِ كرمه، ونظرٌ إلى سعة رحمته-عز وجل-.

هذا وإن النصوص الواردة في فضل صيام رمضان لمن أعظم ما يبعث الرجاء في قلب المؤمن.

ولو ذُكِرَتْ تلك النصوصُ مفصلةً لطال بنا المقام، فمن ذلك ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِرَله ما تقدم من ذنبه، ومن قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ماتقدم من ذنبه».

قال ابن حجر ﷺ في شرح الحديث: «قوله: «غُفِر له» ظاهِرُهُ يتناول الصغائرَ

والكبائرَ، وبه جزم ابنُ المنذر، وقال النوويُّ: المعروف أنه يختص بالصغائر، وبه جزم إمام الحرمين، وعزاه عياض لأهل السنة».

قال بعضهم: ويجوز أنه يخفف من الكبائر إن لم يصادف صغيرة» انتهى كلامه.

وجاء في الصحيحين -أيضاً- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «كل عملِ ابن آدمَ له، الحسنةُ بعشرِ أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله -عز وجل- إلا الصوم؛ فإنه لي وأنا أجزي به» الحديث.

فهذه النصوصُ وأمثالها تملأ قلبَ المؤمنِ رجاءاً لله، وانتظاراً لفضله -عز وجل-.

معاشر الصائمين هناك مسائل يحسن التنبه عليها في باب الرجاء ومن ذلك ما يلي:

أولاً: أنه لابد للعبد في سيره إلى الله من الجمع بين أركان العبادة الثلاثة: الحب، والخوف، والرجاء؛ فالحب بمنزلة الرأس للطائر، والخوف والرجاء جناحاه.

ثانيا: أن أنواع الرجاء ثلاثة، نوعان محمودان، ونوع مذموم، فالأولان: رجاءُ رجلٍ عمل بطاعة الله على نورٍ من الله؛ فهو راجٍ لثواب الله، ورجاءُ رجلٍ أذنبَ ذنوباً ثم تاب منها؛ فهو راجٍ لمغفرة اللهِ وعفوهِ، وجودهِ، وإحسانهِ؛ فهذان النوعان محمودان، والثالث: رجاءُ رجلٍ متمادٍ في التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عمل؛ فهذا هو الرجاءُ المذموم؛ إذ هو غرور، ورجاءٌ كاذبٌ، وأمانيٌّ باطلةٌ.

ثالثاً: أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل فقد أجمع العلماء على ذلك.

رابعاً: أن هناك فرقاً بين الرجاء والتمني؛ فالتمني يكون مع الكسل، ولا يسلك صاحبه طريق الجد والاجتهاد، كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها، ويأخذ زرعها.

والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل كحالِ من يَشُقُ أرضَهُ، ويفلحُها، ويبذرها، ويرجو طلوع الزرع.

معاشر الصائمين: وإذا كان الرجاء في محله، وعلى وجهه الصحيح أثمر لصاحبه ثمراتٍ عظيمةً، وكان له فضائلُ جمةٌ منها ما يلي:

أولاً: إظهار العبودية والفاقة، والحاجة إلى ما يرجوه العبد من ربه، وأنه لا يستغني عنه طرفة عين.

ثانياً: أن الرجاء محبوب لله؛ فالله ـ عزوجل ـ يحب من عباده أن يرجوه، ويأملوه؛ فهو أجودُ مَنْ سُئِلَ، وأوسعُ مَنْ أَعْطَى.

ولا ريب أن أحبَّ ما إلى الجواد أن يرجى، ويُؤْمَلَ، ويُسْأَلَ.

ثالثاً: التخلص من غضب الله؛ فمن لم يسأل الله يغضب الله عليه، والسائلُ راجٍ وطالبٌ.

رابعاً: أن الرجاء حادٍ يحدو بالعبد في سيره إلى الله، ويطيِّب له المسير، ويحثه عليه، ويبعثه على ملازمته؛ فلولا الر جاء لما سار أحد؛ فإن الخوف وحده لا يحرك العبد؛ وإنما يحركه الحب، ويزعجه الخوف، ويحدوه الرجاء.

خامساً: أن الرجاء يطرح العبد على عتبه المحبة؛ فإنه كلما استمر رجاؤه، وحصل له ما يرجوه ازداد حباً لله ـ تعالى ـ وشكراً له، ورضاً به وعنه.

سادساً: أنه يوجب له المزيد من معرفة الله، وأسمائه، ومعانيها، والتعلق بها؛ فإن الراجي متعلق بأسمائه الحسنى، متعبدٌ داعٍ بها.

سابعاً: أن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه، فأعطاه ما رجاه كان ذلك ألطف موقعاً، وأحلى عند العبد من حصول ما لم يَرْجُه.

ثامناً: أن في الرجاء من الانتظار، والترقب، والتوقع لفضل الله -ما يوجب تعلق القلب بذكره، ودوام الالتفات إليه.

هذه بعض فضائل الرجاء، وإن أردت مزيداً من ذلك فارجع إلى منزلة الرجاء في كتاب مدارج السالكين لابن القيم رحمه الله.

اللهم إنا نسالك حبك، وخوفك، ورجاءك، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد.



الدرس العاشر

من معاني العيد

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، ورضي لنا الإسلام ديناً، والصلاة والسلام على النعمة المسداة، والرحمة المهداة؛ نبينا محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإن العيد مظهرٌ من مظاهر الدين، وشعيرةٌ من شعائره المعظمة التي تنطوي على حِكَمٍ عظيمة، ومعانٍ جليلة، وأسرارٍ بديعة لا تعرفها الأممُ في شتى أعيادها.

فالعيد في معناه الديني: شكرٌ لله على تمام العبادة، لا يقولها المؤمن بلسانه فحسب؛ ولكنها تعتلجُ في سرائره رضاً واطمئناناً، وتنبلج في علانيته فرحاً وابتهاجاً، وتُسْفِر بين نفوس المؤمنين بالبشر والأنس والطلاقة، وتمسح ما بين الفقراء والأغنياء من جفوة.

والعيدُ في معناه الإنساني: يومٌ تلتقي فيه قوةُ الغنيِّ، وضعفُ الفقير على محبةٍ ورحمةٍ وعدالةٍ من وحي السماء، عُنْوانُها الزكاةُ، والإحسانُ، والتَّوسعةُ.

يتجلى العيدُ على الغني المُتْرَف؛ فينسى تَعَلُّقَه بالمال، وينـزل من عليائهِ متواضعاً للحقِّ وللخلق، ويذكرُ أن كلَّ مَنْ حولَه إخوانُه وأعوانُهُ؛ فيمحو إساءَة عامٍ بإحسان يومٍ.

ويتجلى العيد على الفقير المُتْرَب؛ فيطرح همومَه، ويسمو من أفق كانت تصوره له أحلامهُ، وينسى مكارهَ العام ومتاعِبَه، وتمحو بشاشةُ العيد آثارَ الحقد والتبرّم من نفسه، وتنهزمُ لديه دواعيْ اليأسِ على حين تنتصر بواعثُ الرجاء.

والعيد في معناه النفسي: حدٌّ فاصلٌ بين تقييدٍ تخضع له النفسُ، وتَسكُنُ إليه الجوارحُ، وبين انطلاقٍ تنفتح له اللهواتُ، وتتنبّه له الشهوات.

والعيد في معناه الزمني: قطعةٌ من الزمن؛ خُصِّصَت لنسيانِ الهموم، واطِّراحِ الكُلَف، واستجمام القوى الجاهدة في الحياة.

والعيد في معناه الاجتماعي: يومُ الأطفالِ يفيض عليهم بالفرح والمرح، ويوم الفقراءِ يلقاهم باليسر والسعة، ويومُ الأرحامِ يجمعها على البر والصلة، ويومُ المسلمينَ يجمعهم على التسامح والتزاور، ويومُ الأصدقاءِ يجدد فيهم أواصرَ الحب، ودواعي القرب، ويومُ النفوس الكريمة تتناسى أضغانها؛ فتجتمع بعد افتراق، وتتصافى بعد كدر وتتصافح بعد انقباض.

وفي هذا كلّه تجديدٌ للرابطة الاجتماعية على أقوى ما تكون من الحب، والوفاء، والإخاء، وفيه أروعُ ما يُضْفي على القلوب من الأنس، وعلى النفوس من البهجة، وعلى الأجسام من الراحة، وفيه من المغزى الاجتماعي -أيضاً- تذكيرٌ لأبناء المجتمع بحق الضعفاء والعاجزين؛ حتى تشملَ الفرحةُ بالعيد كلَّ بيتٍ، وتعمَّ النعمةُ كلَّ أسرة، وإلى هذا ا لمعنى الاجتماعي يرمُزُ تشريعُ صدقةِ الفِطْر في عيد الفطر، ونحر الأضاحي في عيد الأضحى؛ فإن في تقديم ذلك قبل العيد، أو في أيامه إطلاقاً للأيدي الخيّرة في مجال الخير؛ فلا تشرق شمسُ العيدِ إلا والبسمةُ تعلو كلَّ شفةٍ، والبهجةُ تَغْمُرُ كلَّ قلبٍ.

في العيد يَسْتروحُ الأشقياءُ ريحَ السعادةِ، ويتنفّسُ المختنقون في جوٍّ من السَعة، وفيه يذوق المُعْدَمون طيباتِ الرزق، ويتَنَعَّم الواجدون بأطايبه.

وفي العيد تُسْلِسُ النفوسُ الجامحةُ قيادَها إلى الخير، وتَهُشُّ النفوسُ الكزَّةُ إلى الإحسان.

وفي العيد أحكامٌ تَقْمَعُ الهوى، ومن ورائها حِكَمٌ تُغَذِّي العقل، ومن تحتها أسرارٌ تُصَفِّي النفس، ومن بين يديها ذكرياتٌ تُثمر التأسِّي في الحق والخير، وفي طيِّها

عِبَرٌ تُجلِّي الحقائق، وموازينُ تقيم العدل بين الأصناف المتفاوتة من البشر، ومقاصدُ سديدةٌ في حفظ الوَحْدة، وإصلاح الشأن، ودروسٌ تطبيقيةٌ عالية في التضحية، والإيثار، والمحبة.

في العيد تظهر فضيلةُ الإخلاص مُستَعْلِنَةً للجميع، ويُهْدي الناسُ بعضُهم إلى بعض هدايا القلوبِ المُخلصَةِ المُحبَّة، وكأنما العيدُ روحُ الأسرةِ الواحدة في الأمة كلها.

وفي العيد تَتَّسعُ روحُ الجوارِ وتمتد، حتى يرجعَ البلدُ العظيم وكأنه لأهله دارٌ واحدةٌ يتحقق فيها الإخاءُ بمعناه العملي.

في العيد تنطلق السجايا على فطرتها، وتَبْرُز العواطفُ والميول على حقيقتها.

العيد في الإسلام: سكينةٌ ووقارٌ، وتعظيمٌ للواحد القهار، وبعدٌ عن أسباب الهلكة ودخول النار، والعيد مع ذلك كله ميدانَ استباقٍ إلى الخيرات، ومجال منافسةٍ في المَكْرُمَات.

ومما يدل على عظم شأن العيد أن الإسلام قرن كلَّ واحدٍ من عيديه العظيمين بشعيرة من شعائره العامة التي لها جلالُها الخطير في الروحانيات، ولها خَطَرُها الجليل في الاجتماعيات، ولها ريحُها الهابَّةُ بالخير، والإحسان، والبر، والرحمة، ولها أثرها العميق في التربية الفردية والجماعية، التي لا تكون الأمةُ صالحةً للوجود نافعةً في الوجود إلا بها.

هاتان الشعيرتان هما: شهر رمضان؛ الذي جاء عيدُ الفطر مِسْكَ ختامِه، وكلمةَ الشكر على تمامه، والحجُّ؛ الذي كان عيدُ الأضحى بعضَ أيامه، والظَّرْفَ المُوعِيَ لمعظَمِ أحكامه.

فهذا الربط الإلهي بين العيدين وبين هاتين الشعيرتين كافٍ في الحكم عليهما،

وكاشفٌ عن وجه الحقيقة فيهما، وأنهما عيدان دِينيَّان بكل ما شُرع فيهما من سنن، بل حتى ما نَدَبَ إليه الدينُ فيهما من أمورٍ ظاهرُها أنها دنيويةٌ كالتجمل، والتحلّي، والتطيُّب، والتوسعة على العيال، وإلطاف الضيوف، والمرح، واختيار المناعم والأطايب، واللهو مما لا يَخْرُجِ إلى حدِّ السرف، والتَّغالي، والتفاخر المذموم؛ فهذه الأمور المباحة داخلةٌ في الطاعات إذا حسُنت النية؛ فمن محاسن الإسلام أن المباحات إذا حسُنت فيها النيـةُ، وأُريدَ بها تَحَقُّقُ حِكمةِ الله، أو شُكر نعمته - انقلبت قربات؛ كما قال النبي ﷺ «حتى اللقمة تضعها في فِيِّ امرأتك»

معاشر الصائمين: كِلا طَرَفَي العيد في معناه الإسلامي جمالٌ، وجلالٌ، وتمامٌ وكمالٌ، وربطٌ واتصـالٌ، وبشاشةٌ تخالط القلوب، واطمئنانٌ يلازم الجنوب، وبسط وانشراح، وهجر للهموم واطِّراح، وكأنه شبابٌ وخَطَتْهُ النُّضْرةُ، أو غُصْنٌ عاوده الربيع؛ فوخَزَتْهُ الخُضْرَةُ.

وليس السرُّ في العيد يومَهُ الذي يبتدئُ بطلوع الشمس وينتهي بغروبها، وإنما السرُّ فيما يَعْمُرُ ذلك اليومَ من أعمال، وما يَغْمُرُه من إحسان وأفضال، وما يغشى النفوسَ المستعدَّةَ للخير فيه من سموٍّ وكمال؛ فالعيد إنما هو المعنى الذي يكون في العيد، لا اليومُ نفسُهُ.

هذه بعض معاني العيد كما نفهمها من الإسلام، وكما يحققُّها المسلمون الصادقون؛ فأين نحن اليوم من هذه الأعياد؟! وأين هذه الأعياد منا؟! وما نصيبنا من هذه المعاني؟! وأين آثار العبادةِ من آثار العادة في أعيادنا؟!!

إن مما يُؤسَف عليه أن بعض المسلمين جَرَّدوا هذه الأعيادَ من حِليتها الدينية، وعَطلّوها عن معانيها الروحية الفوارة التي كانت تفيض على النفوس بالبهجة، مع تَجَهُّم الأحداث، وبالبشر مع شدة الأحوال؛ فأصبح بعض المسلمين -وإن شئت

فقل: كثير منهم - يَلْقَون أعيادَهم بِهِمَمٍ فاترة، وحس بليد، وشعور بارد، وأسرةٍ عابسة، حتى لكأنَّ العيدَ عمليةٌ تجاريةٌ تَتْبَعُ الخِصبَ والجَدْبَ، وتتأثر بالعسر واليسر، والنَّفاق والكساد، لا صبغةٌ روحيَّةٌ تؤثِّر ولا تتأثر.

ولئن كان من حق العيد أن نَبْهَج به ونفرح، وكان من حقّنا أن نتبادل به التهاني، ونطّرح الهموم، ونتهادى البشائر - فإن حقوقَ إخواننا المشردين المعذبين شرقاً وغرباً تقتضى أن نحزن لمحنتهم ونغتم، ونُعْنَى بقضاياهم ونهتمّ؛ فالمجتمع السعيد الواعي هو ذلك الذي تسمو أخلاقه في العيد إلى أرفع ذروة، ويمتد شعورَه الإنسانيُّ إلى أبعد مدى، وذلك حين يبدو في العيد متماسكاً متعاوناً متراحماً، حتى لَيَخْفِقُ فيه كل قلب بالحب، والبر، والرحمة، ويذكر فيه أبناؤه مصائب إخوانهم في الأقطار حين تنزل بهم الكوارث والنكبات.

ولا يراد من ذلك تَذْرافُ الدموع، ولبسُ ثياب الحداد في العيد.

ولا يراد منه -أيضاً- أن يعتكف الإنسان كالمرزوء بفقد حبيب أو قريب، ولا أن يمتنع عن الطعام، كما يفعل الصائم.

وإنما يراد من ذلك أن تظهر أعيادُنا بمظهر الأمة الواعية، التي تلزم الاعتدال في سرَّائها وضرَّائها؛ فلا يَحُوْلُ احتفاؤها بالعيد دون الشعور بمصائبها التي يرزح تحتها فريقٌ من أبنائها.

ويراد من ذلك أن نقتصد في مرحنا وإنفاقنا؛ لنوفِّر من ذلك ما تحتاج إليه أمتنا في صراعها المرير الدامي.

ويراد من ذلك -أيضاً- أن نشعر بالإخاء قوياً في أيام العيد؛ فيبدو علينا في أحاديثنا عن نكبات إخواننا وجهادهم ما يقوي العزائم، ويشحذ الهمم، ويبسط الأيدي بالبذل، ويطلق الألسنة بالدعاء، فهذا هو الحزن المجدي، الذي يُترجَم إلى

عمل واقعي.

أيها المسلم المستبشر بالعيد: لا شك أنك تستعد أو قد استعددت للعيد أباً كنت، أو أمّاً، أو شاباً، أو فتاةً، ولا ريب أنك قد أخذت أُهْبَتَك لكل ما يستلزمه العيد من لباس، وطعام ونحوه؛ فأضف إلى ذلك استعداداً تنالُ به شُكوراً، وتزداد به صحيفتُك نوراً: استعداداً هو أكرم عند الله، وأجدر في نظر الأُخوَّة والمروءة.

ألا وهو استعدادك للتفريج عن كربة من حولك من البؤساء والمعدَمِين، من جيران، أو أقربين أو نحوهم؛ فتِّشْ عن هؤلاء، وسَلْ عن حاجاتهم، وبادر في إدخال السرور إلى قلوبهم.

وإن لم يُسْعِدْكَ المال؛ فلا أقل من أن يسعدَك المقالُ بالكلمة الطيبة، والابتسامة الحانية، والخفقة الطاهرة.

وتذكَّر صبيحةَ العيد وأنت تُقْبِلْ على والديك، وتأنس بزوجك، وإخوانك وأولادك، وأحبابك، وأقربائك؛ فيجتمع الشمل على الطعام اللذيذ، والشراب الطيب، تذكَّر يتامى لا يجدون في تلك الصبيحة حنانَ الأب، وأيامى قد فقدن ابتسامةَ الزوج، وآباءًا وأمهاتٍ حُرموا أولادهم، وجموعاً كاثرة من إخوانك شَرَّدَهُم الطغيان، ومزقهم كلَّ ممزق؛ فإذا هم بالعيد يَشْرَقون بالدمع، ويكتوون بالنار، ويفقدون طعم الراحة والاستقرار.

وتذكَّر في العيد وأنت تأوي إلى ظلك الظليل، ومنزلك الواسع، وفراشك الوثير تذكَّر إخواناً لك يفترشون الغبراء، ويلتحفون الخضراء، ويتضورون في العراء.

واستحضر أنك حين تأسو جراحهم، وتسعى لسدِّ حاجتهم أنك إنما تسدّ حاجتك، وتأسو جراحك ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ ،

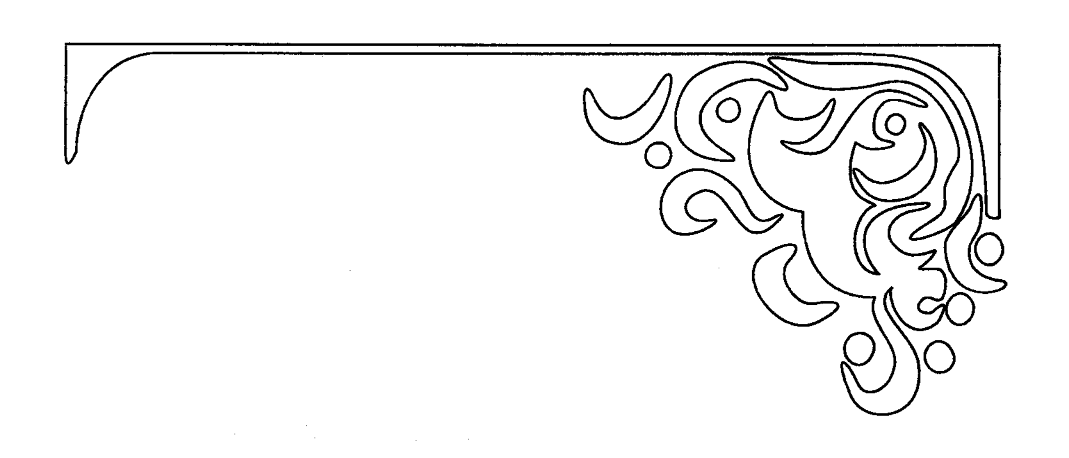
﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ﴾ ، و﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ ، و«من نفَّسَ عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » .

و«من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم» ، و«مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم ، كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى لـه سائر الجسد بالحمى والسهر» .

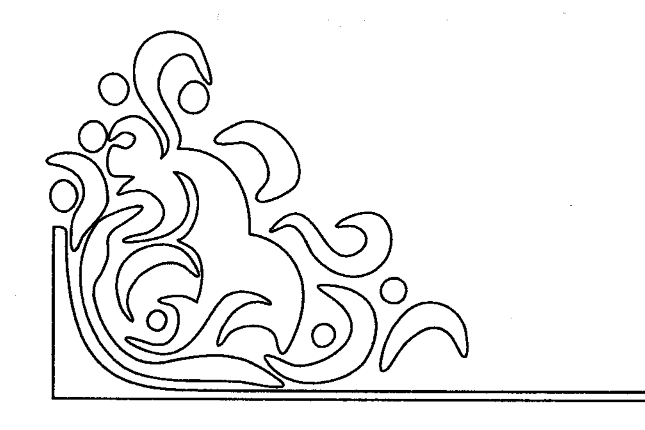
بارك الله للمسلمين عيدهم ، ومكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.





أحاديث إضافية



شهر الصيام آثاره وأسراره (١)

الحمدُ للهِ المُوفِقِ المُعِينِ، إياهُ نعبدُ وإياهُ نستعينُ، منجزِ الوعدِ بالنصرِ لعبادهِ المؤمنين، منزلِ السكينةِ على الصابرين المخلصين، والصلاة والسلام على رسوله الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لآثارهم في نُصْرَة الدين إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن لكل عبادة في الإسلام حِكمةً أو حِكَماً يظهر بعضها بالنص عليه، أو بأدنى عملٍ عقلي، وقد يخفي بعضُها إلا على المتأملين المتعمقين في التفكر والتدبر، والموفقين في الاستجلاء، والاستنباط.

والحكمةُ الجامعةُ في العباداتِ كلِّها هي تـزكيةُ النفوسِ، وتطهيرُها من النقائص، وتصفيتُها من الكُدُراتِ وإعدادُها للكمال الإنساني، وتقريبُها للملأ الأعلى، وتلطيفُ كثافَتِها الحيوانيةِ اللازمةِ لها من أصل الجِبِلَّة، وتغذيتُها بالمعاني السماوية الطاهرة؛ فالإسلام ينظر للإنسان على أنه كائنٌ وسطٌ ذو قابليةٍ للصفاء الملكي، والكدرِ الحيواني، وذو تركيبٍ يَجْمَعُ حَمَأَ الأرضِ، وإشراقَ السماء، وقد أوتي العقل والإرادة والتمييز؛ ليسعد في الحياتين المنظورة والمذخورة، أو يشقى بهما.

ولكل عبادة في الإسلام تُؤدَّى على وجهها المشروعِ، أو بمعناها الحقيقي آثارٌ في النفوس، تختلف باختلاف العابدين في صدق التوجه، واستجماع الخواطر، واستحضار العلاقة بالمعبود.

والعباداتُ إذا لم تعطِ آثارَها في أعمالِ الإنسان الظاهرة فهي عبادة مدخولة أو جسم بلا روح.

وما قست قلوبُ المسلمين، ولا تقاعسوا عن أداء واجبهم، فكانوا عرضة لغزو

أعدائهم في شتى الميادين - إلا بسبب بعدهم عن هِدَاية دينهم، وقلةِ تأثرهم بما يكررون قَوْلَه وفِعْلَه من أركان الإسلام، وشعائره، مما جعلها عند كثير منهم بمثابة العادات.

ولو أنهم تأثروا بما يقولون ويفعلون تأثراً صحيحاً لتغير وجه الأرض، ولملأوها بجمال الحق بدلاً من شغب الباطل.

هذا وإن للصوم حكماً باهرة وأسراراً بديعة، وآثاراً عظيمة على الفرد والجماعة.

وقد كان يكفي في الحث على الصيام، والدعوة إليه أن يقال للمسلم: إن الله يأمرك بالصيام دون ذكرٍ لفوائد الصيام، وآثاره، وحكمه، وأسراره؛ ذلك أن الصومَ تشريعٌ ربانيٌّ إلهيٌّ، صادرٌ عن الرب بمقتضى ربوبيته، وألوهيته، فله-عز وجل-أن يكلِّفَ عباده بما شاء، وعليهم طاعةُ أمرِه، واجتنابُ نهيِه.

وَلَكنَّ الحاجةَ تدعو إلى بيان بعض الأسرار، والحِكَم، والفوائد و الآثار التي ينطوي عليها شهر الصوم؛ ذلك أن الله-عز وجل-علمنا في آيات كثيرة من كتابه المبين أسرارَ تشريعه، وفوائدَه؛ شحذاً للأذهان أن تفكر وتعمل، وإيماءاً إلى أن هذا التشريعَ الإلهيَّ الخالدَ لم يقم إلا على ما يحقق للناس مصلحة، أو يدفع عنهم ضرراً، وليزداد إقبال النفوس على الدين قوة إلى قوة.

انظروا إلى قوله - تعالى - حين يعلمنا آداب الاستئذان في البيوت كيف يختم ذلك بقوله: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾.

بل إن الله - تعالى - حين أمرنا بالصيام ذَكَرَ حكمتَهُ وفائدتَه الجامعةَ بكلمة واحدة من كلامه المعجز، فقال-عز وجل- : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ

كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

فالتقوى هي الحكمة الجامعة من تشريع الصيام.

بل انظروا إلى قول رسول الله ﷺ عن آداب الصائم: «إنما الصوم جنة ـ أي وقاية ـ فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، ولا يجهل» الحديث متفق عليه.

فقد قدم الحكمة من الصيام ثم بين آدابه؛ ليكون أوقع في النفس، وأعمق أثراً.

وما دام الإسلام لا يتنكَّر للعقل، ولا يخاطب الناس إلا بما يتفق مع التفكير السليم، والمنطق القويم ولا يأمر من التشريع بشيء إلا إذا كانت المصلحة تحتِّم العمل به أو تركه ـ لم يكن علينا من حرجٍ حين ننظرُ في أسرار التشريع وبيان فوائده.

وما برح الناسُ في كل عصر يرون من فوائد التشريع ما يتفق مع تفكيرهم، ومصالحهم.

وهذا دليل على أن وراء هذا التشريع رباً حكيماً، أحسن كل شيء خَلْقَهُ ثم هدى.

فإذا وفَّقَ الله في مثل هذه الأحاديث أن تُشرح صدور المؤمنين لفريضة الصيام، ويُبَيَّن لهم شيء من حكم الصيام وأسراره وآثاره كان ذلك سبباً كبيراً لأن يُؤتَى بالصيام على وجهه الأكمل.

معاشر الصائمين ينفرد الصوم من بين العبادات بأنه قمعٌ للغرائز عن الاسترسال في الشهوات، التي هي أصل البلاء على الروح والبدن، وفطمٌ لأمهات الجوارح عن أمهات الملذات.

ولا مؤدِّبَ للإنسان كالكبح لضراوة الغرائز فيه، والحدِّ من سلطان الشهوات عليه.

بل هو في الحقيقة نصرٌ له على هذه العوامل التي تُدَسِّي نفسه، وتبعده عن الكمال.

وكما يحسن في عُرْف التربية أن يؤخذ الصغيرُ بالشدة في بعض الأحيان، وأن يعاقب بالحرمان من بعض ما تمليه إليه نفسه ـ فإنه يجب في التربية الدينية للكبار المكلفين أن يؤخذوا بالشدة في أحيان متقاربة كمواقيت الصلاة ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾.

أو متباعدة كشهر رمضان، فإنه لا يأتي إلا بعد أحد عشر شهراً كلها انطلاق في الشهوات، وإمعانُ فيها، واسترسال مع دواعيها.

وإن شهراً في التقييد الجزئي بعد أحد عشر شهراً من الانطلاق الكلي لقليل، وإن جزءاً من اثني عشر جزءاً في حكم المقارنات النسبية ـ ليسير.

ولكنه يسر الإسلام الذي ليس بعده يسر، وسماحته التي ما بعدها سماحة.

إن في الصوم جوعاً للبطن، وشبعاً للروح، وإضواءاً للجسم، وتقوية للقلب، وهبوطاً باللذة، وسمواً بالنَّفْس.

في الصوم يجِدُ المؤمنُ فراغاً لمناجاة ربه، والاتصال به، والإقبال عليه، والأنس بذكره، وتلاوة كتابه.

هذه بعضُ أسرارِ الصومِ وآثاره، وهذا هو ماكان يفهمه السلفُ الصالحُ من معاني الصوم، وبذلك كانوا معجزة الإسلام في الثبات على الحق، والدعوة إليه، والتخلق به، فلم تر الإنسانية من يضاهيهم بسمو أنفسهم، ونبل غاياتهم، وبعد هممهم، وإشراقةِ أرواحهم، وهدايةِ قلوبهم، وحسنِ أخلاقهم.

أفليست الإنسانية اليوم بأمسِّ الحاجة إلى مثل ذلك الجيل أو ما يقاربه؟ بل أليست مجتمعات المسلمين بحاجة إلى مثل تلك النفوس؟

بلى ثم بلى ثم بلى.

اللهم أفِضْ علينا من جودك وكرمك، ولا تحرمنا بركاتِ هذا الشهرِ الكريم، واجعل لنا منه أوفر الحظ والنصيب، واجعلنا ممن صامه وقامه إيماناً واحتساباً.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.



شهر الصيام آثاره وأسراره (٢)

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وأكرمنا بأن كتب علينا فريضة الصيام، والصلاة والسلام على خير الأنام، نبينا محمد وعلى آله وصحبه السادة الكرام، أما بعد:

فإن الإسلامَ دينُ تربيةٍ للملكات، والفضائل والكمالات، فهو يَعُد المسلم تلميذاً ملازماً في مدرسة الحياة دائماً فيها، دائباً عليها، يتلقى فيها ما تقتضيه طبيعتُه من نقصٍ وكمال، وما تقضيه طبيعتُها من خيرٍ وشر.

ومن ثَمَّ فهو يأخذهُ أخذَ المربي في مزيج من الرفق والعنف بامتحانات دورية متكررة، لا يخرج من امتحان إلا ليدخل في امتحان آخر، وفي هذه الامتحانات من الفوائد للمسلم ما لا يوجد عشرُه، ولا مِعْشاره في الامتحانات المدرسية المعروفة.

وامتحاناتُ الإسلام تتجلى في هذه الشعائر المفروضةِ على المسلم، تلك الشعائر التي شرعت للتربية، والتزكية، والتعليم، لا ليضيِّق بها على المسلم، ولا لِيُجْعل عليه في الدين من حرج، ولكنَّ الإسلامَ يريد ليطهرَه بها، وينميَ ملكاتِ الخيرِ والرحمةِ فيه، وليقويَ إرادتَه وعزيمتَه في الإقدام على الخير، والإقلاع عن الشر، ويروضَه على الفضائل الشاقة كالصبر والثبات، والحزم، والعزم، والنظام، وليحررَه من تعبِّد الشهوات له، ومَلَكِها لعنانه.

وفي كل فريضةٍ من فرائض الإسلام امتحانٌ لإيمان المسلم، وعقله، وإرادته، غيرَ أن الصيامَ أعسرُها امتحاناً؛ لأنه مقاومة عنيفة لسلطان الشهوات الجسمية، فعليه تروَّض النفوس المطمئنة، وبه تروض النفوس الجامحة، فمدتُه شهرٌ قمريٌّ متتابعٌ، وصورتُهُ الكاملةُ فطمٌ عن شهوات البطن، والفرج، واللسان، و الأذن، والعين.

وكلُّ ما نقص من أجزاء ذلك الفطام فهو نقصٌ في حقيقة الصيام، كما جاءت

بذلك الآثار عن صاحب الشريعة، وكما تقتضيه الحكمةُ الجامعةُ من معنى الصوم.

قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «الصوم جنة».

أي وقاية، ففي الصومِ وقايةٌ من المأثم، ووقايةٌ من الوقوع في عذاب الآخرة، ووقاية من العلل والأدواء الناشئة عن الإفراط في تناول الملذات.

إذا المرء لم يتركْ طعاماً يُحِبُّهُ ... ولم يَنْهَ قلباً غاوياً حيث يمما

فيوشك أن تلقى له الدهرَ سُبَّةً ... إذا ذُكِرَتْ أمثالُها تملأ الفما

فلا يتوهمِ المسلمُ أن حقيقةَ الصومِ إمساكٌ عن بعض الشهوات في النهار ثم يعقبه انهماكٌ في جميع الشهوات في الليل؛ فإن الذي نشاهده من آثار هذا الصوم إجاعةُ البطنِ، وإظماءُ الكبدِ، وفتورُ الأعضاءِ وانقباضُ الأسارير، وبذاءةُ اللسان، وسرعةُ الانفعال، واتخاذُ الصومِ شفيعاً فيما لا يُحَبُّ من الجهر بالسيئ من القول، وعذراً فيما تَبْدُرُ به البوادرُ من اللّجاج والخصام، والأيمان الفاجرة.

كَلا إن الصومَ لا يَكْمُل، ولا تَتِمُ حقيقتُه، ولا تظهر حِكَمُهُ، ولا آثاره - إلا بالفطام عن جميع الشهوات الموزعةِ على الجوارح؛ فللأذن شهواتٌ في الاستماع، وللعين شهوات من مدِّ النظر وتسريحه، وللّسان شهواتٌ في الغيبة والنميمة ولذاتٌ في الكذب، واللغو.

وإن شهواتِ اللسانِ لَتربو على شهوات الجوارح كلها، وإن له لضراوةً بتلك الشهوات لا يستطيع حَبْسَهُ عنها إلا الموفقون من أهل العزائم القوية.

أيها الصائمون الكرام: صومُ رمضان محكٌّ للإرادات النفسية، وقمعٌ للشهوات الجسمية، ورمزٌ للتعبد من صورته العليا، ورياضةٌ شاقةٌ على هجر اللذائذ والطيبات، وتدريبٌ منظمٌ على حملِ المكروه من جوع وعطش، ونطقٍ بحقٍّ، وسكوتٍ عن باطل.

والصومُ درسٌ مفيدٌ في سياسة المرء لنفسه، وَتَحكُّمِهُ في أهوائه، وضبطِه بالجد

لنوازع الهزل، واللغو، والعبث.

وهو تربيةٌ عمليةٌ لخُلُقِ الرحمةِ بالعاجز المعدم؛ فلولا الصيامُ لما ذاق الأغنياء الواجدون ألمَ الجوع، ولما تصوروا ما يفعله الجوعُ بالجائعين.

وفي الإدراكاتِ النفسيةِ جوانبُ لا يغني فيها السماعُ عن الوَجَدان؛ فلو أن جائعاً ظل وبات على الطَّوى خمس ليال، ووقف خمساً أخرى يصور للأغنياء البِطَان ما فعله الجوعُ بأمعائه وأعصابه، وكان حالُه أبلغَ في التعبير من مقاله ـ لما بلغ في التأثير فيهم ما تبلغه جوعةٌ واحدةٌ في نفس غنيٍّ مترف.

ولذلك كان نبينا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أجودَ الناس، وكان أجودَ ما يكون في رمضان، حين يدارسه جبريل القرآن، فلرسولُ الله أجودُ بالخير من الريح المرسلة.

أيها الصائمون الكرام: رمضان نفحاتٌ إلهيةٌ تَهُبُّ على العالم الأرضي في كل عام قمريٍّ مرةً، وصفحةٌ سماويةٌ تتجلى على أهل الأرض فتجلو لهم من صفات الله عطفَه وبرَّه، ومن لطائف الإسلام حِكمتَه وسرَّه؛ فلينظرِ المسلمون أين حظهم من تلك النفحة، وأين مكانُهم من تلك الصفحة.

ورمضانُ مستشفى زمانيٌّ يجد فيه كل مريض دواءَ دائه، حيث يستشفي فيه مرضى البخلِ بالإحسان، ومرضى البِطْنَةِ بالجوع والعطش، ومرضى الخصاصةِ والجوع بالكفاية والشِّبَع.

شهرُ رمضانَ عند الأَيْقاظ المُتَذكِّرين شهرُ التجلياتِ الرحمانية على القلوب المؤمنة، ينضحها بالرحمة، ويفيض عليها بالرَّوح، ويأخذها بالمواعظ، فإذا هي كأعواد الربيع جِدَّةً ونُضْرَةً، وطراوةً وخُضْرةً.

ولحكمةٍ ما كان شهراً قمرياً لا شمسياً، ليكون ربيعاً للنفوس، متنقلاً على

الفصول، فيروِّض النفوس على الشدة في الاعتدال، وعلى الاعتدال في الشدة.

ثم إن رمضانَ يحرك النفوسَ إلى الخير، ويسكِّنها عن الشر، فتكون أجود بالخير من الريح المرسلة، وأبعد عن الشر من الطفولة البريئة.

ورمضانُ يطلق النفوسَ من أسر العادات، ويحررُها من رق الشهوات، ويجتث منها فسادَ الطباع، ورعونةَ الغرائز، ويطوفُ عليها في أيامه بمحكمات الصبر، وَمُثبِّتات العزيمة، وفي لياليه بأسباب الاتصال بالله، والقرب منه.

ثم إن الصومَ ينمِّي في النفوس رعايةَ الأمانة، والإخلاصَ في العمل، وألا يراعى فيه غيرُ وجهِ الله ـ تعالى ـ.

وهذه فضيلةٌ عظمى تقضي على رذائل المداهنة والرياء والنفاق.

والصومُ من أكبر الحوافز لتحقيق التقوى، وأحسنِ الطرق الموصلة إليها؛ ولهذا السر خُتِمتْ آياتُ الصومِ بقوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَعَلَّكُم تَـتَّقُونَ ﴾.

شهرُ الصيام يربي في النفوس مكارمَ الأخلاق، ومحاسنَ الأعمال، فيبعثها إلى بر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الأهل والجيران.

ومن أثر الصيام على النفوس حصولُ الصحة العامة بجميع معانيها، ففيه صحةٌ بدنيةٌ حسيةٌ، وفيه صحةٌ روحيةٌ معنويةٌ، وفيه صحةٌ فكريةٌ ذهنية.

فالصحة البدنية تأتي من كون الصيام يقضي على المواد المترسبة في البدن، ولا سيما أبدان أولي النَّعمة والنَّهْمة والتُّخمة وقليلي العمل والحركة؛ فقد قال الأطباء: إن الصيام يحفظ الرطوباتِ الطارئةَ، ويطهر الأمعاءَ من فساد السموم التي تحدثها البِطْنة، ويحول دون كثرةِ الشحوم التي لها خطرها على القلب، فهو كتضمير الخيل الذي يزيدها قوةً على الكر والفر.

وأما الصحةُ المعنويةُ فكما تقدم من أن الصوم من أعظم ما تصح به القلوب، وتزكو به الأرواح.

وأما الصحة الفكرية فتأتي من أثر الصيام الصحيح، حيث يحصل به حسنُ التفكير، وسلامةُ النظرةِ، والتدبرُ في أمر الله ونهيه وحكمته.

وبذلك يصح للصائم تفكيرُه، ويستنير بنور ربه، ويستجيب لنداءاته، ويحقق طاعته، فيخرج من صيامه بنفس جديدة، وفكر نيِّر، يسلم به من وصف البهيمية، ويصعد في مراتب السعادة والسيادة درجات.

أيها الصائمون الكرام: هذه بعض أسرار الصوم في النفوس؛ فجدير بالصائم أن يستحضر هذه المعاني، وأن يكون له من صيامه أوفر الحظ والنصيب، وألا يفعل بعد إفطاره، أو نهاية شهره ما يُخِلُّ بهذه القوة أو يوهِنُها، فَيهدِمِ في ليله ما بناه في نهاره، وفي نهاية شهره ما بناه في شهره؛ فما أسعد الصائم، وما أحزمه لو اغتنم شهر الصيام، وجعله مدرسةً يتدرب فيها على هجر مألوفاته التي اعتاد عليها.

وإنْ هو عكس الأمرَ، فصار يتأفف على ما حَرَمَهُ منه الصيامُ، ويتلهف لساعة الإفطار؛ ليسارع إلى تناول مألوفاته، المضرَّةِ به، فقد ضيع الحزمَ والعزمَ، وبرهن على خوره، وضعف نفسه، وقلةِ فائدته من صيامه.

هذه صورة عامة مجملة، وإشارات سريعة عابرة لبعض الحكم والآثار والأسرار التي ينطوي عليها شهر الصيام.

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك، وحسن عبادتك، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد.

رمضان شهر العفة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن رمضانَ شهرُ العفَّة، وشهرُ شرفِ النفس وزكائها؛ ذلكم أن الصائم يدع طعامَه، وشرابَه، وشهوتَه لله -عز وجل- ويداومُ على هذا الصنيع شهراً كاملاً؛ فيحصل له بذلك حبسُ النفس عن شهواتها، وفطامها عن مألوفاتها، وتعديلُ قوَّتها الشهوانيةِ؛ لتستعدَّ لطلب ما فيه سعادتُها، ونعيمُها، وقبولُ ما تزكو به في حياتِها الأبدية؛ فالصيامُ لجامُ المتقين، وجُنَّةُ المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين.

والصيامُ يقوي الإرادةَ، ويدرِّب الصائمَ على أن يمتنع باختياره عن شهواته، ولذةِ حيوانيته؛ فيَصِل بذلك إلى حالةٍ نفسية بالغةِ السُّمُو، ويروِّض نفسه رياضةً عمليةً على معالي الأمور، ومكارم الأخلاق.

وما أشدَّ حاجةَ النفوس إلى أن تروَّض على خلق العفة، ومِنَ العِفَّة ألا يكون الإنسان عبداً لشهواته، مسترسلاً مع كافة رغباته؛ فالنفس طلعة لا تقف عند حد.

ومَنْ يطعمُ النفسَ ما تشتهي كمن يُطْعِمُ النارَ جزلَ الحطبْ

ولا يكون من وراء اتباع كافة الشهوات إلا إذلالُ النفس، وموتُ الشرف، والضعة والتسفّل.

وإن من عجائب حكمة الله، أن جعل مع الفضيلة ثوابَها من الصحة، والنشاط، وحُسن الأحدوثة.

وجعل مع الرذيلة عقابَها من المرض، والحِطَّة، وسوء السمعة.

ولو لم يأتِ من فضائل العفة، إلا أن يسلمَ الإنسانُ من شرور الفواحش،

وينأى بنفسه عن أضرارها المتنوعة، كيف وقد قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ ﴾.

ولا ريب أن أعظمَ الفواحش فاحشتا اللواط، والزنا، قال ابن القيم رحمه الله متحدثاً عن تلك الفاحشتين: «فليس في الذنوب أفسدُ للقلب والدين، من هاتين الفاحشتين، ولهما خاصِّيَّةٌ في تبعيد القلب من الله؛ فإنهما من أعظم الخبائث، فإذا انصبغ القلبُ بهما بَعُد ممن هو طيب، لا يصعدُ إليه إلا طيب، وكلما ازداد خبثاً ازداد من الله بعداً».

وقال رحمه الله مبيناً أضرار اللواط: «فإنه يحدث الهمَّ، والغمَّ، والنفرةَ، عن الفاعل والمفعول.

وأيضاً؛ فإنه يسوِّد الوجه، ويظلم الصدرَ، ويطمس نورَ القلب، ويكسو الوجه وحشةً تصير كالسيماء، يعرفها من له أدنى فِراسة.

وأيضاً؛ فإنه يوجب النُّفْرةَ، والتباغضَ الشديدَ، والتقاطع بين الفاعل والمفعول ولابد.

وأيضاً؛ فإنه يفسد حالَ الفاعلِ والمفعولِ فساداً لا يكاد يُرجى بعده صلاح؛ إلا أن يشاء الله بالتوبة النصوح.

وأيضاً؛ فإنه يَذْهَبُ بالمحاسن منهما، ويكسوهما ضدَّها، كما يذهب بالمودة بينهما، ويبدلُهما بها تباغضاً، وتلاعناً.

وأيضاً؛ فإنه من أكبر زوال النعم، وحلول النِّقم؛ فإنه يوجب اللعن، والمقت من الله، وإعراضَه عن فاعله، وعدمَ نظره إليه؛ فأيُّ خيرٍ يرجوه بعد هذا؟ وأي شرٍّ يأمنه؟ وكيف حياةُ عبدٍ حلَّت عليه لعنةُ اللهِ ومقتُه؟ وأعرض عنه بوجهه، ولم ينظر إليه؟!.

وأيضاً؛ فإنه يذهب بالحياء جملةً، والحياءُ هو حياةُ القلوبِ؛ فإن فَقَدها القلبُ استحسن القبيحَ، واستقبح الحسنَ، وحينئذٍ فقد استحكم فساده».

إلى أن قال رحمه الله متحدثاً عن أضرار اللواط:

«وأيضاً؛ فإنه يورث من الوقاحة، والجرأة، ما لا يورثه سواه.

وأيضاً فإنه يورث من المهانة، والسِّفال والحقارةِ ما لا يورثه غيره.

وأيضاً فإنه يكسو العبدَ حُلَّةَ المقت، والبغضاءِ، وازدراءِ الناس، واحتقارهم إياه، واستصغارهم له -ما هو مشاهد بالحس». اهـ.

ولقد أثبتت الدراساتُ الطبية الحديثة؛ أن لهذه الفعلة أضراراً كبيرة، على نفوس مرتكبيها، وعقولهم، وأبدانهم.

فمن أضرارها: التأثير على الأعصاب، والمخ، وأعضاء التناسل، والدوسنتاريا، والتهابُ الكبد الفيروسي، بل كثيراً ما يؤدي إلى أمراض الشذوذ الخطيرة: كالزهري، والسيلان، والهربس، والإيدز.

بل إنه على رأس الأسباب المؤدية لتلك الأمراض.

وأكثر هذه الأضرار، يشترك فيها الزنا مع اللواط، ثم إن الزنا يجمع خلال الشر كلَّها، من قلة الدين، ، وذهاب الورع، وفساد المروءة، وقلة الغيرة، ووأد الفضيلة؛ فالزنا سبب للفقر، ولذهاب حرمة فاعله وسقوطه من عين الله، وأعين عباده، والزنا يسلب صاحبَه اسمَ البرِّ، والعفيفِ، والعدل، ويعطيه اسمَ الفاجرِ، والفاسق، والزاني، والخائن.

ومن أضرار الزنا: الوحشةُ التي تُوضع في قلب الزاني، وهي نظيرُ الوحشةِ التي تعلو وجهَه؛ فالعفيفُ على وجهه حلاوةٌ، وفي قلبه أنسٌ، ومَنْ جالسه استأنس به، والزاني بالعكس من ذلك تماماً.

ولو علم الفاجر ما في العفاف من اللذة، والسرور، وانشراح الصدر، وطيب العيش لرأى أن ما فاته أضعافُ أضعافِ ما حصل له.

والزنا يجرئ على قطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، وكسبِ الحرام، وظلمِ الخلق، وإضاعةِ المال، والأهل، والعيال.

والزنا يَذْهَبُ بكرامة الفتاة، ويكسوها عاراً لا يقف عندها، بل يتعداها إلى أسرتها؛ حيث تدخل العار على أهلها، وزوجها، وأقاربها، وتنكّس به رؤوسهم بين الخلائق.

وإذا حملت المرأةُ من الزنا، فقتلت ولدَها جمعت بين الزنا والقتل، وإذا حملته على الزوج أدخلت على أهلها وأهله أجنبياً ليس منهم، فورثهم ورآهم، وخلا بهم، وانتسب إليهم.

والزنا جنايةٌ على الولد، فإن الزاني يَبْذِرُ نطفته على وجه يجعل النسمةَ المخلّقةَ منها مقطوعةَ النسبِ إلى الآباء، فكان الزنا سبباً لوجود الولد عارياً من الروابط التي تربطه بأدنى قربى يأخذون بساعده إذا زلّت به نَعْلُه.

وفي الزنا جنايةٌ على الولد، وتعريضٌ له لأن يعيش وضيعاً بين الأمة، مدحوراً من كل جانب، فما ذنب هذا المسكين، وأي قلب يحتمل ذلك المصير.

أيها الصوام: هذا نزرٌ يسير من أضرار الفواحش، ومن خلال ذلك يتبين لنا مدى ما يصل إليه الإنسان إذا هو فارق العفةَ، واتبع هواه بغير هدى من الله، وهكذا يتبين لنا أثر الصوم في تنمية خلق العفة.

اللهم إنا نسألك الهدى، والتقى، والعفاف، والغنى.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

من تـرك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه (١)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه،

أما بعد:

فإن للشهوات سلطاناً على النفوس، واستيلاءاً وتمكناً في القلوب؛ فتركُها عزيزٌ، والخلاص منها عسير.

ولكنْ مَنْ اتقى اللهَ كفاه، ومن استعان به أعانه ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾.

وإنما يجدُ المشقةَ في ترك المألوفات، والعوائدِ من تركها لغير الله.

أما من تركها مخلصاً لله فإنه لا يجد في تركها مشقة إلا أول وهلةٍ؛ ليمتحن أصادق هو في تركها أم كاذب؛ فإن صبر على تلك المشقة قليلاً تحولت لذة.

وكلما ازدادتِ الرغبةُ في المحرم، وتاقتِ النفسُ إلى فعله، وكثرت الدواعي إلى الوقوع فيه ـ عظمُ الأجرُ في تركه، وتضاعفت المثوبةُ في مجاهدة النفس على الخلاص منه.

ولا ينافي التقوى ميلُ الإنسانِ بطبعه إلى بعض الشهوات المحرمة إذا كان لا يغشاها، وكان يجاهد نفسَه على بغضها.

بل إن ذلك من الجهاد، ومن صميم التقوى؛ فالنار حفت بالشهوات، والجنة حفت بالمكاره.

ولقد جرت سنةُ الله بأنّ مَنْ ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه.

والعِوضُ من الله أنواع مختلفة، وأجلُّ ذلك العوض: الأنسُ بالله، ومحبتُه، وطمأنينةُ القلبِ بذكره، وقوَّته، ونشاطُه، ورضاه عن ربه، مع ما يلقاه العبد من جزاء في هذه الدنيا، ومع ما ينتظره من الجزاء الأوفى في العقبى.

ولقد تظاهرت نصوصُ الشرع في هذا المعنى العظيم الذي يعد من أدْعى الأسباب لمخالفة الهوى، ولزوم التقوى؛ إذ فيه نظرٌ للعواقب، وإيثارٌ للآجل على العاجل.

هذا وإن الصيام لمن أعظم ما يؤكد هذا المعنى، ويبعث عليه.

ولو استعرض الإنسانُ نصوصَ الشرعِ في الصيام لتجلى له هذا المعنى غاية التجلي.

ومن تلك النصوص ما جاء في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «قال الله: كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي» الحديث.

وجاء فيهما -أيضاً-: «للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربَّه فرح بصومه».

وبوب الإمام البخاري ﷺ في صحيحه في كتاب الصيام باباً سماه:

«باب الريان للصائمين»

ثم ساق بسنده الحديث عن سهل بن سعد ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة باباً يقال له: الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال: أيها الصائمون، فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم؛ فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد».

قال ابن حجر رحمه الله في شرح الحديث :« الرَّيَّان بفتح الراء ، وتشديد التحتانية وزن فعلان من الرِّي : اسمُ علمٍ على باب من أبواب الجنة يختص بدخول الصائمين منه.

وهو مما وقعت المناسبة فيه بين لفظه ومعناه؛ لأنه مشتق من الرِّي ، وهو مناسب لحال الصائمين ، وسيأتي أن من دخله لا يظمأ.

قال القرطبي : اكْتُفي بذكر الري عن الشبع ؛ لأنه يدل عليه من حيث أنه يستلزمه.

قلت : أو لكونه أشقَّ على الصائم من الجوع » اـهـ.

وهكذا ـ أيها الصائمون ـ يتبين لنا أن الجزاءَ من جنس العمل ، وأن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه؛ فالصائم لما ترك شهوته ، وطعامه ، وشرابه من أجل الله ـ جازاه الله على عمله ، وعوضه خيراً مما ترك؛ حيث اختص الصيام من بين سائر الأعمال بأنه له ، وأنه يتولى جزاءه.

والصائم لما ترك شهواتِه المجبولَ عليها من شراب ، وطعام ، و منكح ، وفي ذلك منع له مما يشتهي ـ عوضه الله خيراً مما ترك ، ألا وهو الفرح عند الفطر ، والفرح عند لقاء الرب وهو فرحٌ لا يقارن بفرح التمتع بالشهوات وسائر الملذات.

وكذلك الحال بالنسبة للحديث الثالث؛ فالصائمون لما صبروا على ألم العطش حال صيامهم ، وفي ذلك قهر للنفس ، وقمع لها؛ ابتغاء مرضاة الله ـ عوَّضهم الله خيراً مما تركوا ، فجعل لهم باباً في الجنة لا يدخل منه غيرهم.

وهكذا يتجلى لنا هذا المعنى في الصيام.

والعبرة المأخوذة ، والدروس المستفادة من هذا ـ أن يستحضر الصائم هذا المعنى العظيم في جميع ما يأتي وما يذر ، وأن يعلم أن الله ـ عز وجل ـ كريم شكور ، وأن مقتضى ذلك أن يجازي الإنسان بالحسنة خيراً منها تفضلاً وتكرماً.

والجزاء ليس في الآخرة فحسب، بل الغالب أنه في الدنيا والآخرة معاً.

ولو قام هذا المعنى في القلوب لانبعثت إلى فعل الطاعات، ولأقصرت عن كثير من الشرور والمعاصي.

هذا وللحديث صلة في الدرس القادم -بإذن الله- حيث سيذكر فيها نماذج لأمور من تركها لله عوضه الله خيراً منها.

اللهم إنا نسألك حبك، وحبَّ من يحبك، وحب العمل الذي يقربنا إلى حبك، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه (٢)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد كان الحديث في الدرس الماضي يدور حول معنى: «من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه» وكيف كان الصيام دالاً على هذا المعنى، ومرشداً إليه.

والحديث ههنا إكمال لما مضى، وسيدور حول ذكرٍ لأمور من تركها لله عوضه الله خيراً منها؛ لعل النفوس تنبعث إلى فعل الخير، والإقصار عن الشر.

فمن ترك مسألَة الناس، ورجاءَهم، وإراقةَ ماءِ الوجهِ أمامهم، وعلّق رجاءه بالله دون سواه ـ عَوّضَه خيراً مما ترك، فرزقه حريةَ القلب، وعزةَ النفس، والاستغناء عن الخلق «ومن يتصبرْ يصبرْه الله، ومن يستعففْ يُعفُهُ الله».

ومن ترك الاعتراض على قدر الله، فسلم لربه في جميع أمره رزقه الله الرضا واليقين، وأراه من حسن العاقبة ما لا يخطر له ببال.

ومن ترك الذهابَ إلى العرافين والسحرة رزقه الله الصبرَ، وصِدْقَ التوكل، وتَحَقُّقَ التوحيد.

ومن ترك التكالبَ على الدنيا جمع اللهُ له أمرَه، وجعل غناه في قلبه، وأَتَتْهُ الدنيا وهي راغمةٌ.

ومن ترك الخوفَ من غير الله، وأفرد اللهَ وحده بالخوف ـ سَلِمَ من الأوهام، وأمَّنه الله من كل شئ، فصارت مخاوفُه أمناً وبرداً وسلاماً.

ومن ترك الكذبَ، ولزم الصدقَ فيما يأتي وما يذر ـ هُدي إلى البر، وكان عند الله صديقاً، ورزق لسانَ صدقٍ بين الناس، فسوَّدوه، وأكرموه، وأصاخوا السمع لقوله.

ومن ترك المراءَ وإن كان مُحِقّاً ضُمن له بيتٌ في ربض الجنة، وسلم من شر اللجاج والخصومةِ، وحافظ على صفاء قلبه، وأمن من كشف عيوبه.

ومن ترك الغشَّ في البيع والشراء زادت ثقةُ الناس به، وكثر إقبالُهم على سلعته.

ومن ترك الربا، وكَسْبَ الخبيثِ بارك الله في رزقه، وفتح له أبوابَ الخيرات والبركات.

ومن ترك النظرَ إلى المحرم عوَّضه الله فِراسةً صادقةً، ونوراً وجلاءًا، ولذةً يجدها في قلبه.

ومن ترك البخلَ، وآثر التكرمَ والسخاءَ أحبه الناس، واقترب من الله ومن الجنة، وسلم من الهم والغم وضيق الصدر، وترقى في مدارج الكمال ومراتب الفضيلة ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

ومن ترك الكبر، ولَزِمَ التواضع كمل سؤدده، وعلا قدره، وتناهى فضله، قال ﷺ فيما رواه مسلم في الصحيح: «ومن تواضع لله رفعه».

ومن ترك المنام ودفأه ولذته، وقام يصلي لله ـ عز وجل ـ عوضه الله فرحاً، ونشاطاً، وأنساً.

ومن ترك التدخينَ، وكافةَ المسكراتِ والمخدراتِ أعانه الله، وأمده بألطاف من عنده، وعوَّضه صحةً وسعادةً حقيقية، لا تلك السعادة الوهمية العابرة.

ومن ترك الانتقامَ والتشفِّيَ مع قدرته على ذلك ـ عوَّضه الله انشراحاً في الصدر، وفرحاً في القلب؛ ففي العفو مِنَ الطمأنينة والسكينةِ، والحلاوةِ، وشرفِ النفس، وعزها، وترفُّعها ـ ما ليس شيءٌ منه في المقابلة والانتقام.

قال ﷺ فيما رواه مسلم: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً».

ومن ترك صحبة السوء التي يظن أن بها منتهى أنسه، وغايةَ سروره ـ عوَّضه الله أصحاباً أبراراً، يجد عندهم المتعة والفائدة، وينال من جرّاء مصاحبتهم ومعاشرتهم خيري الدنيا والآخرة.

ومن ترك كثرة الطعام سلم من البطنة، وسائر الأمراض؛ لأن من أكل كثيراً شرب كثيراً، فنام كثيراً، فخسر كثيراً.

ومن تركَ المماطلةَ في الدَّين أعانه الله، وسدد عنه بل كان حقّاً على الله عونُه.

ومن تركَ الغضبَ حفظ على نفسه عزتَها وكرامتَها، ونأى بها عن ذل الاعتذار، ومَغَبَّةِ الندم، ودخل في زمرة المتقين ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾.

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أوصني! قال: «لا تغضب» رواه البخاري.

قال الماوردي رحمه الله: «فينبغي لذي اللُّبِّ السوي والحزمِ القوي أن يتلقى قوةَ الغضب بحلمه فيصدَّها، ويقابلَ دواعي شرَّتِهِ بحزمه فيردَّها، ليحظى بأجَلِّ الخيرة، ويسعد بحميد العاقبة».

وعن أبي عبلة قال: غضب عمر بن عبد العزيز يوماً غضباً شديداً على رجل، فأمر به، فأُحضر وجُرِّد، وشُدَّ في الحبال، وجيء بالسياط، فقال: خلوا سبيله؛ أما إني لولا أن أكون غضباناً لَسُؤْتُكَ، ثم تلا قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾.

اللهم حبب إلينا الإيمان، وزينه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفرَ والفسوقَ والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

معاشر الصائمين: للحديث بقية، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه (٣)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد كان الحديث الماضي يدور حول بعض النماذج لأمور من تركها لله عوضه الله خيراً مما ترك.

والحديث ههنا إكمال لما مضى، وذكرٌ لنماذج أخرى من ذلك القبيل.

معاشر الصائمين: من ترك الوقيعة في أعراض الناس والتعرضَ لعيوبهم ومغامزهم - عُوِّض بالسلامة من شرهم، ورزق التبصرَ في نفسه.

قال الأحنف بن قيس رحمه الله: «من أسرع إلى الناس فيما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون».

وقالت أعرابيةٌ توصي ولدها: «إياك والتعرضَ للعيوب فتُتَّخذَ غرضاً، وخليقٌ ألا يثبتَ الغرضُ على كثرة السهام، وقلما اعْتَوَرَتِ السهامُ غرضاً حتى يهيَ ما اشتد من قوته».

قال الشافعي رحمه الله:

المرءُ إن كان مؤمناً ورعاً أشغله عن عيوب الورى ورعُهْ
كما السقيمِ العليلِ أشغله عن وجع الناس كلِّهم وجعُهْ

ومن ترك مجاراةَ السفهاء، وأعرض عن الجاهلين حمى عرضه، وأراح نفسه، وسلم من سماع ما يؤذيه ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾

ومن ترك الحسدَ سلم من أضراره المتنوعة؛ فالحسد داء عضال، وسمٌّ قتَّال، ومسلكٌ شائنٌ، وخلقٌ لئيم، ومن لؤم الحسد أنه موكل بالأدنى فالأدنى من الأقارب، والأكفاء، و الخلطاء، والمعارف، والإخوان.

قال بعض الحكماء: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحسود، نَفَسٌ دائمٌ، وهمٌّ لازمٌ، وقلبٌ هائمٌ.

ومن سلم من سوء الظن بالناس سلم من تشوش القلب، واشتغال الفكر؛ فإساءَةُ الظنِّ تفسد المودةَ، وتجلب الهمَّ والكدر، ولهذا حذرنا الله -عز وجل- منها فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾

وقال ﷺ: «إياكم والظنَّ، فإن الظنَّ أكذبُ الحديث» رواه البخاري ومسلم.

ومن اطَّرح الدعةَ والكسلَ، وأقبل على الجد والعمل -علت همتُهُ، وبورك له في وقته، فنال الخيرَ الكثير في الزمن اليسير.

ومَنْ هجر اللذات نال المنى ومن أكبَّ على اللذات عضَّ على اليد

ومن ترك تَطلُّبَ الشهرةِ وحبَّ الظهورِ رفع الله ذكره، ونشر فضلَه، وأتته الشهرة تُجَرِّرُ أذيالها.

ومن ترك العقوقَ، فكان بَرّاً بوالديه رضي الله عنه، ويسر الله له أمره، ورزقه الله الأولاد البررة وأدخله الجنة في الآخرة.

ومن ترك قطيعةَ أرحامِه، فواصلهم، وتودَّد إليهم، واتقى الله فيهم - بسط الله له في رزقه، ونَسَأَ له في أثره، ولا يزال معه ظهير من الله ما دام على تلك الصلة.

ومن ترك العشقَ، وقطع أسبابَه التي تُمِدُّه، وتجرَّع غُصَصَ الهجر، ونارَ البعادِ في بداية أمره، وأقبل على الله بكُلِّيته -رُزقَ السلوَّ، وعزةَ النفس، وسلم من اللوعةِ والذلة والأَسْر، ومُلِئَ قلبُه حريةً ومحبةً لله -عز وجل- تلك المحبة التي تَلُمُّ شعثَ

القلبِ، وتسدَّ خَلَّتَهُ، وتشبع جوعته، وتغنيه من فقره؛ فالقلب لا يُسَرُّ ولا يُفْلِحُ، ولا يطيب ولا يسكُن، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه، وحبه، والإنابة إليه.

ومن ترك العبوسَ والتقطيبَ، واتصف بالبشر والطلاقة ـ لانت عريكته، ورقت حواشيه، وكثر محبوه، وقلَّ شانؤوه.

قال ﷺ :«تبسمك في وجه أخيك صدقة» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

قال ابن عقيل الحنبلي: «البشرُ مُؤَنِّسٌ للعقول، ومن دواعي القَبول، والعبوسُ ضدُّه».

وبالجملة فمن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه؛ فالجزاء من جنس العمل ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ .

أيها الصائم الكريم: إذا أردت مثالاً جلياً، يبين لك أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه فانظر إلى قصة يوسف ـ مع امرأة العزيز؛ فلقد راودتْهُ عن نفسه فاستعصم، مع ما اجتمع له من دواعي المعصية، فلقد اجتمع ليوسف ما لم يجتمع لغيره، وما لو اجتمع كلُّه أو بعضُه لغيره لربما أجاب الداعي، بل إن من الناس من يذهب لمواقع الفتنِ بنفسه، ويسعى لحتفه بظلفه، ثم يبوءُ بعد ذلك بالخسران المبين، في الدنيا والآخرة.

أما يوسف ـ عليه السلام ـ فقد اجتمع له من دواعي الزنا ما يلي:

أولاً: أنه كان شاباً، وداعيةُ الشباب إلى الزنا قوية.

ثانياً: أنه كان عَزَباً، وليس له ما يعوضه ويرد شهوته من زوجة، أو سُرِّية.

ثالثاً: أنه كان غريباً، والغريبُ لا يستحيي في بلد غربته مما يستحيي منه بين أصحابه ومعارفه.

رابعاً: أنه كان مملوكاً، فقد اشتري بثمن بخس دراهم معدودة، والمملوكُ ليس وازعه كوزاع الحر.

خامساً: أن المرأة كانت جميلة.

سادساً: أنها ذاتُ منصبٍ عالٍ.

سابعاً: أنها سيدته.

ثامناً: غياب الرقيب.

تاسعاً: أنها قد تهيأت له.

عاشراً: أنها غلقت الأبواب.

حادي عشر: أنها هي التي دعته إلى نفسها.

ثاني عشر: أنها حرصت على ذلك أشد الحرص.

ثالث عشر: أنها توعدته إن لم يفعل بالصغار، والسجن، وهو تهديد من قادر.

ومع هذه الدواعي صبر إيثاراً واختياراً لما عند الله، فنال السعادة والعز في الدنيا، وإن له للجنةَ في العقبى، فلقد أصبح هو السيد، وأصبحت امرأة العزيز فيما بعد كالمملوكة عنده، وقد ورد أنها قالت: «سبحانَ مَنْ صيَّر الملوك بِذُلِّ المعصية مماليك، ومن جعل المماليك بعز الطاعة ملوكاً».

فحري بالعاقل الحازم أن يتبصَّر في الأمور، وأن ينظر في العواقب، وألا يؤثر اللذة الحاضرة الفانية على اللذة الآجلة الباقية.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

من فضائل الحلم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فلا ريب أن للصوم أثراً في اكتساب الحلم، ولا ريب أن للحلم فضائلَ عديدةً، والحديث ههنا تبيان لبعض فضائل الحلم.

معاشر الصائمين: من فضائل الحلم أنك ترى الناسَ في جانب الحليم متى كان خصمُه أو مناظره ينحدر في جهالة، ولا يندى جبينه أن يقول سوءاً.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ: «حلمُك على السفيه يكثر أنصارَك عليه».

قال الحكيم العربي:

والحلمُ أعظمُ ناصرٍ تَدْعُونه ... فالزمْهُ يَكْفِكَ قلةَ الأنصار

ومن فضل الحلم أن رئاسةَ الناسِ صغيرةً كانت أم كبيرة لا ينتظم أمرُها إلا أن يكون الرئيس راسخاً في خلق الحلم.

قال معاوية ﷺ لعرابةَ الأوسيِّ: بم سُدْتَ قومك حتى قال فيك الشماخ:

رأيت عرابةَ الأوسيَّ يسمو ... إلى الخيرات منقطعَ القرينِ
إذا ما رايةٌ رُفعت لِمَجدٍ ... تلقَّاها عرابةُ باليمينِ

قال عرابةُ: غيري أولى مني بذلك يا أمير المؤمنين.

قال معاوية: عزمتُ عليك لَتُخبرَنِّي.

قال عرابة: يا أمير المؤمنين! كنت أحلِم على جاهلهم، وأعطي سائلهم، وأسعى في قضاء حوائجهم.

وما ذلك ـ أيها الصائمون ـ إلا أن الناس يكرهون جافي الطبع، ولا يجتمعون حولَ مَنْ يأخذه الغضبُ لأدنى هفوة إلا أن يساقوا إليه سوقاً.

والرئيس بحق هو مَنْ يملك القلوب قبل أن يبسط سلطانه على الرقاب.

ولقد امتن ربنا ـجل وعلاـ على نبينا محمد ﷺ بأن جبله على هذه السيرة الحميدة، وأنْ جَنَّبه الغلظةَ والفظاظة، فقال ـ عز وجل ـ: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾.

ولقد كانت سيرةُ نبينا محمد ﷺ حافلةً بهذا الخلق الكريم؛ فلقد كان يلاقي الإساءة بالإحسان، ويدفع بالحسنة السيئة، ويقابل الغِلَظَ بالرفق؛ فهذه السيرةُ ترشدُ رئيسَ القومِ، والداعيةَ، والعالمَ، والمعلمَ أن يوسِّع صدرَه لمن يناقشه أو يجادله ولو صاغ أقواله في غلظة وجفاء؛ فسيرته ـ عليه الصلاة والسلام ـ هي التي علَّمت معاوية رضي الله عنه أن يقول: «والله لا أحْمِلُ سيفي على مَنْ لا سيفَ له؛ فإن لم يكن لأحدكم سوى كلمةٍ يقولها ليستشفيَ بها فإني أجعل لها ذلك دبر أذني، وتحت قدمي».

ويقول رضي الله عنه: «لا أحمل سيفي ما كفاني سوطي، ولا أحمل سوطي ما كفاني مقولي».

وإليكم ـمعاشر الصائمينـ هذه القصةَ العجيبةَ من سيرة معاوية رضي الله عنه.

قال رجل من قريش: ما أظن معاويةُ أغضبه شيءٌ قطُّ.

فقال بعضهم: إذا ذُكِرَت أُمُّه غضب.

فقال مالك بن أسماء المنى القرشي: أنا أغضبه إن جعلتم لي جعلاً، ففعلوا، فأتاه في الموسم، فقال له: يا أمير المؤمنين إن عينيكَ لتشبهانِ عيني أمِّك.

قال معاوية: نعم كانتا عينين طالما أعجبتا أبا سفيان! ثم دعا مولاه شقران فقال له: أَعْدِدْ لأسماء المنى ديةَ ابنها؛ فإني قد قتلته وهو لا يدري.

فرجع مالكُ بنُ أسماءِ المنى وأخذ الجعلَ، فقيل له: إن أتيت عمر بن الزبير فقلت له مثل ما قلت لمعاوية أعطيناك كذا وكذا.

فأتاه فقال له ذلك، فأمر بضربه حتى مات.

فبلغ ذلك معاوية، فقال: أنا والله قتلته، وبعث إلى أمه بديته، وأنشأ يقول:

ألا قل لأسماء المنى أمِّ مالكٍ فإني لَعَمْرُو الله أهلكت مالكا

قال ابن الأثير ﷺ متحدثاً عن صلاح الدين الأيوبي: «وكان -رحمه الله- حليماً، حسن الأخلاق، صبوراً على ما يكره، كثير التغاضي عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم ما يكره، ولا يُعَلِمُهُ بذلك، ولا يتغير عليه.

ويلغني أنه كان جالساً وعنده جماعة، فرمى بعض المماليك بعضاً بسر موزة -أي بنعل- فأخطأته، ووصلت إلى صلاح الدين، فأخطأته ووقعت بالقرب منه، فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلم جليسه؛ ليتغافل عنها».

معاشر الصائمين: قد يقطع الحلم شَرّاً عظيماً لو لم يقابل بالحلم لتمادى وعظم.

قال أيوب: «حلمُ ساعةٍ يدفع شراً كبيراً»

وقال الأحنف: «ربَّ غيظٍ تَجَرَّعْتُه، مخافةَ ما هو شرٌّ منه».

بل قد يضع الحلمُ مكان الضغينة مودة؛ ذلكم أن الفضيلةَ محبوبةٌ في نفسها، وتدعو إلى إجلال مَنْ يتمسك بها.

وكثيراً ما يكون الصفح عن المسيء دواءاً لسوء خلقه، وتقويماً لعوجه، فيعود الجفاء إلى ألفة، والمناواة إلى مسالمة.

أما التسرع في دفع السيئة بمثلها أو أشدَّ دونما نظرٍ إلى الأثر السيء ـ فذلك دليلُ ضيقِ الصدرِ ، والعجزِ عن كبح جماح الغضب.

وإنما يتفاضل الناس في السيادة على قدر تدبرهم للعواقب ، وإسكاتهم للغضب إذا طغى.

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

أيها الصائمون الكرام ومن فوائد الحلم : السلامة من تشوش القلب ، ومرض البدن ، وسائر المشكلات الناجمة عن الغضب.

أما أعظم فوائده فهي الفوزُ برضا الخالق ـ جل وعلا ـ فإنه قد دعا إليه في آيات كثيرة ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

وأثنى على عباده المؤمنين بقوله : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ .

أيها الصائم الكريم تذكَّر أنك تتفيَّأُ في ظلال دين قويم ، وتعيش في أيام شهر مبارك كريم ؛ فإذا سابَّك أحدٌ أو شاتمك فقل : « إني امرؤ صائم » .

وبذلك ترضي ربك ، وتحافظ على صومك ، وتسلم من سماع ما يسوؤك.

وإذا لزمت هذه السيرة الرضية في شهرك هذا كان ذلك دافعاً لك أن تلزم الحلم في بقية عمرك ، « وإنما الحلم بالتحلم ، وإنما العلم بالتعلم ، ومن يتحر الخير يعطه ، ومن يتوق الشر يوقه » .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

تقسيمات وضوابط في الحياء

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فقد مر حديثٌ حولَ الحياء، وأثرِ الصيام في اكتسابه، والتحلي به، والحديثُ ههنا إكمالٌ لما مضى؛ حيث سيتناول بعض التقسيمات والضوابط في الحياء.

معاشرَ الصائمين: قَسَّم بعُض العلماءِ الحياءَ إلى ثلاثةِ أقسام وبعضُهم إلى أكثر من ذلك.

قال الماوردي رحمه الله: «واعلم أن الحياء في الإنسان قد يكون من ثلاثة أوجه:

أحدها: حياؤه من الله -تعالى- ويكون بامتثال أوامره، والكف عن زواجره.

والثاني: حياؤه من الناس، ويكون بكف الأذى، وترك المجاهرة بالقبيح.

والثالث: حياؤه من نفسه، ويكون بالعفة، وصيانة الخلوات».

وقال ابن القيم رحمه الله: «وقد قُسِّمَ الحياءُ على عشرة: حياءُ جناية، وحياءُ تقصيرٍ، وحياءُ إجلالٍ، وحياءُ كرمٍ، وحياءُ حشمةٍ، وحياءُ استصغارٍ للنفس، واحتقارٍ لها، وحياءُ محبةٍ، وحياءُ عبوديةٍ، وحياءُ شرفٍ وعزٍّ، وحياءُ المستحيي من نفسه.

فأما حياءُ الجناية، فمنه حياءُ آدمَ -عليه السلام- لما فر هارباً من الجنة، فقال الله -تعالى-: «أفراراً مني يا آدم؟

قال: لا يا رب، بل حياءاً منك».

وحياءُ التقصيرِ: كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان يوم القيامة قالوا: سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك.

وحياءُ الإجلالِ: هو حياءُ المعرفةِ، وعلى حسب معرفة العبدِ بربه يكون حياؤه منه.

وحياءُ الكرمِ:كحياء النبي ﷺ من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب،وطولوا الجلوس عنده، فقام استحياءاً أن يقول لهم: انصرفوا.

وحياءُ الحشمةِ: كحياء علي بن أبي طالب ﷺ أن يسأل النبي ﷺ عن المذي لمكانة ابنته منه.

وحياءُ الاستحقارِ واستصغارِ النفس: كحياء العبد من ربه -عز وجل- أن يسأله حوائجه، احتقاراً لنفسه، واستصغاراً لها.

وفي أثر إسرائيلي «أن موسى-عليه السلام- قال: يارب! إنه لتعرض لي حاجةٌ من الدنيا فاستحيي أن أسألك هي يا رب».

فقال الله - تعالى - : «سلني حتى ملحَ عجينتك، وعلفَ شاتك».

وأما حياءُ المحبةِ: فهو حياءُ المحبِّ من محبوبه، حتى إذا خطر على قلبه في غيبته هاج الحياءُ من قلبه، وأحسَّ به في وجهه، ولا يدري ما سببه.

وكذلك يعرضُ للمحب عند ملاقاة محبوبه، ومفاجأته له روعةٌ شديدة.

وأما حياءُ العبودية: فهو حياءٌ ممتزجٌ من محبةٍ، وخوفٍ، ومشاهدةِ عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأن قدَره أعلى وأجلُّ منها؛ فعبوديته له توجب استحياءه منه لا محالة.

وأما حياءُ الشرفِ والعزة: فحياءُ النفسِ العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذلٍ، أو عطاءٍ، أو إحسانٍ؛ فإنه يستحيي -مع بذله- حياءَ شرفِ نفسٍ، وعزة.

وهذا له سببان أحدهما هذا، والثاني: استحياؤه من الآخذ، حتى كأنه هو الآخذُ السائلُ، حتى إنَّ بعض أهل الكرم لا تطاوعه نفسُه بمواجهته لمن يعطيه حياءً منه، وهذا يدخل في التلوم؛ لأنه يستحيي من خجلة الآخذ.

وأما حياء المرء من نفسه: فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص، وقناعتها بالدون، فيجدُ نفسَه مستحيياً من نفسه، حتى لكأن له نَفْسين، يستحي بإحداهما من الأخرى.

وهذا أكملُ ما يكون من الحياء؛ فإن العبد إذا استحيا من نفسه فهو بأن يستحيي من غيره أجدر» انتهى ملخصاً من كلام ابن القيم رحمه الله.

معاشر الصائمين: قد يشكل على بعض الناس كونُ الحياءِ من الإيمان، وكونُه خيراً، أو لا يأتي إلا بخير مع أنه صاحبه قد يمتنع من أن يواجِهَ بالحق من يستحيي منه، فيترك إنكار المنكر عليه، وأمرَه بالمعروف، وقد يحمله الحياء على الإخلال ببعض الحقوق، وغير ذلك مما هو معروف في العادة.

والجواب أن ذلك المانعَ ليس حياءً حقيقياً بل هو صوريٌّ وإنما هو عجز ومهانةٌ، وخورٌ، وتسميته حياءً من باب التجوز لمشابهته الحياء الحقيقي.

ثم إن الحياءَ وسطٌ بين رذيلتين إحداهما: الوقاحة، والأخرى: الخجل، ويقال لها: الخَرَق.

أما الوقاحةُ فمذمومةٌ بكلِ لسانٍ بالنسبة لكل إنسان وحقيقتها: لجاج النفس في تعاطي القبيح.

وأما الخرقُ وهو الدهشةُ من شدة الحياء، فيذم به الرجل لا سيما في المواطن التي تقتضي الإقدامَ، كالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والحكمِ بالحق، والقيام به، وأداء الشهادات على وجهها، ونحو ذلك.

معاشر الصائمين: ومع عظم مكانة الحياء، وما ورد في فضله، والنهي عن ضده إلا أن هناك مظاهرَ تشيع في أوساط الناس تدلُ على قلة الحياء، ومنها المجاهرةُ بالمعاصي، وقلةُ الأدب مع الوالدين، والجيران، والمربين، والمعلمين.

ومنها كثرةُ اللجاج، والسباب، والخصومة، والصخب.

ومنها التدخينُ -خصوصاً في الأماكن العامة-.

ومن مظاهر قلة الحياء التفحيطُ، ورفعُ الصوت بالغناء، والمعاكساتُ، والكتاباتُ البذيئة على الجدارن والأماكن العامة.

ومنها التبذلُ، والتبرجُ، والتكشفُ، والتعري، وتقليدُ الكفار في مستهجن العادات.

ومن مظاهر قلة الحياء كثرةُ الحديث عن النفس على سبيل المفاخرة، وتُقصُّدُ استعمال ما يدعو إلى الشهرة ولفت الأنظار، وما إلى ذلك من مظاهر قلة الحياء.

معاشر الصائمين: الحياءُ فطريٌّ غريزي يولد مع الإنسان، وهو -كذلك- اكتسابي يناله الإنسان بالأخذ بالأسباب.

ومما يعين على اكتساب الحياء وتنميته استحضارُ مراقبة الله -عز وجل- والإمساكُ مما تقتضيه قلةُ الحياءِ من قولٍ أو فعلٍ، وتذكرُ الآثارِ الطيبة للحياء، والآثارِ القبيحة لقلة الحياء.

ومنها مجالسة أهل الحياء، و مجانبةُ أهل الوقاحة، ومجاهدةُ النفس، وقراءةُ القرآن بالتدبر؛ فإنه يهدي للتي هي أقوم، والحياء من جملة ذلك.

ومنها تعاهدُ الإيمان وتقويتُه؛ فإن الحياء من الإيمان، وتحري الصدق؛ فإنه يهدي إلى البر، والحياءُ من البِّر، وتجنبُ الكذب؛ فإنه يهدي إلى الفجور وقلة الحياء من الفجور.

ومن أسباب اكتساب الحياءِ الدعاءُ، واستحضارُ حياء النبي ﷺ ومطالعةُ أخلاق الكمَّل من الرجال، و التناصحُ والتواصي بالحياء، وإشاعةُ روح الحياء في المجتمع، والحرصُ على إزالة ما ينافي ذلك، وتربية الأولاد على هذا الخلق العظيم.

اللهم اجعلنا من أهل الحياء، وأعذنا من الوقاحة وسوء الأدب.

وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

رمضان فرصة لترك التدخين (١)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن التدخينَ وباءٌ خطير، وشرٌ مستطيرٌ، وبلاءٌ مدمرٌ.

وقد وقع في شَرَكِه فِئامٌ من الناس، وكثيرٌ مِنْ أولئك يملكون قلوباً حية، وعواطفَ للإسلامِ قوية، إلا أنهم بلوا بالتدخين.

وأكثرُ هؤلاءِ لا يكابرونَ في ضررِ التدخين، ولا يشكُّون في أثرِهِ وحرمتهِ، بل تراهم يؤمِّلونَ في تركهِ، ويسعونَ للخلاصِ منهُ؛ فلهؤلاءِ حقٌّ على إخوانهم أن يعينوهم، ويأخذوا بأيديهم خصوصاً في هذا الشهر الكريم.

معاشر الصائمين: لو توجَّهنا بالسؤال إلى كلِّ مدخنٍ وقلنا له: «لماذا تدخن؟» لأجابوا إجاباتٍ مختلفةً؛ فَمِنْ قائلٍ: أدخن إذا ضاق صدري؛ كي أروِّح عن نفسي، ومِنْ قائلٍ: أدخن كي أتسلى في غربتي، وبُعدي عن أهلي، إلى قائلٍ: أدخن إذا سامرت زملائي؛ ليكتمل فرحي وأنسي، إلى قائل: أدخنُ؛ لأتخلصَ من القلقِ، والتوترِ، والغضبِ، إلى قائل: أدخنُ مجاملةً للرفاق، إلى قائلٍ: أدخنُ لفرطِ إعجابي بفلانٍ من الناسِ، فهو يدخنُ وأنا أتابعهُ، واعملُ على شاكلتهِ، إلى مسكينٍ يقولُ: تعلقتُ بهِ منذُ الصِّغرِ فعزَّ عليَّ تركهُ، إلى مكابرٍ عنيدٍ يقول: أدخن لقناعتي بجدوى التدخين؛ فلا ضررَ فيه، ولا عيبَ، ولا حرمة.

هذه ـ تقريباً ـ هي الأسبابُ الحاملةُ على التدخين؛ فإذا كانَ الأمرُ كذلك، فاسمح أيها الأخُ المدخن بالحوار معكَ مدةً يسيرةً؛ عسى أن نصل إلى نتيجة مُرْضِيَةٍ.

أخي الحبيب: ألستَ مقتنعاً من حُرْمَةِ التدخين، ومن أثرِهِ البالغ؟ ألا تفكر جاداً في تركهِ إلى غيرِ رجعة؟ ستقول: بلى، ولكن آملُ أن أزدادَ قناعةً بضررِ التدخين،

وإمكانيةِ تركه، ويقالُ لكَ: إليكَ ما تريد، فأعِر سَمْعَك قليلاً، وأَصْغِ فؤادك لما يقال:

أولاً:أيها الحبيب: تذكر قبلَ كل شيء أنك عبدٌ لله، وأكْرِم بها من عبودية، فعبوديتُكَ لله تحررُكَ من كلِّ شيء حتى من نفسِكَ التي بين جَنْبَيك، فتصبحُ حراً طليقاً عبداً لربٍّ واحدٍ لا لأربابٍ متفرقين.

وإن مقتضى عبوديتك لله أن تُطيعَه فلا تعصيَه، وذلك عنوان فلاحك وسعادتك، إذا تقررَ هذا عندك، فتذكر أن الدخانَ خبيثٌ، وأنه تبذيرٌ وإسرافٌ، وأنه قتلٌ للنفس، وإلقاءٌ باليد إلى التهلكة، وأنه إيذاء للمسلمين؛ فهل هذه الأمور من طاعةِ الله، أو من معصيتِه؟

ثانياً: التدخين يبعث على النفور منك، ومن مجالستك، بل والسلام عليك؛ لأن رائحتك لا تشجع على شيء من ذلك.

ثالثاً:التدخين قد يتسبب في حرمانك من نعمة الذرية؛ فهو يضعف النسل، ويضعف القدرة الجنسية، بل وربما قاد إلى العقم.

رابعاً: وإذا رزقت بأولاد فربما تعرضوا للتشويه، ونقص النمو، وزيادة العيوب الخلقية؛ فللتدخين أثرٌ بالغٌ على صحة أولاد المدخن.

خامساً: وإذا رزقت أولاداً فلا شك أنك ترغب في صلاحهم واستقامتهم ورجولتهم، وإذا كنت مدخناً ربما كانت النتيجةُ عكسَ ذلك؛ فربما تسببت في إغوائهم، وانحرافهم؛ لأنهم مُوْلَعُون بمحاكاتك وتقليدك.

سادساً: التدخين قد يَصْرِفُك عن برِّ والديك، وصلةِ أرحامك؛ لأنك تخشى عِلْمَهم بأنك تدخن؛ فلهذا تتحاشى قُربَهم، وتألفُ البعدَ عنهم ؛فأي خير يرجى من عمل

يتسبب في عقوق والديك وقطيعة أرحامك؟

سابعاً: بالتدخين تساهم في خذلان أمتك، ودعم أعدائها الذين يحاربونها ليل نهار.

وبفضل جهدك قد غدوت لصانعي تلك السموم السود خَيْرَ معين
تَحْبوهم المال الذي لولاه لم يجدوا السبيل لكيد هذا الدين

ثامناً: بالتدخين تُقصِّر عمرك، وتهدد حياتَك بالفناء؛ فمعظم وفيات العالم الصناعي إنما هي بسبب التدخين؛ حيث يموت سنوياً في العالم بسبب التدخين وحده مليونان وخمسمائة ألف شخص؛ فالدخان يجلب لك الموت العاجل، فضلاً عن أن سنواتِ العمرِ الأخيرةَ تكون معاناةً من الأثر السيىء للدخان.

وقد أجمعت البحوث العلمية على أن السجائر هي من كبرى المهلكات التي تصيب الإنسان بالعجز، وتهدده بالفناء.

تاسعاً: الدخان يحرمك السعادة الحقة، ويوهمك بالسعادة المزيفة؛ و إلا كيف يَسْعَدُ الإنسان وحياتُه مليئةٌ بالأسقام مهددةٌ بالأخطار.

عاشراً: التدخين يؤثر على عقلك، ويضعف تفكيرَك، ويورثك البَلادَة، وهذا مشاهد في الطلاب وغيرهم، ولقد أجريت تجارب لاختبار الذكاء بين طلاب المدارس فتبين بشكل واضح أن المدخنين أقل ذكاءًا ومقدرةً على الفهم من غيرهم ممن لا يدخنون.

الحادي عشر من أضرار التدخين: التدخين يعرضك للجلطة، وتصلُّب الشرايين، وموت الفجأة.

الثاني عشر: التدخين يؤذي عينيك أيما أذى، فهو يزيد من احتمال إصابتها بالماء الأزرق، ومرض إعتام العيون، كما أنه يؤدي إلى التهاب الجفون، وتَحسُّسِها، بل

ويؤدي إلى التهاب عَصَب الأبصار والعَمى.

الثالث عشر: التدخين يثلم مروءتَك، ويُنْقِص من قدرك، ويدل على ضعف إرادتك.

الرابع عشر: التدخينُ يثقِلُ عليك العبادةَ، ويدعوك لمخالطة الأشرار والأراذل، ويزهِّدك بالأكابر، والأخيار، والأفاضل.

الخامس عشر: التدخين يوهن قواك، ويضعف قدرتَك، ويورثك الخمول والكسل.

السادس عشر: لا يكاد عضوٌ من أعضاء المدخن يسلم من أضرار التدخين.

السابع عشر: التدخين سببٌ رئيسٌ للسرطان بأنواعه المتعددة؛ فهو سبب لسرطان الرئة، والحنجرة، والشفة، والبلعوم، والمريء، والبنكرياس، والمثانة، والكُلى.

الثامن عشر: التدخين يتسبب في تسوس الأسنان، واصفرارها، واسودادها، ويتسبب في التهاب اللِّثَةِ، وتقرُّحات الفمِ واللسان، وتشويهِ الشفاه، ووسخ الأسنان.

التاسع عشر: التدخين يسبب الربوَ، وضيقَ النَّفسَ، والسعالَ، والبصاقَ، وضَعفَ كفاءةِ الرئة، وسوءَ الهضم، وتليّفَ الكبدِ، والسكتةَ الدماغيةَ، والذبحةَ الصدريةَ، وإصابةَ شرايينِ المخِّ بالتصلّب، ويسبب الغثيانَ، والإمساكَ المزمنَ، والصداعَ، والأرقَ، والفشلَ الكُلويَّ، وضعفَ السمعِ، وفقدانَ حاسةِ الشم أو إضعافَها، وضعفَ الجهاز المناعي، والاستعدادَ للإصابة بأمراض خطيرة، وزيادةَ أمراض الحساسية، والتهاباتِ الجلدِ، وقُرْحَة المعدة، والاثني عشرَ.

العشرون: أن المدخنين -كغيرهم- عُرضَة لسائر الأمراض، ولكنها تزداد لديهم، وتتضاعف بسبب التدخين.

أيها الحبيب: ألم تقتنع بعد؟ أليس فيما مضى ذكره عِبْرةٌ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؟ ستقول -كعادتك- بلى، ويقال لك: متى ستقلع عن التدخين

إذاً؟ ستقول: غداً، أو بعد غدٍ، أو بعد ذلك سأحاول الإقلاع عن التدخين.

إذاً لعلك لم تقتنع بما قيل سابقاً، بل ستستمر على التدخين، ولن تقلع عنه؟ ستقول: لا، عفواً، إنني مقتنعٌ تمامَ الاقتناع بما مضى ولكن يصعب عليّ ترك التدخين، وأخشى ألا أستمر على تركه.

إذاً ما الحل أيها الحبيب، هل نقف معك أمام طريق مسدود؟ ونرضى منك أن تواصل التدخين حتى يهوي بك في مكان سحيق؟ ستقول: لا يا أخي لم يصل الأمر إلى هذا الحد.

إذاً ما العمل؟ ربما تقول: لعلي أسلك طريقاً آخر؛ كي أنجو من أضرار التدخين؛ حيث سأتحول عن التدخين إلى الغليون أو الشيشة، فلعلها أقل ضرراً أو أهون خطراً.

ويقال لك: ما أنت ـ والحالة هذه ـ إلا كالمستجير من الرمضاء بالنار.

أما علمت أن ما مضى ذكرُه من أضرار التدخين ينطبق على الشيشة والغليون ونحوها.

ربما تقول: إذاً سأنتقل إلى نوع خفيف من السجائر ذاتِ المحتوى المنخفض من النيكوتين والقطران؛ فحنانيك بعض الشر أهون من بعض.

ويقال لك: إن هذه خُدعةٌ كبرى قد ثبت ضررها وعدم جدواها وذلك لما يلي:

ـ أن ذلك سببٌ لتدخينِ أكبرِ عددٍ من السجائر.

ـ وأن المدخنين في هذه الحالة يسحبون عدداً أكبر من الأنفاس من السيجارة الواحدة.

وأنهم يستنشقون الدخان بعمق، ويحتفظون به أطول فترة ممكنة، ليعوضوا نسبة النيكوتين التي فقدوها.

ـوكل ذلك يؤدي إلى امتصاص المزيد من النيكوتين والقطران، ويحدث هذا بطريقة لا إرادية ودون أن يشعر بها المدخن؛ فكيف تلجأ إلى هذا الحل إذا؟

أيها الأخ الحبيب للحديث معك بقية ـإن شاء اللهـ وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد.

رمضان فرصة لترك التدخين (٢)

الحمد لله معين الصابرين، والصلاة والسلام على إمام المتقين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد كان الحديث الماضي يدور حول أضرار التدخين، والحديث ههنا سيكون حول السبل المعينة على تركه، فيا أيها المدخن: ربما تقول بعد ذلك: لقد أعيتني الحيل، وضاقت بي السبل، ولم أستطع ترك التدخين.

ويقال لك: لا ما أعيتك الحيل، ولا ضاقت بك السبل، فلكل داءٍ دواءٌ، ولكل مُعْضِلةٍ حلٌّ، وما من قُفْلٍ بلا مفتاح وإلا فما هو بقفل.

تقول ما هو الحل؟

ويقال لك: أن تقلع عن التدخين فوراً، وان تهجره بلا رجعة.

ستقول بزفرة، ولهفة، وأمل، وشوق، كيف الوصول إلى ذلك السبيل، وكيف النجاة من هذا الداء الوبيل؟ وما العلاج الناجع، والدواء النافع، من هذا السم الزعاف الناقع؟

يقال لك حينئذٍ: أيها الحبيب، كلّ ما تريده ستجده طالما بحثت عنه، وسعيت له سعيه، وطرقت أبوابه، وأخذت بأسبابه، فأعِرْ سمعك، وافتح قلبك، فستجد -إن شاء الله- ما يشفي عِلّتك، ويروي غُلّتك، فمِمَّا يعينك على ترك التدخين ما يلي:

أولاً: استحضار أضرار التدخين، واستحضار حرمته في الدين.

ثانياً: التوبة النصوح؛ فتب إلى ربك، وعد إلى رشدك، قبل أن يُتْلِف التدخين جسدك، وقبل أن يفجأك الموتُ على غِرَّةٍ منك، فأقدم غير هيَّاب، ولا وَجِل، ولا متردد، وإياك والتأجيلَ؛ فإن التأجيل ذنبٌ يجب أن تتوب منه.

ثالثاً: استعن بالله وفوّض أمرك إليه، والتمس إعانته ولطفه، وتضرع إليه بالدعاء، واسأله بصدق وإخلاص وإلحاح أن يعينك على ترك التدخين.

رابعاً: أقبل على الله بالمحافظة على الصلاة؛ فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأقبل على الله بالصيام؛ فإنه علاج نبوي يهذّب النفس، ويسمو بالخلق، ويقوي الإرادة، ويعين على محاربة الهوى، وأقبل على كتاب ربك؛ ففيه الهداية للتي هي أقوم، وأكثر من ذكر الله -عز وجل- ففيه الطمأنينة والسكينة، واستعذ بالله من الشيطان الرجيم؛ فإن الشيطان هو الذي يزيِّن لك المعصية؛ فإذا استعذت بالله من الشيطان بصدق، أعاذك الله منه.

خامساً: استحضر الثمرات الحاصلة بترك التدخين.

سادساً: تذكّر أن مَنْ ترك شيئاً لله عوّضه الله خيراً منه، وأن العِوَضَ أنواع مختلفة، وأجل ما تعوَّض به: الأنس بالله، ومحبته، وطمأنينة القلبِ بذكره.

سابعاً: تذكّر الأجرَ المترتبَ على ترك التدخين؛ فكما أن ثوابَ الطاعةِ الشاقة أعظمُ مما لا مشقة فيه، فكذلك ثوابُ تركِ المعصية إذا شقَّ وعَظُمَ.

ثامناً: وتذكّر أنك بترك التدخين تنقذ نفسك من ضرر محقق.

تاسعاً: تذكّر لذة الانتصار على النفس، ومخالفة الهوى؛فإن تلك اللذةَ أعظمُ من لذة كاذبة عابرة.

عاشراً: قارن بين لذة التدخين -إذا كان فيه من لذة- بالضرر البالغ الذي يحصل من جرَّائه، حينئذٍ يتبين لك الغبن، فكيف-إذاً-تُقْدِمُ على لَذَّةٍ وهميةٍ سريعةِ الزوال يكون بعدها هلاكك وعطبك؟!

الحاديَ عشر مما يعين على ترك التدخين: العزيمةُ الصادقةُ، والإرادة القوية، التي هي

عنوان عظماء الرجال.

الثانيَ عشر: الصبر؛ فالذي يريد ترك التدخين قد يجد مشقة كبرى خصوصاً في بداية الأمر؛ فالإقلاع عن التدخين ثقيل على النفس، ولكنه ليس متعذِّراً ولا مستحيلاً، والصعوبةُ في تركهِ تَكْمُنُ في ضغط العادة، ولأن كثيراً من المدخنين -وخصوصاً المُفَرِطين منهم- يشعرون بالكآبة في الأسابيع التالية لإقلاعهم عن التدخين، إلى جانب معاناة الرغبة الشديدة في التدخين؛ ذلك أن نتائجَ تركِ التدخين ربما تتضمن الخمولَ، وشدةَ التوترِ، وسرعةَ الغضبِ، والقلقَ، والنومَ المتقطعَ، وصعوبةَ التركيزِ الذهنيِّ، وأعراضاً أخرى في المعدة والأمعاء، مع انخفاض في الدم، ومعدل النبض العام.

ومع هذا فبعض تلك النتائج قد يكون نفسياً فقط، وقد لا تظهر تلك الأعراض إذا كانت العزيمةُ صادقةً، والإرادةُ قويةً.

ثم إن تلك المشقة لا تزال تَهُوْنُ شيئاً فشيئاً إلى أن يألف المدخن ترك التدخين.

قال ابن القيم رحمه الله: «إنما يجد المشقة في ترك المألوفات والعوائد مَنْ تركها لغير الله، أما من تركها مخلصاً من قلبه لله، فإنه لا يجد في تركها مشقة إلا في أول وهلة، ليُمْتَحن أصادق هو في تركها أم كاذب؛ فإن صبر على ترك المشقة قليلاً استحالت لذة» ا.هـ.

فيا أيها الحبيب تجرَّع مرارةَ الصبر، وغُصَصَ الحرمان في البداية؛ لتذوق الحلاوة، وتحصل على اللذة الحقيقية في النهاية.

والصبر مثل اسمه مرٌّ مذاقَتُه لكنْ عواقِبُهُ أحلى من العسل

واعلم أن الصَّابرَ معان من الله، قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «ومن

يتصبَّرْ يُصبِّره الله».

واستحضر أن الصبرَ عن التدخين أسهلُ بكثيرٍ مما يوجبه التدخين، فإنه يورث ألماً، وعقوبةً، وهمًّا، وغمًّا، وندامةً، وذلاً، وضررًا ـ كما مرَّ ـ.

الثالث عشر من الأمور المعينة على ترك التدخين: الحذرُ من اليأس، فقد تحاول تركَ التدخين مرةً أو أكثر فلا تفلح، وقد تتركه فترةً ثم ترجع إليه مرةً أخرى؛ فربما قادك ذلك إلى اليأس، وربما ألقى الشيطانُ في قلبك أنْ لا سبيل إلى ترك التدخين، وأنَّ كلَّ محاولةٍ منك ستبوء بالإخفاق؛ فإياك أن يَدِبَّ هذا الشعورُ إليك، أو أن يجد منفذاً إلى قلبكَ، بل حاول مرةً بعد أخرى، ولا تيأسنَّ مهما حاولت وأخفقت، فلعلك إن أخفقت مراتٍ نجحت في آخر المطاف، بل من الناس من ينجح في أول محاولة جادة.

الرابعَ عشرَ: البعد عن رفقة السوء، وعن كل ما يذكر بالتدخين، من فراغٍ، ورؤية مدخنين، أو شم دخان.

الخامسَ عشرَ: لا تلتف إلى هؤلاء؛ فقد تبتلى بأناس يخذِّلونك إذا رأوك هممْتَ بترك التدخين، فربما عوَّقوك، ووضعوا العراقيلَ والصعوباتِ في طريقك، فلا تلتفت إلى هؤلاء، بل أدِرْ ظهرَكَ لهم، وتوكل على ربك، واستشعر روح التحدي والإصرار، وستصل إلى غايتك بإذن الله.

السادس عشرَ: وإذا ضَعفتْ نفسك عن ترك التدخين فوراً، و لم تستطع أن تهجره مباشرة بلا رجعه ـ فلا أقل من أن تتدرج، وتمضي في طريقك لِتركه، فتقلل من شربه، إلى أن تتركه بالكلية، ومما يعينك على ذلك أن تدع المجاهرة في شربه؛ لأن المجاهرة تقودك إلى شربه في كل مكان.

ومن ذلك أن تمكث في أماكن تعينك على ترك التدخين كأن تجالس الأخيار

والصالحين، وأن تتردد على الوالدين، وعلى من تستحيي من التدخين أمامهم؛ فذلك يبعدك، ويسليك عن التدخين إلى أن تعتاد تركه والسلوَّ عنه.

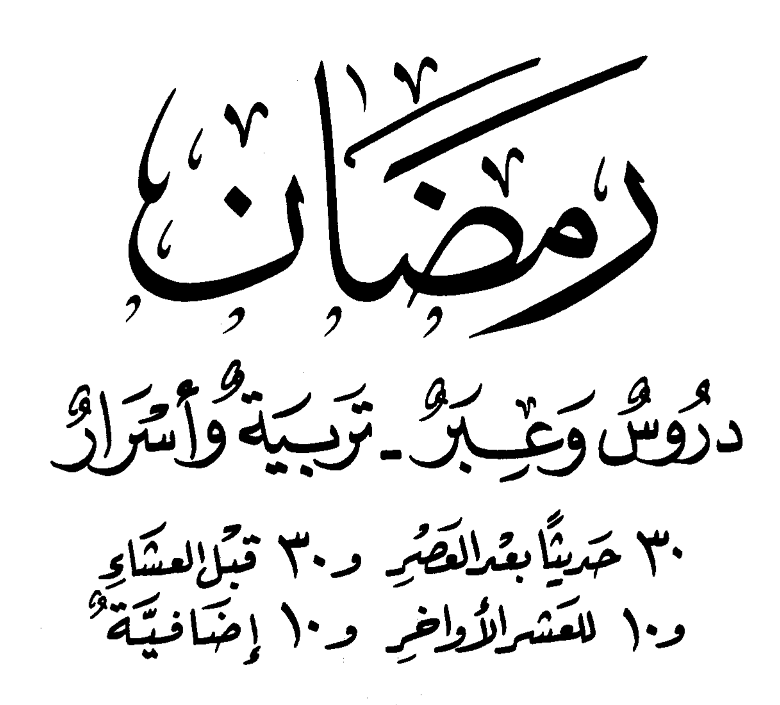
السابع عشر: عرض الحال على من يعين، سواءً كان طبيباً ناصحاً، أو من تتوسم فيه الخير والصلاح، والنصح، فستجد عنده ما يعينك على الخروج من مأزقك.

وأخيراً نسأل الله أن يعينك، وأن يهديك لأرشد أمرك، وأن يحبب إليك الإيمان، ويزينه في قلبك، وأن يكره إليك الكفر والفسوق والعصيان، ويجعلك من الراشدين.

وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد.

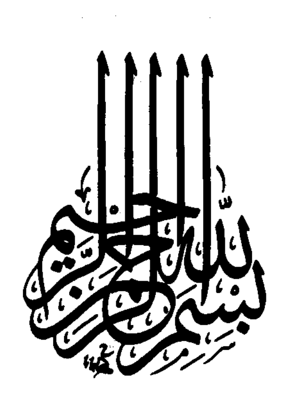


فهرس



تأليف
د. محمد بن إبراهيم الحمد

دار ابن خزيمة


بسم الله الرحمن الرحيم

رمضان

دروس وعبر - تربية وأسرار

٣٠ حديثاً بعد العصر و٣٠ قبل العشاء
و١٠ للعشر الأواخر و١٠ إضافية

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحمد، محمد بن إبراهيم

رمضان دروس وعبر تربية وأسرار ـ الرياض

٣٠٤ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم .

ردمك ٢ـ٤٤ـ٨٧٣ـ٩٩٦٠

١ ـ الصوم ٢ ـ الوعظ والإرشاد أ ـ العنوان

ديوي ٢٥٢,٣ ٢٣/٣٥٥٩

رقم الإيداع: ٣٥٥٩ / ٢٣

ردمك: ٢ـ٤٤ـ٨٨٣ـ٩٩٦٠

الطبعة الثانية

١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م

دار ابن خزيمة

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ـ الرياض

الملز ـ شارع الاحساء ـ غرب حديقة الحيوان

هاتف: ٤٧٣٠٧٨٨ ـ ٤٧٦٩٩٣٢ ـ فاكس: ٤٧٦٠٧٩٥